دروس في تهذيب النفس

تأليف

د. أبو الفضل مستقيمان
د. فاطمة بازيار
الشيخ مهدي رعد

مؤسسة التاريخ العربي
للطباعة والنشر والتوزيع



دروس

في تهذيب النفس

تأليف

د. أبوالفضل مستقيمان   شيخ مهدي رعد

د. فاطمة بازيار

مؤسسة التاريخ العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م



مؤسسة التاريخ العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

THE ARABIC HISTORY
Publishing & Distributing

العنوان الجديد

دار احياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ طريق المطار ـ خلف أوتيل الغولدن بلازا ص.ب: ١١/٧٩٥٧
الرمز البريدي: ١١/٠٧٢٢٥٠ ـ هاتف : ٠٠٩٦١١٤٥٥٥٥٩/ ٠٠٩٦١١٤٥٢٤٦٩ / فاكس: ٠٠٩٦١١٨٥٠٧١٧

Beyrouth -Lebanon—Airport Road -Behind Golden Plaza—P.O:11/7957—Postal Code:-11/072250 Tel:009611455559 - 009611452469 -- Fax : 009611/850717
Email:darturath2012@hotmail.com www.dartourath.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

إن الأخلاق الإسلامية من أهم ما جاءت الشريعة الإسلامية لترسيخها وتثبيتها بين الأفراد والمجتمع؛ لأن بها تستقيم الحياة وتنشر المودة والرحمة، والسعادة؛ ولهذا حث الإسلام عليها ورغب فيها وجعلها من كمال الإيمان، فركز على غرسها في نفوس أبنائه.

وهي تشمل سلوك الإنسان في حياته الخاصة وحياته مع غيره في مختلف المجالات الاجتماعية والعلمية والسياسية وغيرها وهي أيضا ملازمة لقوة الإيمان فكلاهما يؤثر في الآخر ويتأثر به؛ لذا فالدين القيم والأخلاق الفاضلة ضروريان لكل مجتمع ليرتفع بهما إلى أعلى المستويات ويرتقي بهما إلى أعلى الدرجات، وحين يتخلى أي مجتمع عنهما يرتكس إلى أسفل الدركات.

الأخلاق من أقدم العلوم التي عرفها البشر، وسلوك الأمهات في الإنسان والحيوان والطير هو سلوك أخلاقي حقيقي. بمعنى عطاء بلا مقابل ولولا ذلك لانقطعت الحياة ولم تستمر.

والتربية الأخلاقية تسعى إلى تزويد النشء بالقيم الأخلاقية التي يريد المجتمع غرسها في أبنائه والتربية الأخلاقية تعد أحد أهم وظائف المدرسة التي تسعى إلى تحقيقها من خلال مواد الدراسة والأنشطة والمعلم.

إنَّ الأخلاق الحسنة كثيرة وعديدة، وينبغي للسالك أن يهتمّ بها كلها، لأنَّ لكلّ منها أثره وثماره، وعدم الاهتمام بها سيؤدّي إلى الحرمان من فوائدها، وسنبيّن بعض تلك الأمور الأخلاقيّة التي تعدّ ضروريّة في حياتنا الاجتماعيّة، لأنَّ العبادة لا تقتصر في الإسلام على الصلاة، والصيام،

والحجّ، والزيارة، والذكر، والدعاء، ولا تنحصر بالمساجد والمعابد والمزارات، بل يعتبر القيام بالمسؤوليّات الاجتماعيّة والإحسان وخدمة عباد الله إذا كان مع قصد القربة من أفضل العبادات، حيث يمكن أن يكون وسيلة لبناء وإكمال النفس والتقرّب من الله. فالسير والسلوك في الإسلام لا يستلزم الانزواء، بل يمكن أن يكون من خلال قبول المسؤوليّا ت الاجتماعيّة وفي وسط المجتمع، والتعاون في الخير والإحسان، والسعيّ في حوائج المؤمنين، وإدخال السرّور إلى قلوبهم، والدفاع عن المحرومين والمستضعفين، والاهتمام بأمور المسلمين. وقضاء حاجاتهم، وحل مشاكلهم، ومساعدّة عباد الله؛ وكلّ هذه الأمور تعتبر في الإسلام من العبادات الكبيرة، وثوابها أكبر من عشرات الحجج المقبولة المبرورة.

إنَّ من أهمّ الطرق لتربية النفس والسير والسلوك ونيل مقام القرب، تربية الفضائل ومكارم الأخلاق في نفوسنا، وللفضائل الأخلاقيّة آثار جليلة في الدنيا والآخرة، ولذا أكَّدت عليها الآيات والروايات، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما يوضع في ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخلق»[(١)].

وقد ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أحبّكم إليّ وأقربكم منّي يوم القيامة مجلساً، أحسنُكم خُلُقاً وأشدُّكم تواضعاً»[(٢)].

وقد فصَّل المعصومون عليهم السلام الحديث عن حسن الخلق، فقد سُئل الصادق عليه السلام: ما هو حدّ حسن الخلق؟ قال عليه السلام: «تلين جانبك، وتطيّب كلامك، وتلقى أخاك بِبِشْرٍ حَسَن»[(٣)].

ومن الله نستمدّ التوفيق

المؤلفـون

بيروت - سنة ٢٠١٤ م/ ١٤٣٥ هـ

---

(١) الحر العاملي - وسائل الشيعة - مؤسسة آل البيت(ع) لإحياء التراث- الطبعة الثانية -ج ٨ - ص ٥٠٦.

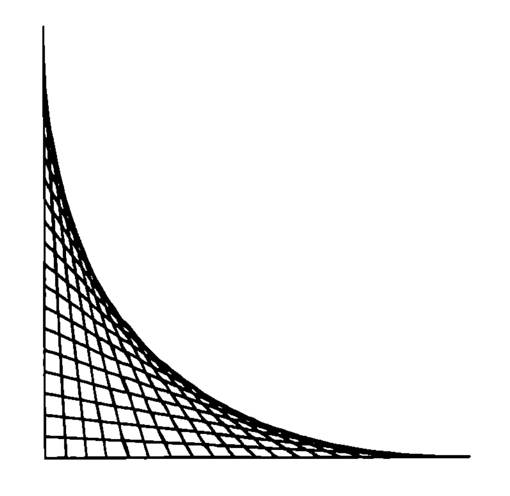
(٢) المجلسي - بحار الانوار - مؤسسة الوفاد - بيروت لبنان - الطبعة الثانية المصححة - ج ٦٨ - ص ٣٨٥.

(٣) م.ن.ج ٦٨ - ص ٣٨٩.

المبحث الأول:

في أهمية الأخلاق في الإسلام

(تعريف الأخلاق والتربية لغة واصطلاحاً وبيان أهداف التربية عند المسلمين وبيان مصادر الأخلاق)



أهمية الأخلاق في الإسلام

للأخلاق أهمية بالغة لما لها من تأثير كبير في سلوك الإنسان وما يصدر عنه، بل نستطيع أن نقول: إن سلوك الإنسان موافق لما هو مستقر في نفسه من معان وصفات، وما أصدق كلمة الإمام الغزالي إذ يقول في احيائه "فان كل صفة تظهر في القلب يظهر أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك الا على وفقها لا محالة" فافعال الإنسان، إذن موصولة دائما بما في نفسه من معان وصفات صلة فروع الشجرة بأصولها المغيبة في التراب. ومعنى ذلك أن صلاح أفعال الانسان بصلاح اخلاقه، لأن الفرع بأصله، إذا صلح الاصل صلح الفرع، وإذا فسد الاصل فسد الفرع ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً﴾ [الاعراف: ٥٨]. ولهذا كان النهج السديد في إصلاح الناس وتقويم سلوكهم وتيسير سبل الحياة الطيبة لهم أن يبدأ المصلحون باصلاح النفوس وتزكيتها وغرس معاني الاخلاق الجيدة فيها ولهذا أكد الاسلام على صلاح النفوس وبين أن تغيير أحوال الناس من سعادة وشقاء ويسر وعسر، ورخاء وضيق، وطمأنينة وقلق، وعزّ وذل كل ذلك ونحوه تبع لتغيير ما بأنفسهم من معان وصفات، قال تعالى: ؟إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم؟.

وتظهر أهمية الأخلاق أيضا من ناحية أخرى، ذلك أن الإنسان قبل أن يفعل شيئا أو يتركه يقوم بعملية وزن وتقييم لتركه أو فعله في ضوء معاني الأخلاق المستقرة في نفسه فاذا ظهر الفعل أو الترك مرضيا مقبولا انبعث في النفس رغبة فيه واتجاه اليه ثم اقدام عليه، وإن كان الأمر خلاف ذلك انكمشت النفس عنه وكرهته واحجمت عنه تركا كان أو فعلا. إن عملية الوزن هذه قد

تكون سريعة جداً وغير محسوس بها إلى درجة أن الإنسان قد يفعل الشيء أو يتركه بدون روية أو تفكير، وفي بعض الأحيان لا تتم عملية الوزن والتقييم إلا بعد تأمل ومضي وقت طويل، وقد لا تتم هذه العملية فيقع الإنسان في التردد بين الفعل والترك. ولكن في جميع الأحوال لا بدّ من عملية الوزن والتقييم لكل فعل أو ترك بلا استثناء.

أول الطريق في السير إلى الله سبحانه وتعالى، هو أن يبدأ الإنسان من نفسه فينزهها عما حرمه الله تعالى عليها ويعوّدها الطاعة، وهذا يكون في فترة الشباب بالدرجة الأولى، فتهذيب النفس في عمر الشباب أثبت للإنسان وأرسخ، كما أن الشاب يكون في حالة نفسية وعقلية وجسدية أقدر من الشيوخ على القيام لله تعالى بأداء طاعاته، وهذا ما كان يؤكد عليه الإمام الخميني قدس سره، ويحذر أيضاً في هذا الإطار من الشيطان وألاعيبه وإغراءاته التي لا تحصى لإزالة الشباب عن مواقع الطاعة والتهذيب إلى مراتع الهوى واللعب واللّهو والغفلة يقول قدس سره:

''اسعَ في إصلاح نفسك ما دمت تحظى بنعمة الشباب، فإنَّك ستخسر كل شيءٍ في الشيخوخة، فمن مكائد الشيطان ولعلها أخطر مكائده، التي سقط فيها أبوك ومازال، إلا إذا أدركته رحمة الحق تعالى، ''الاستدراج'' ففي أوائل الشباب يسعى شيطان الباطن أشدُّ أعداء الشباب، في ثنيه عن إصلاح نفسه ويمنّيه بسعة الوقت، وأن الآن هو آن التمتع بالشباب، ويستمر في خداعه بالوعود الفارغة ليصدّه عن فكرة الإصلاح تماماً، وساعة بعد ساعة، ويوماً بعد يوم يتصرّم الشباب، ويرى الإنسان نفسه فجأة في مواجهة الهرم الذي كان يؤمِّل فيه إصلاح نفسه، وإذا به ليس بمنأىً عن وساوس الشيطان أيضاً، إذ يمنّيه آنذاك أيضاً بالتوبة في آخر العمر. لكنه حينما يحُسُّ بالموت في آخر العمر، يصبح الله تعالى أبغض موجود إليه، لأنه يريد انتزاع الدنيا محبوبه المفضّل منه. وهذه حالة أولئك الذين لم ينطفىء نور الفطرة فيهم تماماً. وهناك من أبعدهم مستنقع الدنيا عن فكرة الإصلاح كلياً، وسيطر عليهم غرور الدنيا بشكل تام، وقد رأيت أمثال أولئك بين أهل العلوم المتعارفة، ومازال بعضهم على قيد

الحياة، وهم يرون أن الأديان ليست سوى خرافة وترهات»[١].

إن الإسلام يحث على الأخلاق الحميدة ويرغب فيها، بل يجعلها من كمال الإيمان. وهي ضرورة لسعادة الشعوب وازدهارها وقيام الدول وبقائها؛ ولذا ركز الإسلام على غرسها في نفوس المسلمين. ولا تجد آية في القرآن إلا وفيها حض على التحلي بمكارم الأخلاق والتخلي بالأخلاق المذمومة، ويكفي جميع تلك الأقوال الجامعة المملوءة حكمة ورشدا لإثبات صفاء قواعد الأخلاق في القرآن. . .إنه أبصر كل شيء. . »[٢].

ولا شك أن هذه النصوص وغيرها التي لم نسردها لضيق المجال تبين المكانة التي يحتلها حسن الخلق في الإسلام.

---

(١) نفحة من السلوك المعنوي، رسالة موجهة للمرحوم السيد أحمد الخميني.
(٢) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ص: ٢٧٢.

تعريف الأخلاق لغة

قال الراغب الإصفهاني في تعريف الأخلاق: الخلق أصله: التقديرالمستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[1].

ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[2].

بالهيآت والأشكال والصور المدركة بالبصر... وخص الخلق بضم الخاء بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة[3]، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[4].

وقال الجوهري في الصحاح:

«... والخلق بسكون اللام وضمها: السجية، وفلان يتخلق بغير خلقه أي يتكلفه»[5].

وفي لسان العرب:

«... الخلقة بكسر الخاء -: الفطرة... والخلق بفتح الخاء وسكون اللام.

والخلق بضم الخاء واللام- السجية.. الخلق- بضم اللام وسكونها: هو

---

(١) سورة السجدة آية ٤.

(٢) سورة النساء آية ١.

(٣) مفردات الراغب الإصفهاني: ص: ١٥٧- ١٥٨ كتاب الخاء، مادة خلق.

(٤) سورة القلم آية ٤.

(٥) الصحاح للجوهري ج٤ ص ١٤٧١ باب القاف فصل الخاء، مادة خلق.

الدين والطبع والسجية. وحقيقته أنه صورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه، وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها..»[1].

إذًا الأخلاق لغة هي: «التصرفات الإنسانية الصادرة عن أوصاف النفس وسجاياها الباطنة. أو هي سيماء النفس وصورتها الباطنة»[2].

الخلق في اللغة الطبع والسجية، وفي اصطلاح العلماء، كما يعرفه الغزالي عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية[3].

---

(1) لسان العرب لابن منظور ج ١٠ ص: ٩٦ باب القاف فصل الخاء مادة خلق.
(2) العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور- البحوث العربية- ص: ٢٠٤.
(3) إحياء علوم الدين للغزالي ج ٣، ص ٤٦.

تعريف الأخلاق اصطلاحاً

عرفه الإمام الغزالي، بقوله: «... الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية. فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت ذلك الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا...»(١).

وهذا يعني أن الأخلاق تنقسم إلى قسمين: أخلاق محمودة وهي التي تهمنا هنا، وأخلاق مذمومة.

تعريف التربية لغة:

كلمة «تربية» يمكن أن تكون مشتقة من الفعل ربا ومضارعه يربو ومعناها نما وزاد. ويمكن أن تكون مشتقة من الفعل ربى ومضارعه يربي بمعنى نشأ وترعرع، كما يمكن أن تكون مشتقة من الفعل رب أو ربب ومضارعه يربِّي ومعناه أصلح الشيء. «وجاء في لسان العرب لابن منظور» ربوت في بني فلان أربو نشأت فيهم » وأنشد ابن الأعرابي:

«فمن يك سائلا عني فإني بمكة منزلي وبها ربيت»(2)

تعريف التربية اصطلاحا:

---

(١) إحياء علوم الدين، ج ٣ ص ٥٨.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ٦، ص ٩٣.

هناك العديد من التعريفات التي دارت حول مفهوم التربية وسنقتصر هنا على تعريفين منها.

* هي عملية إنماء الشخصية بصورة متوازنة ومتكاملة، أي تشمل جوانب الشخصية الجسدية والاجتماعية والجمالية والروحية والأخلاقية والعقلية والوجدانية»[١].
* «هي عملية التكيُّف أو التفاعل بين المتعلم (الفرد) وبيئته التي يعيش فيها. فالتربية عملية تطبيع اجتماعي وتعايش مع الثقافة التي يعيشها مجتمع معيّن يخضع عقيدة معيّنة ويعيش تحت ظروف معيّنة وفي ظلّ نظام وحكم معيّن»[٢].

أهداف التربية عند المسلمين:

إن الهدف الشامل لمنهج التربية في النصور الإسلامي هو: إيصال الإنسان إلى درجة الكمال التي هيّأه الله لها، حتى يكون قادراً على القيام بحق الخلافة في الأرض عن طريق الإسهام بإيجابية وفاعلية في عمارتها وترقية الحياة على ظهرها وفق منهج الله[٣].

وبناءً على ذلك فقد حدّدت التربية الإسلامية أهدافها وغاياتها الثانوية لتحقيق الهدف الرئيسي الشامل. وهي:

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهذا الهدف هو صفة أمة الإسلام، وهو في ذات الوقت وظيفة هذه الأمة وسبيلها إلى تحقيق الرفعة والإخاء، ﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾[٤].
- استعادة تميز الأمة والعمل على تحقيق وحدتها:

أما الوحدة فهي سمة بارزة في دين هذه الأمة، ذلك أنها تدين بعقيدة

---

(١) مطاوع. إبراهيم عصمت، أصول التربية ط ٧، ص ٥٦- ٧٠.
(٢) إبراهيم ناصر، أسس التربية، عمّان، ص ١٧.
(٣) مدكور، مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها، ص ١٣٦.
(٤) آل عمران: ١١٠.

واحدة، وربّها واحد، ونهجها واحد، وسنّة كونها واحدة، قال تعالى: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾[١].

- الاهتمام باللغة العربية: لأنها لغة مقدسة نزل بها دستور أمتنا الخالد، ولكن وضع اللغة العربية في أقطار العالم العربي مؤسف إلى حد الإبكاء[٢].
- اعتماد العلم والمعرفة من أجل تنمية معارف الإنسان ومهاراته واتجاهاته: يقول الله تعالى: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[٣].
- التركيز على مبدأ (العلم للعمل): ونبذ كل النظريات والمعلومات التي لا تسمن ولا تغني من جوع ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾[٤].
- التأكيد على الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن المستقيم ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[٥].

هذه كانت بعض الأهداف التي تسعى التربية الإسلامية لتحقيقها للوصول بالإنسان إلى مرتبة الكمال التي هيّأه الله لها.

مصادر الأخلاق:

أن من أهم مصادر الأخلاق ما يلي:

الأول - القرآن الكريم:

أن القرآن هو المصدر الأساسي للأخلاق، فكل من نهل من معينه فلا بدّ أن يتأثر به ويتخلّق بأخلاق الكون السائر إلى الله، يقول تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا

(١) الأنبياء: ٩٢.
(٢) مدكور، مناهج التربية، أسسها وتطبيقاتها، ص ١٧٦.
(٣) البقرة: ١٢٩.
(٤) التوبة: ١٠٥.
(٥) القلم: ٤.

القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلم يتفكرون﴾[١].

الثاني - الفطرة:

الفطرة كل إنسان مولود على الفطرة لكن البيئة أو المجتمع هو الذي يؤثر على طبيعته الأخلاقية وتدينه فتغيره من حسن إلى أحسن أو من طبيعته الفطرية الحسنة إلى طبيعة سيئة، يقول سبحانه: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[٢].

الثالث - الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم):

يعتبر الرسول ﷺ الذي جاء متمماً لمكارم الأخلاق أعظم من يجسد أخلاق القرآن، وإذا كان الرسول ﷺ هو أعظم من يجسد ما بيّنه القرآن من محاسن الأخلاق، وهو أفضل من تمثلت فيه تلك الأخلاق، بل خلق فطرة على تلك المحاسن فإن هذا يعني أنه لا تكتمل محبته إلا باتباع سنته، وأن مقياس هذا الاتباع رهين بدرجة التخلق بأخلاقه ذلك أن الله «سبحانه لحبه أخلاق مخلوقاته يحب محمد ﷺ إذ هو في ذروى الأخلاق الحميدة كما اتفق عليه الأولياء والأعداء، ويحب كذلك من يتشبهون به في الأخلاق كل حسب درجته . . .»[٣].

---

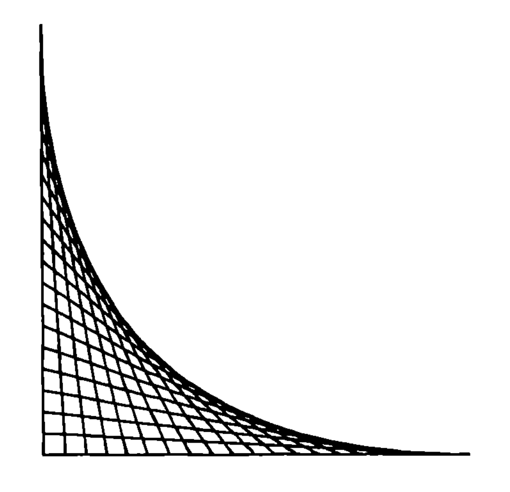
(١) سورة الحشر: ٢١.
(٢) سورة الروم: ٣٠.
(٣) المكتوبات، ص ٣٩٣.

المبحث الثاني:

في مفهوم تهذيب وجهاد النفس وأهميته

والتوجُّه لله ضرورة الجهادين (الأكبر والأصغر معاً)

ومقامات النفس



ما هو تهذيب النفس؟

تهذيب النفس هو لبُّ العرفان، كما أشار لذلك الإمام الخميني قدس سرّه في وصيته لابنه السيد أحمد قدس سره، فقد أشار له في إحدى وصاياه أن يحذر من أن يدركه الهرم وهو لا يزال يراوح مكانه في تهذيب النفس ونهيها عن السعي للدنيا لأجل الدنيا، وهذا ما يحتاج إلى مراقبة دؤوبة، وسعي دائم وحثيث للمحاسبة والمعاتبة عند الوقوع في الخطأ، ومن ثم جعل الحياة كلها بحركاتها وسكناتها لله تعالى، حتى الأكل والشرب والنوم، فبإمكان أي منا أن يحول كل هذه المباحات إلى طاعة الله تعالى كأن ينوي بذلك الاستعانة على العبادة وخدمة العباد المؤمنين، يقول الإمام الخميني قدس سره:

«استمع الموعظة الواحدة التي يعظنا بها اللهو وأرهف لها سمع القلب والروح، ثم أعقلها تماماً، وسر في خطها. يقول تعالى: ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى...﴾[1]؛ فالميزان في بدء الحركة إنما هو في كونها «قياماً لله» سواء في الممارسات الشخصية والفردية أو في الفعاليات الاجتماعية. فاسع أن تكون موفقاً في هذه الخطوة الأولى، وما أسهل ذلك في أيام الشباب، وأوفر حظه من التوفيق، وإياك أن يفاجئك الهرم مثل أبيك وأنت إما مراوح في مكانك أو متراجع القهقرى؛ والأمر محتاج في تفاديه إلى المراقبة والمحاسبة»[2].

(١) سبأ: ٤٦.
(٢) من رسالة للإمام قده بعنوان: الفطرة أول منازل التوحيد، إلى ابنه حجة الإسلام السيد أحمد الخميني رحمه الله ١٧ شوال ١٤٠٤ هـ.

مفهوم التوجه لله:

قد يتصور بعض الناس أن التوجه والانقطاع لله تعالى يعني ترك العلاقات الاجتماعية والابتعاد عن الناس وخدمتهم والسعي للمعاش، وهذا ما كان يحذِّر منه الإمام الخميني قدس سره بشكل دائم، فالعرفان لا يعني التصوف والرهبانية، إذ لا رهبانية في الإسلام، إن إحدى طرق التقرب إلى الله هي خدمة خلقه وعباده والسعي في قضاء حوائجهم، يقول قدس سرّه: «إنّ الميزان في الأعمال هو النوايا التي تستند إليها، فلا الاعتزال الصوفي دليل على الارتباط بالحق، ولا الدخول في خِضَمّ المجتمع وإقامة الحكومة شاهد على الانقطاع عن الحق، فما أكثر ما يكون العابد والزاهد واقعاً في شراك إبليس التي تشتد وتتوسع بما يناسب ذلك العابد كالأنانية والغرور والعُجب والتكبر واحتقار خلق الله والشرك الخفي وأمثال ذلك مما يبعده عن الحق، ويجرّه نحو الشرك؛ وما أكثر ما يرتقي المتصدي لشؤون الحكومة، فيحظى بلبِّ قرب الحق لما يحمله من دافع إلهي كداود وسليمان قدس سره بل وأفضل منها وأسمى منزلةً، كالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وخليفته بالحق علي بن أبي طالب عليه السلام وكالمهدي (أرواحنا لمقدمه الفداء) في عصر حكومته العالمية.

فميزان العرفان والحرمان إذن هو الدافع، وكلما كانت الدوافع أقرب إلى نور الفطرة، وأكثر تحرراً من الحجب حتى النورية منها كانت أكثر التصاقاً بمبدأ النور»[١].

البحث في جهاد النفس:

لقد آن الآوان للتعرف في هذه الحرب الضارية على أطراف الصراع ومن يقف خلفهم في إدارة المعركة حيث يوجد معسكران يقود العقل جنود الأول ويقود الجهل جنود الثاني ونحن مأمورون بالتعرّف على ذلك من مولانا الصادق (عليه السلام) حيث يقول: «اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا» قال سماعة: فقلت: جعلت فداك لا نعرف إلا ما عرّفتنا، فقال أبو عبد الله (عليه

---

(١) من رسالة للإمام قده بعنوان: الفطرة أول منازل التوحيد، إلى ابنه حجة الإسلام السيد أحمد الخميني رحمه الله ١٧ شوال ١٤٠٤ هـ.

السلام): «إن الله خلق العقل وهو أول خلق من الروحانيين عن يمين العرش من نوره فقال له: أدبر فأدبر ثم قال له: أقبل فأقبل فقال قال الله تعالى: خلقتك خلقاً عظيماً وكرّمتك على جميع خلقي، قال: ثم خلق الجهل من البحر الأجاج ظلمانياً، فقال له: أدبر فأدبر ثم قال له: أقبل فلم يقبل فقال له: استكبرت فلعنه»[١].

يقول (قدس سره): «فيعلم من هذا أن معرفة (القائدين) العقل والجعل وجنودهما مقدمة للهداية وهذه الهداية إما إلى كيفية استكمال النفوس وتنزيهها وتصفيتها وهي أيضاً مقدمة إليه أو هداية مطلقة أي هداية إلى معرفة الله وهي أسّ الأسس، ولذلك فهذه المعرفة هي نتيجة معرفة العقل والجهل وجنودهما لأنه ما لم تحصل المعرفة بمهلكات النفس ومنجياتها وطرق التخلي عنها والتحلي بها، فلن يحصل للنفس تصفية وتنزيه وتحلية وتكميل، وما لم يحصل للنفس صفاء باطني ولم تصل إلى الكمالات المتوسطة فلن تكون مورداً لتجلي الأسماء والصفات والمعرفة الحقيقية ولن تصل إلى كمال المعرفة، بل إن جميع الأعمال الصورية والأخلاق النفسية مقدمة للمعارف الإلهية وهي أيضاً مقدمة لحقيقة التوحيد والتفريد الذي هو الغاية القصوى للسير الإنساني ومنتهى السلوك العرفاني»[٢].

بهذا البيان النوراني كشف الإمام (قدس سره) عن ضرورة معرفة القيادة والجنود لكونها مقدمة لا يسوغ تفويتها وإلا لم نبلغ الهداية التي هي المرام، وأما جذب الجنود للنفس نبّه إليه قائلاً: »ولكل من المقامات والدرجات جنود رحمانية وعقلانية تجذب النفس نحو الملكوت الأعلى وتدعوها إلى السعادة، وجنود شيطانية وجهلانية تجذب النفس نحو الملكوت السفلي وتدعوها للشقاء»[٣].

ما هو جهاد النفس؟

في اللغة: الجهاد على وزن فعال مأخوذ من الجهد بالضم وهو المشقّة

---

(١) جنود العقل والجهل، ص٣١.
(٢) المقالة الخامسة من جنود العقل والجهل، ص٥٤.
(٣) الأربعون حديثاً، ص١٣.

البالغة، والجهد بالفتح الأرض الصلبة، وبالفتح والضم: الطاقة ومنه قوله تعالى: ﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾[(١)][(٢)]، والظاهر أن جميع هذه المعاني ترجع إلى أصل واحد وهو الشدة إما في ذات الشيء أو في التعامل معه ومعالجته، كما يظهر أنه موضوع في أصل اللغة لمطلق بذل الجهد بدنياً كان أو نفسياً أو عقلياً أو مالياً في مجال الخير أو في مجال الشر، فهو حقيقة لغوية في هذا المعنى العام الجامع وليس في خصوص بذل الجهد لمخالفة الهوى دون غيره.

وعند أهل المعرفة: عبارة عن تزكية النفس بترويضها على الطاعات ومخالفة نوازعها الشريرة وأهوائها.

وعن الإمام (قدس سره): «عبارة عن انتصار الإنسان على قواه الظاهرية وجعلها مؤتمرة بأمر الخالق، وتطهير المملكة من دنس وجود قوى الشيطان وجنود»[(٣)].

٣ - غاية جهاد النفس:

إن ما تقدم من التأكيد والتشديد على جهاد النفس يكشف أن هناك غاية متوقفة على ذلك ولا يمكن بلوغها دونه ألا وهي السعادة السرمدية يقول (قدس سره): »إن الإنسان إذا فكر لحظة واحدة، عرف أن الهدف من هذه النعم هو شيء آخر وإن الغاية من هذا الخلق أسمى وأعظم، وأن هذه الحياة الحيوانية ليست هي الغاية بحدّ ذاتها وأن على الإنسان العاقل أن يفكر بنفسه وأن يترحم على حاله ونفسه المسكينة ويخاطبها قائلاً: أيتها النفس الشقية التي قضيت سني عمرك الطويلة في الشهوات ولم يكن نصيبك سوى الحسرة والندامة ابحثي عن الرحمة واستحي من مالك الملوك وسيري قليلاً في طريق الهدف الأساسي المؤدي إلى حياة الخلد والسعادة السرمدية ولا تبيعي تلك السعادة بشهوات أيام قليلة فانية»[(٤)].

---

(١) سورة التوبة، الآية ٩٧

(٢) مقاييس اللغة، ج١، ص ٤٦٨ - ٤٨٧.

(٣) الأربعون حديثاً، ص٣٢.

(٤) م.ن. ص٣٣.

ويمكن أن نعود إلى تعبير آخر له (قدس سره) في رسم الغاية حيث يعتبرها التحرّر لكن على غير اصطلاح الساسة بل على معقد أهل القلوب وبذلك يوصي ابنه قائلاً: «تحرّر من حبّ النفس والعجب فهما إرث الشيطان، فبالعجب وحب النفس تمرّد على أمر الله بالخضوع لولي الله وصفيّه جلّ وعلا، واعلم أن جميع ما يحل ببني آدم من مصائب ناشئ من هذا الإرث الشيطاني فهو أصل الفتنة وربما تشير الآية الكريمة ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾(١) في بعض مراحلها إلى الجهاد الأكبر.

وقتال أساس الفتنة وهو الشيطان وجنوده، ولهؤلاء فروع وجذور في أعماق قلوب بني الإنسان كافة، وعلى كل إنسان أن يجاهد ﴿حتى لا تكون فتنة﴾ داخل نفسه وخارجها، فإذا حقّق هذا الجهاد النصر، صلحت الأمور كافة وصلح الجميع»(٢).

عقبات على طريق المعرفة:

أشار الإمام الخميني قدس سره إلى الكثير من العقبات التي تحول بين الإنسان المؤمن والسلوك إلى الله تعالى، وسنشير إلى أهم هذه العقبات التي نبهنا منها لعلّنا نستفيد من ذلك في تخلية الطريق من عقبات قد تسير بنا إلى غير الوجهة والهدف الأساسي الذي نرمي إليه.

أ) حب الأنا:

الأنا هي النفس، والمقصود من حب النفس ليس حب الخير لها وبغض الشر، بل المقصود أن تصبح هذه الأنا كعبة الإنسان وتكون محور حركته دون رضا الله وطاعته، وهي من أخطر العقبات بل هي أكبر الموانع من الوصول لمعرفة الله سبحانه وتعالى وكم حذر منها علماء الأخلاق، وكم نبه إمامنا الخميني قدس سره تلامذته وأحبته إليها. ومن وصاياه في التحذير من الأنا:

«هنالك أمر مهم بالنسبة لنا نحن المتخلفين عن قافلة الأبرار، وأرى أنه قد يكون ذا أثرٍ في بناء النفس لمن كان بصدد ذلك. فعلينا أن ندرك أن منشأ ارتياحنا للمدح والثناء، واستيائنا من الانتقاد ونشر الشائعات، إنّما هو حب

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٣.

(٢) محضر الحق، ص ٨٥.

النفس الذي يُعدُّ من أخطر الأشراك التي ينصبها إبليس اللعين.

نحن نرغب في أن يكون الآخرون مادحين لنا، حتى وإن أظهروا أن لنا أفعالاً صالحة وحسنات وهمية تفوق بمئات المرات حقيقة ما نحن عليه، كما إنّنا نرغب في أن تكون أبواب الانتقاد - وإن كان حقاً - موصدة دوننا، أو أن يتحول الانتقاد إلى مديح وثناء!

ونحن لا يزعجنا الحديث عن معايبنا لأنه ليس حقاً، كما لا يسرنا المديح والثناء لأنه حق، بل لأن هذا العيب هو «عيبي أنا» وهذا المدح هو «مدح لي أنا»؛ وهو أمر سائد في أوساطنا هنا وهناك وفي كلِّ مكان. وإذا أردت أن تتحقق من صحة هذا الأمر، فتأمّل بما يصيبك من الانزعاج إذا انبرى المداحون لمدح أحد الأشخاص على فعل قام به، وكنت قد قمت بذات الفعل، ستنزعج حتى إذا كان ما قام به أفضل مما قمت به أنت، وخصوصاً إذا كان ذلك الشخص من أقرانك وزملائك، وأوضح من هذا المثال: عندما ترى أن عيوب شخص صارت مدائح؛ ففي تلك الحال، تيقّن أن للشيطان وللنفس - التي هي أسوأ من الشيطان - يداً في الأمر»[1].

ب) الغفلة عن الله تعالى:

يحذرنا الإمام الخميني قدس سره من الوصول إلى مرحلة نسيان الله تعالى، وعدم الإلتفات إليه بحيث يخرج من حساباتنا، واعتبر هذا الأمر في غاية الخطورة، لأن الإنسان في هذه الحالة يصبح مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[2]، وقوله عز وجل: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[3]. يقول قدس سره:

«إن نسيان الله موجب لنسيان النفس، سواء أكان النسيان بمعنى عدم التذكر، أو بمعنى الترك. وفي كلا المعنيين إنذار مروّع.

إن ما يلازم نسيان الله تعالى هو نسيان الإنسان نفسه؛ أو قل إن الله تعالى

---

(١) من رسالة للإمام قده بعنوان: الفطرة أول منازل التوحيد، إلى ابنه حجة الإسلام السيد أحمد الخميني رحمه الله ١٧ شوال ١٤٠٤ هـ.

(٢) المجادلة: ١٩. (٣) الحشر: ١٩.

يجرّه إلى نسيان نفسه، وهو أمر يصدق على جميع المراحل السابقة. فمن ينسَ الله وحضوره جلّ وعلا في مرحلة العمل يُبتلَ هو نفسه بنسيان نفسه، أو أنّه يُجرُّ إلى ذلك؛ ينسى عبوديته فيُجرّ من مقام العبودية نحو النسيان.

فمن لا يعرف ما هو، ومن هو، وما هي وظيفته، وما هي العاقبة التي تنتظره، فإن الشيطان حالٌّ فيه، وجالس بدلاً من نفسه، والشيطان عامل على العصيان والطغيان. وإذا لم يثب ذلك الإنسان إلى رشده، ويرجع إلى ذكر الله، وغادر هذا العالم وهو على هذه الحال من الطغيان والعصيان، فقد يأتي في ذلك العالم على شكل شيطان مطرود من قِبَل الله تعالى.

أما إذا كان النسيان بمعناه الآخر (أي: الترك)، فإن الأمر سيكون أشدّ إيلاماً، لأنه إذا ترك طاعة الله، وترك الله، فإن ذلك يستوجب أن يتركه الله ويكِله إلى نفسه، ويقطع عنه عناياته. ولاشك أن الأمر سينتهي به إلى الخذلان في الدنيا والآخرة. لذا نرى كثرة ما ورد من تأكيد الدعاء بعدم الإيكال للنفس في الأدعية المأثورة عن المعصومين لأنهم عليهم السلام يدركون نتائج هذه المصيبة، في حين أننا غافلون عنها»[١].

ج) حب الدنيا:

وأما حب الدنيا فإنه من أشد الأخطار على علاقة الإنسان بربه، وهذا ما حذرنا منه الإمام قدس سره حيث يقول:

«لا تسعَ للحصول على الدنيا أبداً حتى الحلال منها - فإن حبَّ الدنيا - حتى حلالها رأس جميع الخطايا، وهي حجاب سميك يضطر الإنسان إلى الحرام منها.

فأنت شاب تستطيع - بما حباك الله به من القوة - منع أول قدم تزلّ نحو الانحراف، فتمنع بذلك من التحاقها بخطىً أخرى، فلكل قدم قدمٌ أخرى تتلوها، وكل ذنب - مهما صَغُر - يجرُّ المرء نحو ذنوبٍ أكبر، حتى تستحيل الذنوب الكبيرة في نظره لمماً يُستهان بها، بل قد يبلغ الأمر بالبعض أن يفتخروا بارتكاب بعض الكبائر! لا بل قد يصل الوضع لدى البعض الآخر حدّاً

---

(١) من رسالة للإمام قده بعنوان: الفطرة أول منازل التوحيد، إلى ابنه حجة الإسلام السيد أحمد الخميني رحمه الله ١٧ شوال ١٤٠٤ هـ.

- أحياناً - يجعلهم يرون المنكر معروفاً والمعروف منكراً! نتيجة شدة وكثافة الظلمات والحجب الدنيوية»[١].

أهمية جهاد النفس:

يقول الإمام (قدس سره): »إن العلم وتهذيب النفس هما اللذان يوصلان الإنسان إلى مرتبة الإنسانية.. عليكم أن تصلحوا أنفسكم لتتمكنوا من القيام ولا يكون الإصلاح إلا بأتباع أحكام الله»[٢].

هنا يتضح جانبان:

الأول: أن الوصول إلى الهدف المقدس والمقصود الإلهي الذي يتمثّل بالعبودية الحقّة لا يمكن دون عملية المجاهدة، شرط أن تكون مقرونة بالعلم حيث إن كلاً منهما ضرورة للآخر، والعلم أصل كل خير[٣]، ولا ينال ما عند الله إلا بالعمل[٤].

والثاني: إن من أعظم معوّقات عملية الإصلاح الكبرى في المجتمع، عدم تهذيب النفوس، بل لا يمكن البدء إلا من عندها قبل الانتقال إلى الميادين العامة والانطلاق من خلالها كما عبّر نفسه (قدس سره) في أكثر من خطاب قائلاً: «إن ما هو ضروري بالنسبة إلينا جميعاً هو أن نبدأ بإصلاح أنفسنا وعدم الاقتناع بإصلاح الظاهر وحده، بل السعي للبدء بإصلاح قلوبنا وعقولنا والإصرار على أن يكون غدنا خيراً من يومنا، على المرء أن يبدأ بإصلاح نفسه والسعي لجعل عقائده وأخلاقه وأعماله مطابقة للإسلام[٥] لذلك من الطبيعي جداً أن نشاهد ما نشاهده من المفاسد العامة وبصمات الفشل والخسران طالماً أن الإنسان قد خسر في معركة الذات وصراعها مع العدو الذي بين جنبيه». لذلك حظيت مسألة جهاد النفس بأهمية بالغة في الكتاب الكريم والسنّة الشريفة.

---

(١) من رسالة للإمام قده بعنوان: الفطرة أول منازل التوحيد، إلى ابنه حجة الإسلام السيد أحمد الخميني رحمه الله ١٧ شوال ١٤٠٤ هـ.
(٢) الكلمات القصار ص ٨٢.
(٣) كما عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في غرر الحكم، ص ٢٠.
(٤) كما عن الباقر (عليه السلام) في الوسائل، ج١، ص ٩٦.
(٥) الكلمات القصار، ص ٨١.

أ- فأما الكتاب الكريم:

مما نزل في ذلك حاكياً عن جزاء التزكية والمجاهدة قوله تعالى: ﴿ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكّى﴾(١).

وبعد أحد عشر قسماً قوله عزّ من قائل: ﴿... ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾(٢).

وما كان ذلك ليتم لولا فضل الله سبحانه: ﴿ولو لا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحدٍ أبداً ولكن الله يزكّي من يشاء والله سميع عليم﴾(٣)..

ويذكّرنا الإمام (قدس سره) بهذا الفضل الإلهي وهو يوصي ولده ويوصينا كذلك: «إعلم أنه ليس لأي موجود من الموجودات بدءً من غيب عوالم الجبروت وإلى ما فوقها أو تحتها شيء من القدرة أو العلم أو الفضيلة وكل ما فيها من ذلك إنما هو منه جلّ وعلا»(٤).

ب - وأما السنّة الشريفة:

فقد جاء عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه رآى بعض أصحابه منصرفاً من بعث بعثه وقد انصرف بشعثه وغبار سفره وسلاحه عليه يريد منزله فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «انصرفت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، فقال له: أو جهاد فوق الجهاد بالسيف؟! قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «نعم جهاد المرء نفسه»(٥).

وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم): «أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه»(٦). وهو سبب السعادة كما عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «اعلموا أن الجهاد الأكبر جهاد النفس فاشتغلوا بجهاد أنفسكم تسعدوا»(٧) ومثلها العديد من الأحاديث الموجودة بهذا الصدد.

---

(١) سورة طه، الآيتين ٧٥- ٧٦ .
(٢) سورة الشمس، الآيات ١ - ١٠.
(٣) سورة النور، الآية ٢١.
(٤) وصايا عرفانية، ص ٤٩.
(٥) ميزان الحكمة، حديث ٢٧٤٣.
(٦) م. ن. حديث ٢٧٤٥ .
(٧) م. ن. حديث ٢٧٤٧.

جهاد النفس:

إن ساحة الجهاد الأصغر محدودة في بقعة الحرب وخاضعة لموازين مكانية وزمانية وشرائط خاصة وهي ليست دائمية على الإطلاق، أما ساحة الجهاد الأكبر إضافة إلى شمولها لما تقدم هي أوسع وأصعب وأهم كيف لا؟! وهي الإنسان الذي قيل فيه:

أتحسب أنك جرم صغير وفيك أنطوى العالم الأكبر.

بكل ما يحمل من أبعاد في مملكة الباطل ومملكة الظاهر اللتين سيأتي الحديث عنهما في فصل مستقل يقول (قدس سره): »هناك دائماً جدال ونزاع بين هذين المعسكرين (معسكر العقل ومعسكر الجهل) والإنسان هو ساحة حربهما، فإذا تغلبت جنود الرحمن كان من أهل السعادة والرحمة وانخرط في سلك الملائكة وحشر في أسرة الأنبياء والأولياء والصالحين وأما إذا تغلب جنود الشياطين ومعسكر الجهل كان الإنسان من أهل الشقاء والغضب (مغضوب لله سبحانه) وحشر في زمرة الشياطين والكفار والمحرومين»[1] ولا يتوهم أن هذا الصراع حينما يشبّ في جانب يخلو منه آخر وإنما قد يكون وهو كذلك في غالب الأحيان. وفي جوانب عديدة في آن واحد حيث يجري في التعامل مع الذات والناس والخالق تعالى كما أنه ينبسط في سائر تقلبات العيش من الصناعات والتجارات والاجتماعيات وما شابهها.

ومن وضوح اتساع ميدان المجاهد إلى هذا الحد الكبير يتضح أنه لا مبرر لما التزم به بعض أهل الرياضات الروحية من الانعزال والهجران وهم مطالبون كغيرهم بعمران الأرض وممارسة الحياة على أساس التفاعل والتعارف كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾[2]..

والقيام بسائر الوظائف الشرعية العامة التي تفوق بالأهمية والأولوية وظائفهم الخاصة.

ويعبّر الإمام (قدس سره) عن انزعاجه من تلك الفئة قائلاً: »لقد عانى

---

(١) الأربعون حديثاً، ص ٣١. (٢) سورة الحجرات، الآية ١٢ .

قلب أبيكم الشيخ بسبب هذه المجموعة المتحجرة ما لم يعانه أبداً من ضغوط ومتاعب الآخرين.

لقد وجهت للإسلام ضربة من قبل المتدينيين القشريين لم توجّه مثلها من قبل أيّة طبقة أخرى والمثال الواضح على ذلك مظلومية وغربة أمير المؤمنين (عليه السلام) الواضحة في التاريخ[١]..

ضرورة الجهادين (الأكبر والأصغر معاً):

ما من أحد يقرأ في فقه الإمام (قدس سره) أو أخلاقه أو سياسته أو سيرة حياته إلا وتسطع أمام عينيه تلك الشمس المشرقة التي ينعم الأبرار بدفئها ويهتدون إلى سبيل الحق بنورها داعية إلى الحضور في ساحة الجهادين الأكبر والأصغر معاً وما ذلك إلا لأجل ما عرّفنا أئمتنا (عليهم السلام) من أن التخلي أو الزهد بأحدهما لا يبقى وجوداً للآخر، فمن يجبن عن خوض معارك الإسلام ضدّ الباطل وهو غير مستعد للنزول إلى الميدان في صراع العد والظاهر هو مطرود ومحروم من ساحة الجهاد الأكبر وعاجز عن مناهضة العدو الباطن لأن من يعجز عن حرب العدو الأصغر هو عاجز لا محالة عن حرب العدو الأكبر، وهؤلاء أئمتنا (عليهم السلام) بدءً من جدهم النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) مع ما هم عليه من المقام الذي لا يبلغه أحد غيرهم، لم يزهدوا في النزول إلى ميدان القتال بل حذّروا من تركه كما جاء عنه (صلى الله عليه وآله وسلم): «فمن ترك الجهاد ألبسه الله ذلاً في نفسه وفقراً في معيشته ومحقاً في دينه، إن الله تبارك وتعالى أعزّ أمتي بسنابك خيلها ومراكز رماحها»[٢]. وعن أمير المؤمن (عليه السلام): «فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء وديّث بالصّغار والقماءة وضرب على قلبه بالإسهاب وأديل الحق منه بتضييع الجهاد»[٣].

فالراغب عن الجهاد الأصغر لابس لثواب الذل وما حق لدينه فكيف يعدّ من أهل المجاهدة والتزكية؟!.

يقول الإمام (قدس سره) في مقام حديثه عن المجاهدين في جبهات

---

(١) الكلمات القصار، ص ٢٦٦.
(٢) مميزان الحكمة، الحديث ٢٧٠٩.
(٣) م.ن، الحديث ٢٧١٠.

الدفاع: «لقد طوى هؤلاء في ليلة واحدة طريق مئة سنة وقد وصلت أيديهم بشكل مباغت إلى كل ما يتمناه العرفاء والشعراء من العرفاء في سنوات متمادية نقلوا العشق للقاء الله من الشعار إلى العمل وثبتوا آمال الشهادة من خلال أعمالهم في جبهات الدفاع عن الإسلام العزيز»[١].

مقامات النفس:

إن النفس الإنسانية درجات ومقامات مختلفة بحسب الاعتبار الذي يعود إليه كل تقسيم ذكرها الإمام (قدس سره) غير أنه اعتمد في بيانه النوراني على التقسيم إلى مملكة الظاهر ومملكة الباطن.

يقول (قدس سره): «إن لنفس الإنسان التي هي من عالم الغيب والملكوت مقامات ودرجات قسموها بصورة عامة إلى سبعة أقسام حيناً وإلى أربعة أقسام حيناً ثانياً، وإلى ثلاثة أقسام حيناً ثالثاً، وإلى قسمين حيناً رابعاً ولكل من المقامات والدرجات جنود رحمانية وعقلانية.. وجنود شيطانية وجهلانية»[٢].

وفي موضع آخر من كلامه (قدس سره) يذكر ما عدّه أهل المعرفة منها بشيء من التفصيل موضحاً:

التقسيم الأول:

«إن للإنسان مقامين: الأول: مقام الدنيا والشهادة والثاني: مقام الآخرة والغيب، فأحدهما ظلّ الرحمن والآخر ظلّ الرحيم.

التقسيم الثاني:

إن له ثلاثة مقامات: الأول: مقام الملك والدنيا، والثاني: مقام البرزخ، والثالث: مقام العقل والآخرة.

التقسيم الثالث:

إن له أربعة مقامات: الملك، والملكوت، والجبروت، واللاهوت. وهناك تقسيمات أخرى صعبة المنال في هذا المقال»[٣].

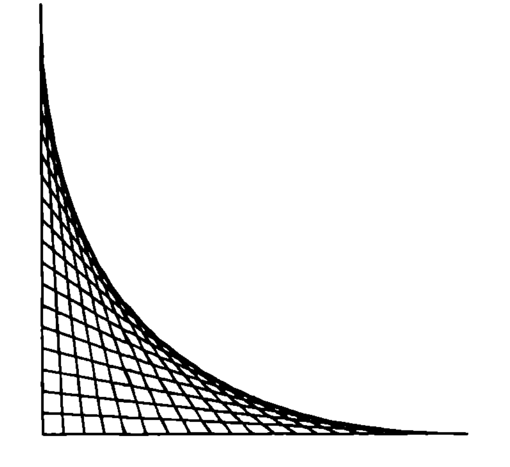
---

(١) بقية الله، العدد ١٢٧، ص٢٣. (٢) الأربعون حديثاً، ص ٣١.
(٣) راجع سر الصلاة، ص ٥١- ٥٣.

المبحث الثالث:

جهاد النفس في فكر الإمام الخميني (قدس سره)

معرفة النفس ووسائل وأركان جهاد النفس
ونماذج من سلوك الإمام الخميني (قدس سره)



جهاد النفس في فكر الإمام الخميني (قدس سره)

تحدّث المقال عن نظرة الإمام حول حقيقة النفس وأهمية جهادها والغاية من ذلك، وكذلك حدد أطراف الصراع وضرورة الجهادين الأكبر والأصغر.

كما تحدّث عن معرفة النفس ومقاماتها وأركان جهادها والوسائل الذي يتبعها المجاهد، وختم البحث حول نماذج من سلوك الإمام قدس سره لاستخلاص العبر من ذلك.

الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): «مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر».

فقيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟.

قال: جهاد النفس[1]..

في وصية أمير المؤمنين ومولى الموحدين (عليه السلام) لولده وشيعته..

والله الله في الجهاد للأنفس، فهي أعدى العدو لكم إنه تبارك وتعالى يقول: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾[2][3]..

الإمام الخميني (قدس سره): «هدف الإسلام هو تربيتنا، وإذا لم نتبعه بكافة أبعاده، فلن نتربى ولا ينبغي لكم أيها الشبان الأعزاء الغفلة عن الجوانب

---

(١) فروع الكافي. كتاب الجهاد. باب وجوب الجهاد حديث ٣.
(٢) سورة يوسف، الآية ٥٣.
(٣) ينابيع الحكمة ج١، ص ٤٤٣.

المعنوية، وهي من الجهاد الأكبر بسبب انشغالكم الآن بالعلوم الطبيعية أو أشكال النشاطات الجهادية الواجبة حالياً وهذا الأمر يصدق علينا جميعاً[1] إن من أسمى وأرفع العلوم التي ينبغي أن تكون ذات صبغة عامة هي العلوم المعنوية الإسلامية كعلم الأخلاق وعلم تهذيب النفس والسير والسلوك إلى الله، فإنها تمثّل الجهاد الأكبر »رزقنا الله ذلك وإياكم«[2]..

وسائل جهاد النفس:

١ - الوسيلة الأولى: التفكر.

٢ - الوسيلة الثانية: العزم.

٣ - الوسيلة الثالثة: المشارطة.

٤ - الوسيلة الرابعة: المراقبة.

٥ - الوسيلة الخامسة: المحاسبة.

٦ - الوسيلة السادسة: التذكر.

٧ - الوسيلة السابعة: السيطرة على الخيال.

٨ -الوسيلة الثامنة: المقارنة.

٩ - الوسيلة التاسعة: المخالفة.

إن في كل عملية جهادية مجموعة من الوسائل يعتمد عليها في تحقيق الأهداف التي من أجلها كان القتال وهكذا في ميدان النفس، فما هي تلك الوسائل التي يراها الإمام (قدس سره) لازمة في الجهاد الأكبر في عالميه الظاهري والباطني؟ أما في مقام الظاهر فهي:

الوسيلة الأولى: التفكير.

أ - معناه: يقول (قدس سره): «التفكّر إعمال الفكر، وهو ترتيب الأمور المعلومة للوصول إلى النتائج المجهولة.. ومعلوم أن مطلوبات القلب هي المعارف، ولهذا فإن المراد بالتفكّر.. وهو المعنى الخاص الذي يعود إلى القلوب وحياتها»[3].

---

(١) الكوثر، ج٢، ص ٢٥٧، خطاب رقم ٤٨ .

(٢) الكلمات القصار، ص ٨١.

(٣) الأربعون حديثاً، ص ٢٣٣ .

ب - أهميته: إن أول شرط مجاهدة النفس والسير باتجاه الحق تعالى هو التفكّر[١].. وهو مفتاح أبواب المعارف وخزائن الكمالات والعلوم وهو مقدمة لازمة وحتمية للسلوك الإنساني وله في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة تعظيم بليغ وتمجيد كامل. . عن الإمام الصادق (عليه السلام): «أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وقدرته»[٢].. وفي حديث غيره: «إن تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة»[٣]..

ج - درجاته: إن للتفكر درجات ومراتب ولكل مرتبة نتيجة أو نتائج وسوف نتناول بعضها:

الأول: هو التفكر في الحق تعالى، وأسمائه وصفاته وكمالاته ونتيجة ذلك هو العلم بوجوده وبأنواع تجلياته التي منها الأعيان الواقعية والمظاهر الخارجية وهذا أفضل مراتب التفكر[٤].

الثاني: التفكر في روائع الصنع وإتقانه ودقائق الخلق[٥] ونتيجة هذا التفكر هي معرفة المبدأ الكامل والصانع الحكيم.

والثالث: التفكر في أحوال النفس الذي يؤدي إلى نتائج كثيرة ومعارف عديدة[٦].

د - كيفيته: أن يفكر الإنسان بعض الوقت في أن مولاه الذي خلقه في هذه الدنيا، ووفرّ له كل أسباب الدعة والراحة، ووهبه جسماً سليماً وقوى ذات منافع تحيّر ألباب الجميع، والذي رعاه وهيأ له كل هذه السعة.. وأرسل جميع هؤلاء الأنبياء.. وهذا المولى ماذا يستحق منا؟ وما هو واجبنا تجاه مالك الملوك هذا؟ أهل إن وجود جميع هذه النعم هو فقط لأجل هذه الحياة الحيوانية.. أو أن هناك هدفاً وغاية أخرى[٧]؟

---

(١) م. ن، ص ٣٢.
(٢) أصول الكافي ج٢، كتاب الإيمان والكفر باب التفكر، ح٣.
(٣) الأربعون حديثاً، ص ٢٣٥.
(٤) الأربعون حديثاً، ص ٢٣٥.
(٥) م. ن، ص ٢٤١.
(٦) م. ن، ص ٢٤٤.
(٧) م. ن، ص٣٣.

الوسيلة الثانية: العزم.

أ - معناه: يقول (قدس سره): «يقول أحد مشايخنا أطال الله عمره: إن العزم هو جوهر الإنسانية، ومعيار ميزة الإنسان، وإن اختلاف درجات الإنسان باختلاف درجات عزمه..، وهو توطين النفس على ترك المعاصي وأداء الواجبات[١].

ب - أهميته: هو أفضل الزاد كما عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «وإن أفضل زاد الراحل إليك عزم إرادة يختارك بها»[٢]..

ج - كيفيته: أن يتخذ قراراً بذلك ويتدارك ما فاته في أيام حياته، وبالتالي يسعى على أن يجعل من ظاهره إنساناً عاقلاً وشرعياً بحيث يحكم العقل والشرع حسب الظاهر بأن هذا إنسان[٣].

د - عاقبة تركه: هي فقدان الهيئة الإنسانية من خلال التجرؤ على المعاصي الذي أدّى إلى فقده يقول (قدس سره): «إذا رحلت من هذه الدنيا دون أن يتحقق فيك العزم على ترك المحرمات، فأنت إنسان صوري، بلا لب ولن تحشر في ذلك العالم عالم الآخرة على هيئة إنسان، لأن ذلك العالم هو محل كشف الباطن وظهور السريرة، وأن التجرؤ على المعاصي يفقد الإنسان تدريجياً العزم ويختطف منه هذا الجوهر الشريف»[٤]..

الوسيلة الثالثة: المشارطة.

وهي أن يشارط الإنسان نفسه على ما تفعله وما تتركه يقول (قدس سره): «فالمشارط هو الذي يشارط نفسه في أول يومه على أن لا يرتكب اليوم أي عمل يخالف أوامر الله ويتخذ قراراً بذلك ويعزم عليه»[٥] ويشجّع (قدس سره) على هذا الأمر العلمي من خلال بيان سهولته قائلاً: «وواضح أن ترك ما يخالف أوامر الله، ليوم واحد، أمر يسير للغاية ويمكن للإنسان بكل سهولة أن

---

(١) م.ن، ص ٣٤ .
(٢) مفاتيح الجنان - أعمال اليوم السابع والعشرين من شهر رجب .
(٣) الأربعون حديثاً، ص ٣٤ .
(٤) م. ن، ص ٣٥.
(٥) م. ن، ص ٣٦ .

يلتزم به، فاعزم وشارط وجرّب وانظر كيف أن الأمر سهل يسير»[١].

ويحذّر (قدس سره) من تدخل الشيطان لأجل منعنا من هذه الوسيلة الجهادية (المشارطة) حيث يقول: «ومن الممكن أن يصور لك إبليس اللعين وجنده أن الأمر صعب وعسير.. فالعنه قلباً وواقعاً، وأخرج الأوهام من قلبك»[٢].

الوسيلة الرابع: المراقبة.

وهي أن يراقب الإنسان نفسه عند الخوض في الأعمال وسائر شؤونه طوال مدة المشارطة يومية كانت أو شهرية حتى لا يقع في نقض ما عاهد ومخالفة ما شارط، جاء في الحديث: «إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني»[٣]..

وهنا كذلك يحاول اللعين منعنا عن الوفاء بالشرط، فالواجب ردّه بالقول: إني اشترطت على نفسي أن لا أقوم في هذا اليوم وهو يوم واحد بأي عمل يخالف أمر الله تعالى وهي ولي نعمتي طول عمري.. وعليه فليس من اللائق أن لا أفي بشرط بسيط كهذا[٤].

الوسيلة الخامسة: المحاسبة.

وهي: أن تحاسب نفسك لترى هل أدّيت ما اشترطت على نفسك مع الله، ولم تخن وليّ نعمتك في هذه المعاملة الجزئية؟ إذا كنت قد وفيت حقاً، فاشكر الله على هذا التوفيق... وإذا حدث لا سمح الله في أثناء المحاسبة تهاون وفتور تجاه ما اشترطت على نفسك، فاستغفر الله وأطلب العفو منه وأعزم على الوفاء بكل شجاعة بالمشارطة غداً[٥]. ومما تقدم يتضح الربط بين المشارطة والمراقبة والمحاسبة وهناك المعاتبة والمعاقبة في حال عدم الوفاء لم يتعرض إليهما الإمام (قدس سره) في بحثه الشريف غير أن جملة من العلماء وتعرّضوا لهما كالفيض الكاشاني وغيره.

---

(١) م. ن، ص ٣٦. (٢) م. ن.

(٣) جامع السعادات، ج٣، ص ٩٦.

(٤) الأربعون حديثاً، ص ٣٦.

(٥) م. ن، ص ٧٣.

الوسيلة السادسة: التذكر.

يقول (قدس سره): «ومن الأمور التي تعين الإنسان وبصورة كاملة في مجاهدته.. التذكر، وبذكره نختم الحديث عن هذا المقام»[١].. أي المقام الذي اختص بالقوى الظاهرية السبعة (الأذن والعين والسلطان والبطن والفرج واليد والرجل) لذلك يكون ما ذكره (قدس سره) فيما بعد من وسائل الباطن.

والذكرى هي عبارة عن ذكر الله تعالى ونعمائه التي تلطف بها على الإنسان[٢].

هنا ينبغي الإشارة إلى أمور:

أ - الأول: فضل الذكر.

عن الباقر (عليه السلام): «مكتوب في التوراة التي لم تغير أن موسى (عليه السلام) سأل ربه فقال: يا رب أقريب أنت مني فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ فأوحى الله عز وجل إليه: يا موسى أنا جليس من ذكرني، فقال موسى (عليه السلام): فمن في سترك يوم لا ستر إلا سترك فقال: الذين يذكرونني فأذكرهم ويتحابون فيَّ فأحبهم»[٣].

يقول (قدس سره): «وقليلاً ما تجد موضوعاً يشتمل على أحاديث كثيرة مثل موضوع الذكر»[٤].

ب - الثاني: أن الذكر على قسمين: لساني وقلبي.

وباعتبار آخر ثلاثة أقسام: تذكر الآيات الإلهية، وتذكر الأسماء والصفات وتذكر الذات عن اسمه[٥].

ج - الثالث: إن أفضل وأكمل مراتب الذكر كافة هو الذكر الساري في نشآت مراتب الإنسانية والجاري على ظاهر الإنسان وباطنه، سرّه وعلنه[٦].

---

(١) م. ن. (٢) م. ن.

(٣) أصول الكافي ج٢، كتاب الدعاء باب ما يجب من ذكر الله في كل مجلس حديث ٤.

(٤) الأربعون حديثاً، ص ٣٤٢.

(٥) م. ن، ص ٣٣٨.

(٦) م. ن، ص ٣٤١.

د - الرابع: أن التذكر من نتائج التفكر ولهذا يعتبرون مقام التفكر مقدماً على مقام التذكر.. إذ أن التفكر طلب للمحبوب والتذكر حصول للمطلوب[١] وأما وسائل الجهاد في مقام الباطن فتبدأ من الآتي..

الوسيلة السابعة: السيطرة على الخيال.

وتعتبر الشرط الأول في مقام الباطن والمقامات الأخرى عند الإمام (قدس سره) كما اعتبر التفكر الشرط الأول في مقام الظاهر.

يقول (قدس سره): «إن الشرط الأول في هذا المقام والمقامات الأخرى.. هو إمساك طائر الخيال لأن هذا الخيال طائر محلّق يستقر في كل آن على غصن ويجلب الكثير من الشقاء وإنه من إحدى وسائل الشيطان[٢].. على الإنسان المجاهد الذي نهض لإصلاح نفسه.. أن يمنع من التحليق في الخيالات الفاسدة والباطلة، والمعاصي والشيطنة وأن يوجه خياله دائماً نحو الأمور الشريفة»[٣]، ثمّ يشير (قدس سره) إلى الطريقة الناجحة التي يمكن من خلالها معالجة هذه المشكلة مستنكراً على الذين ادعوا استحالة هذا الأمر، ومبّنياً أن ذلك ممكن لكن لا بدفعة واحدة وإنما بشكل تدريجي خصوصاً في الصلاة التي هي عمود الدين فيقول (قدس سره): «هذا الأمر لا بد أن يكون بكمال التدريج والتأني والصبر والتأمل، فيمكن أن يحبس الخيال في أول الأمر في عشر من الصلاة ويحصل حضور القلب في عشر منها.. وشيئاً فشيئاً يتغلب على شيطان الوهم والخيال بحيث يكون في أكثر حال الصلاة زمام الاختيار بيده»[٤].

الوسيلة الثامنة: المقارنة.

وهي أن يقارن الإنسان العاقل بين منافع ومضارّ كل واحدة من الأخلاق الفاسدة والملكات الرذيلة.. وبين منافع ومضار كل واحدة من الأخلاق الحسنة والفضائل والملكات الفاضلة.. ليرى على أي واحدة منها يصح الإقدام ويحسن العمل[٥]؟! ثمّ يرشد (قدس سره) إلى الدواء النافع لمعالجة

---

(١) م. ن، ص ٣٣٩.
(٢) م. ن، ص ٤٥.
(٣) م. ن.
(٤) الآداب المعنوية للصلاة ص ٩٦.
(٥) الأربعون حديثاً، ص ٤٦.

المفاسد الأخلاقية من خلال الوسيلة الآتية.

الوسيلة التاسعة: المخالفة.

يقول (قدس سره): «وأفضل علاج لدفع هذه المفاسد الأخلاقية هو ما ذكره علماء الأخلاق وأهل السلوك، وهو أن تأخذ كل واحدة من الملكات القبيحة التي تراها في نفسك وتنهض بعزم على مخالفة النفس إلى أمد، وتعمل عكس ما ترجوه وتطلبه منك تلك الملكة الرذيلة..

فمثلاً من الأخلاق الذميمة التي تسبّب هلاك الإنسان، وتوجب ضغطة القبر، وتعذب الإنسان في كلا الدارين سوء الخلق مع أهل الدار والجيران أو الزملاء في العمل أو أهل السوق والمحلة، فإذا كان الإنسان المجاهد يفكر في السمو والترفع، عليه عندما يعترضه أمر غير مرغوب فيه حيث تتوهج فيه نار الغضب لتحرق الباطن، وتدعوه إلى الفحش والسيء من القول، عليه أن يعمل بخلاف النفس، وأن يتذكر سوء عاقبة هذا الخلق ونتيجته القبيحة، ويبدي بالمقابل مرونة، ويلعن الشيطان في الباطن ويستعيذ بالله منه»[١].

(١) م.ن، ص ٥٣.

أركان جهاد النفس

١ - الركن الأول: القران الكريم.
٢ - الركن الثاني: المعصومون (عليهم السلام)
٣ - الركن الثالث: العلم.
٤ - الركن الرابع: التمسك بظاهر الشريعة.

يعتبر الإمام الخميني (قدس سره) أن هناك أصولاً في عملية الجهاد الأكبر يجب بناؤه عيها وهي بمثابة الأركان للصلاة ومسلّمات العقيدة وضروراتها للشريعة وفي حال فقد واحد منها كان السير في الاتجاه المعاكس وعلى غير طريق الهداية على غرار كم من رجل يسير إلى حتفه بقدميه، أو كما نزل من الذكر الحكيم: ﴿الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾[1].

الركن الأول: القرآن الكريم.

حيث لا يمكن بحال من الأحوال بلوغ مقام من المقامات مع هجران الكتاب الكريم أو مخالفة أوامره ونواهيه فلو لم يكن العمل في عملية تهذيب النفس ينهل من المعين القرآني العذب لا يمكن أن تقوم لجهاد النفس قائمة أو يؤمل الخير في الطريق.

يقول (قدس سره): «فوظيفة السالك إلى الله أن يعرض نفسه على القرآن الشريف فكما أن الميزان في صحة الحديث أو عدم صحته واعتباره أو عدم

(١) سورة الكهف، آية ١٠٣.

اعتباره يكون بعد عرضه على كتاب الله فما خالف كتاب الله فهو باطل وزخرف، كذلك الميزان في الاستقامة والاعوجاج والشقاء والسعادة هو أن يكون مستقيماً وصحيحاً في كتاب الله... كذلك جميع معارفه وأحوال قلبه وأعمال الباطن والظاهر لابد أن يطبقها على كتاب الله[١].. فالقرآن الكريم كتاب معرفة الله وطريق السلوك إليه تعالى.. وإن من أعظم وأسمى معاجزه هي هذه المسائل العرفانية العظيمة التي لم تكن معروفة لدى فلاسفة اليونان[٢].. إننا لو أنفقنا أعمارنا بتمامها في سجدة شكر واحدة على أن القرآن كتابنا لما وفينا هذه النعمة حقها من الشكر»[٣].

إيقاظ:

لابد من الإلتفات إلى أن العرض على القرآن الكريم لا يتسنى لكل أحد فلا يصح لنا أن نستقل بما تفهمه عقولنا القاصرة من القرآن لنثبت صحة أعمالنا بل لابد من الرجوع من صحة ذلك إلى أهل العلم والمعرفة بمضامين الكتاب والأحكام الشرعية.

الركن الثاني: المعصومون (عليهم السلام)

فإن من تمسك بغيرهم ضلّ عن سواء السبيل وليس الواجب هنا خصوص الانتساب إليهم بالموالاة بل معرفتهم ومودتهم ومراعاة رضاهم وسخطهم وبذل قصارى الجهود في خدمتهم وعدم مخالفة سنتهم القولية والفعلية، والاعتماد على مناجاتهم وزياراتهم صلوات الله عليهم أجمعين، وعلى ذلك ما لم يكن السالك من أهل ولايتهم لا يمكنه الفلاح والنجاح بل هو مارق زاهق كما في الزيارة الجامعة: «فالراغب عنكم مارق واللازم لكم لاحق والمقصرّ في حقكم زاهق والحق معكم وفيكم ومنكم وإليكم»[٤]..

وكيف يحاد عنهم وهم: «محال معرفة الله ومساكن بركة الله ومعادن حكمة الله وحفظة سر الله وحملة كتاب الله... والأدلاء على مرضاة الله»[٥]..

---

(١) الآداب المعنوية للصلاة.
(٢) تجليات رحمانية، ص ١٦.
(٣) م. ن، ص ١٨.
(٤) الزيارة الجامعة - مفاتيح الجنان.
(٥) الزيارة الجامعة - مفاتيح الجنان.

يقول (قدس سره): «مفتاح الدائرة ومختمها ومؤخر السلسلة ومقدمها محمد صلى الله عليه وآله المصطفون من الله الذين بهم فتح الله وبمعرفتهم عرف الله، الأسباب المتصلة بين سماء الإلهية وأراضي الخلقية الظاهر فيهم الولاية والباطن فيهم النبوة والرسالة»[١]..

وعن أهمية أدعيتهم (عليهم السلام) يقول (قدس سره): «إن الأدعية والمناجاة التي وصلتنا عن الأئمة المعصومين (عليهم السلام) هي أعظم أدلة إلى معرفة الله جل وعلا وأسمى مفاتيح العبودية وأرفع رابطة بين الحق والخلق كما أنها تشتمل في طياتها على المعارف الإلهية وتمثّل أيضاً وسيلة ابتكرها أهل بيت الوحي للأنس بالله جلّت عظمته، فضلاً عن أنها تمثل نموذجاً لحال أصحاب القلوب وأرباب السلوك.

إننا لو أمضينا أعمارنا بتمامها نقدم الشكر على أن هؤلاء الأحرار والواصلين إلى الحق هم أئمتنا ومرشدون لما وفينا[٢]...

وهم (عليهم السلام) ليسوا الأدلاء على الطريق فقط بل يقودون طالب الحقيقة إلى الحق جلّ شأنه ويصلونه إلى الهدف»[٣].

الركن الثالث: العلم.

وهو الذي يستتبع العمل ومقدمة له حيث يرى الإمام (قدس سره) أن المنهج القويم في الجهاد الأكبر مركب من الجانبين: العلمي والعملي على طبق ما قاله أمير المؤمنين (عليه السلام): «يا كميل ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة»[٤].

يقول (قدس سره): «إن جميع العلوم الشرعية مقدمة لمعرفة الله تبارك وتعالى ولحصول حقيقة التوحيد في القلب التي هي صبغة الله ﴿من أحسن من الله صبغة﴾[٥] غاية الأمر أن بعضها مقدمة قريبة وبعضها مقدمة بعيدة وبعضها

(١) شرح دعاء السحر، ص ١٨. س
(٢) تجليات رحمانية، ص ١٩ .
(٣) رسائل في العرفان - خمرة العشق، ص١١.
(٤) تحف العقول، ص ١١٩ .
(٥) سورة البقرة، الآية ١٣٨ .

مقدمة بواسطة. . . وهكذا العلم بالمنجيات والمهلكات في علم الأخلاق مقدمة لتهذيب النفوس وهو بدوره مقدمة لحصول الحقائق والمعارف ولياقة النفس لتجلّي التوحيد وهذا عند أهله من الوضوح بمكان»[١].

ثم ينبّه (قدس سره) على أن العلم سيف ذو حدين والمطلوب سمو الهدف فيه قائلاً: «إن كان الهدف من طلب العلوم وتدارسها ومنها علم العرفان والتوحيد هو تكديس بعض الاصطلاحات. . فإنها تذهب بالسالك بعيداً عن الهدف فضلاً عن أنها لا تقربه إليه »العلم هو الحجاب الأكبر» وإن كان العشق الإلهي وطلب رضاه يشكل الدافع لطلب العلم وهو نادر الحصول فسوف يضحي العلم مشعل طريق ومصباح هداية «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء» ولتحصيل جانب من ذلك لا بد من تهذيب النفس وتطهير القلب ممن سواه»[٢].

الركن الرابع: التمسك بظاهر الشريعة.

والمقصود هنا أن كل طريقة لا توافق الشريعة في ظاهرها وأحكامها بادعاء الوصول إلى الأسرار والاستغناء عن الوظائف العبادية من خلال الاكتفاء بمقام الباطن كما يفعله بعض أهل التصوّف، ليس من السلوك الإنساني في شيء ضرورة أنه لا يوجد وراء شريعة سيد المرسلين (صلى الله عليه وآله وسلم) شريعة أو طريقة يمكن اعتمادها والركون إليها وإن كثر المدّعون من أهل الرياضات الروحية وأمعنوا في جهالاتهم، فإن الحق أن السبيل الوحيد للحصول على أسرار العبادات هو حفظ ظواهرها بلا تحجر وجمود، لأن ترك الظاهر انحراف عن الصراط المستقيم، والتحجر على الظاهر سبب الخمول يقول الإمام (قدس سره): «إن الطريقة والحقيقة لا تحصلان إلا من طريق الشريعة، فإن الظاهر طريق الباطن، بل يفهم منه أن الظاهر غير منفك عن الباطن، فمن رأى أن الباطن لم يحصل مع الأعمال الظاهرة وأتباع التكاليف

---

(١) جنود العقل والجهل، ص ١٠ .
(٢) رسائل في العرفان - خمرة العشق، ص٣.

الإلهية فليعلم أنه لم يقم على الظاهر على ما هو عليه، ومن أراد أن يصل إلى الباطن من غير طريق الظاهر كبعض عوام الصوفية فهو على غير بيّنة من ربّه»[١].

ويقول (قدس سره) أيضاً: «إن طي أي طريق في المعارف الإلهية لا يمكن إلا بالبدء بظاهر الشريعة وما لم يتأدب الإنسان بآداب الشريعة الحقة لا يحصل له شيء من حقيقة الأخلاق الحسنة، كما لا يمكن أن يتجلى في قلبه نور المعرفة وتنكشف له العلوم الباطنية وأسرار الشريعة وبعد انكشاف لحقيقة ظهور أنوار المعارف في قلبه لابد من الاستمرار في التأدب بالآداب الشرعية الظاهرية أيضاً»[٢].

وهل هناك من هو أفضل وأكمل من خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته (عليهم السلام) ومع ذلك لم تكن الآداب الظاهرية موضوعة عنهم فكيف غيرهم؟!.

فالنتيجة أن الالتزام بظاهر الشريعة ركن ركين في طريق جهاد النفس من البداية إلى بلوغ الغاية القصوى والحلول في رتبة الكمال.

إيقاظ: دائمية الجهاد:

ومن هنا نفهم أن المجاهدة دائمية لا تتوقف، ومما ذكره (قدس سره) مشيراً إلى هذا الدوام: «إن أولياء الله لم يخلدوا إلى الراحة أبداً وكانوا دائمي الخوف من هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر[٣].. ولابد للسالك أن لا يقنع في حال من الحالات بالمقام الذي هو فيه[٤].. عليه أن يواظب بكمال المواظبة والدقة على حاله كطبيب رفيق ورقيب شفيق»[٥].

معرفة النفس:

حينما نقف مع صفحات العرفان للإمام الخميني (قدس سره) في كل

(١) تعليقة الإمام (قدس سره) على شرح فصوص الحكم .... الأيوبي، ص ٢٠١ .
(٢) الأربعون حديثاً، ص ٣٥ .
(٣) م. ن، ص ١٨٨ .
(٤) الآداب المعنوية للصلاة، ص ٤٣ .
(٥) م. ن، ص٥٥.

مقالاته نجده يقدّم الحديث عن النفس ومعرفتها قبل أن يشرق نور بيانه في سائر المطالب الإلهية من قلم الحقيقة مغترفاً حبر الإسلام المحمدي الأصيل من وراء الغيب، فوق الشمس وبأنامل ذهبية رسمت السبيل القويم إلى الغاية القصوى، فلماذا هذا التقديم يا ترى؟!.

إن هذا التقديم ضرورة لا غنى عنها، ذلك أن معرفة النفس أول الطريق ونقطة الانطلاق إلى معرفة الحق تعالى فقد روي أن إحدى زوجات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سألته: متى يعرف الإنسان ربه؟ فقال: «إذا عرف نفسه»[(١)] وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه»[(٢)] وهي أنفع المعارف فكيف لا تكون مقدمة على غيرها وهذا أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: «معرفة النفس أعرف المعارف»[(٣)] ولولاها لم يكن للإنسان معرفة ربّه بل الجهل بها مع طلبه أو ادعاء معرفته مدعاة لتعجب الأنبياء والأولياء كما عن إمام السالكين والعارفين أمير المؤمنين (عليه السلام): «عجبت لمن يجهل نفسه كيف يعرف ربه»[(٤)].

لذلك بدأ الإمام (قدس سره) بتعريف النفس الإنسانية وبيان مقاماتها ومدارجها[(٥)(٦)].

نماذج من سلوك الإمام الخميني (قدس سره):

١ - مع القرآن الكريم.
٢ - مع أمير المؤمنين (عليه السلام).
٣ - مع أهل البيت (عليهم السلام).
٤ - مع الجيران.
٥ - مع عائلته.

---

(١) عيون مسائل النفس، ص١ .
(٢) رسالة الولاية، ص ٩٣ .
(٣) الغرر والدرر، حديث ٥١ .
(٤) ميزان الحكمة، باب النفس .
(٥) الأربعون حديثاً، ص ٣٠ - سرّ الصلاة، ص ٥١.
(٦) الآداب المعنوية للصلاة، ص ٣٥.

٦ - مع صلاة الليل.
٧ - دقة النظام.
٨ - احترام القانون.
٩ - الحفاظ على المال العام.

الإمام الخميني مع القرآن الكريم:

يقول أحد المقرّبين منه (قدس سره) كان يقرأ القرآن بعد صلاة الفجر وقبل صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقلّما اتفق أن زرناه في هذه الأوقات دون أن نراه مستغرقاً بتلاوة القرآن الكريم[١] كان يقرأ يومياً عشرة أجزاء من القرآن وهذا يعني أنه كان يختم القرآن كل ثلاثة أيام[٢].

الإمام الخميني مع أمير المؤمنين (عليه السلام):

عكف الإمام (قدس سره) في النجف الأشرف لأربعة عشر عاماً على زيارة مقام أمير المؤمنين (عليه السلام) في كل ليلة من أيام السنة وكان ذلك بعد انقضاء ثلاث ساعات من غروب الشمس.

ولم يره أحد يعبر مرةً في حرم الأمير (عليه السلام) من الجهة الموازية للرأس الشريف تعظيماً لقداسة مقام الولاية الكبرى، بل كان يعبر من جهة قدميه صلوات الله عليه[٣].

الإمام الخميني مع أهل البيت (عليهم السلام):

لم يكن الغذاء اليومي لجسده حاملاً الروح القدسية المشرقة أكثر ضرورة من الزيارة الجامعة الكبرى لأهل العصمة (عليهم السلام) حيث لم يتركها يوماً في حياته المباركة وكانت غذاءه إلى أن التحق بالملكوت الأعلى[٤].

الإمام الخميني مع الجيران:

عندما كان (قدس سره) في باريس وصادفت ذكرى ولادة السيد المسيح

(١) نور الهدى، ص ٥٩ . (٢) الإمام قدوة، ص ٨٣ .
(٣) في ظلال الشمس، ص ٢٠.
(٤) الشمس الساطعة، ص ٢١.

(عليه السلام) أوصانا أن نوزع الحلوى والتحف الإيرانية على الجيران.. الذين حضروا في اليوم التالي يحملون باقات الورد ويعربون عن شكرهم للإمام (قدس سره)[١]..

الإمام الخميني مع عائلته:

كان (قدس سره) يعامل زوجته باحترام كبير، ولا يجلس على مائدة الطعام ريثما تحضر[٢].

وإذا كثر ضيوفه يدخل إلى المطبخ قائلاً: «إن عملكم اليوم كثير جئت لمساعدتكم»[٣]..

الإمام الخميني صلاة الليل:

لا يعلم أحد ما تمثّله صلاة الليل بالنسبة لأهميتها في حياته (قدس سره) لذلك حرص على عدم تركها طيلة حياته الشريفة يقول أحد المقربين منه: في الليلة التي غادرنا فيها باريس إلى طهران أخلد جميع ركاب الطائرة إلى النوم إلاّ الإمام، فكان منشغلاً بصلاة الليل[٤].

الإمام الخميني دقة النظام:

قلّما تجد شخصية في المستوى الذي كان عليه (عليه السلام) من النظام واحترام الوقت حتى أصبح المحيطون به يعرفون ساعات الليل والنهار من خلال برنامجه اليومي وكذلك جيرانه يضبطون ساعاتهم عند رؤيته خارجاً من داره أو عائداً إليها.

ولم يحصل أي تغيير على برنامجه اليومي في التدريس والمطالعة عندما وصله خبر استشهاد نجله السيد مصطفى[٥].

الإمام الخميني احترام القانون:

أثناء وجوده (قدس سره) في باريس دعاه الأخوة إلى طعام حيث ذبحوا

---

(١) نور الهدى، ص ٥٨.
(٢) م. ن، ص ٥٧.
(٣) م. ن، ص ٦١.
(٤) م. ن، ص ٦٥.
(٥) م. ن.

خروفاً في مكان إقامته، والقانون يمنع ذبح الحيوان خارج المسلخ فقال: إنني لا أتناول من هذا اللحم طالماً كان ذبحه خرقاً للقانون، بالرغم من أن النظام في ذلك المكان لم يكن إسلامياً[١]..

الإمام الخميني الحفاظ على المال العام:

كان إذا بعث رسالة لبعض المعاملين معه من المسؤولين كتب في ذيلها ملاحظة: بإمكانكم أن تستفيدوا من هذه الورقة أي لا ترموها طالما هناك إمكانية للكتابة عليها.

وإما في استعمال الهاتف فكان يقول لولده السيد أحمد: لا يحق لك أن تتصل بطهران أو أي مكان آخر إلا إذا كانت المكالمة خاصة بالثورة كأن يراد نقل منشور أو بيان[٢].

صلاة الليل في المستشفى:

كان الإمام ينام في ساعةٍ محددة، ويستيقظ في تمام الساعة الثانية بعد منتصف الليل لصلاة الليل. وطوال المدة التي قضاها في المستشفى للعلاج، ورغم أن الأطباء كانوا يعطونه أدوية منومة لكي يستريح، لكنه كان يستيقظ في هذه الساعة نفسها ويسأل عن الوقت لكي يقيم نافلة الليل، الأمرُ الذي يدل على دقة التزامه ببرنامجه اليومي المنظم[٣].

أقام صلاة الليل بكل سكينة:

كانت السكينة تتجلى في سلوك الإمام وهو في الطائرة التي عاد فيها من فرنسا إلى طهران، ولم يصبه أدنى اضطراب، لقد أقام في الليلة التي سبقت عودته صلاة الليل وصلاة الفجر ثم نام قليلاً طبق برنامجه اليومي المعتاد ثم صعد إلى الطائرة[٤].

---

(١) م. ن، ص ٦١ .
(٢) الإمام قدوة، ص ٨٥.
(٣) حجة الإسلام والمسلمين السيد إمام الجعفري، صحيفة «جمهوري إسلامي»، ملحق خاص بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة الإمام.
(٤) حجة الإسلام والمسلمين السيد أحمد الخميني، مجلة سروش، العدد: ٤٧٦.

ذكر الله أثناء المشي:

طوال حياته، كان الإمام يلتزم - وإضافة إلى أذكاره المعهودة - بتلاوة القرآن ثلاث مرات في اليوم، كما كان ينظم أذكاره مع برنامج مشيه الرياضي. فمثلاً إذا قام بالمشي لمدة نصف ساعة، اشتغل بالذكر طوال هذه المدة بحيث كان ينتهي ورده من الذكر مع انتهاء الوقت الذي خصصه للمشي بالضبط، فيكون تنظيمه لوقت المشي بمقدار ذكره المعين[١].

مئة كلمة عرفانية للإمام الخميني قدس سره:

١- تأمّل أيها الشخص المرائي... يا منْ أودعت العقائد الحقّة والمعارف الإلهية بيد عدوّ الله، وهو الشيطان، وأعطيت مختصّات الحق تعالى للآخرين، وبدّلتَ تلك الأنوار التي تضيء الروح والقلب وهي رأسمال النجاة والسعادة الأبدية ومنبع اللّقاء الإلهي وبذرة القرب من المحبوب، أبدلتها بظلماتٍ موحشة وشقاءٍ أبدي وجعلتها رأسمال البُعد والابتعاد عن ساحة المحبوب المقدّسة، والابتعاد عن لقاء الله تعالى.

٢- تهيّأ، أيها المرائي، للظلمات التي لا نور بعدها، وللشدائد التي لا فرج لها، وللأمراض التي لا يرجى شفاؤها، وللموت الذي لا حياة معه، وللنار التي تخرج من باطن القلب فتحرق ملكوت النفس وملك البدن حرقاً لم يخطر على قلبي وقلبك، والتي يخبرنا عنها الله تعالى في كتابه المنزل في الآية الشريفة: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾.

٣- الله تعالى هو صاحب القلب والمتصرّف فيه، وأما العبد الضعيف العاجز فلا يستطيع أن يتصرّف بقلبه دون إذنه، بل إنّ إرادته قاهرة لإرادتك ولإرادة جميع الموجودات. إذاً، فمراءاتك تملّقك، إذا كانا لأجل جذب قلوب العباد، ولفت نظرهم، ومن أجل الحصول على المنزلة والتقدير في القلوب والاشتهار بالصلاح، فإنّ ذلك خارج كلية عن تصرفك، وهو تحت تصرّف الله، فإله القلوب وصاحبها يوجّه القلوب نحو من يشاء.

---

(١) آية الله الشيخ التوسلي.

٤- إذا كنتَ مخلصاً فلماذا لا تجري ينابيع الحكمة من قلبك على لسانك مع أنك تعمل أربعين سنة قربة إلى الله حسب تصوّرك؟ في حين أنه ورد في الحديث الشريف عن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا خَلُصَ عَبْدٌ للهِ عَزَّ وَجَلَّ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً إلاَّ جَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ»، إذاً؛ فاعلم أنّ أعمالنا غير خالصة لله، ولكننا لا ندري، وها هنا الداء الذي لا دواء له.

٥- أُطلبْ من الله الرحيم في كل حين، وخصوصاً في الخلوات، وبتضرّع وعجز وتذلّل، أن يهديك بنور التوحيد، وأن ينوّر قلبك ببارقة غيب التوحيد في الإيمان والعبادة، حتى تعلم أنّ جميع العالم الواهي وكل ما فيه يكون لا شيء. واسأل الذات المقدّسة بكل تضرّع أن يجعل أعمالك خالصة وأن يهديك إلى طريق الخلوص والولاء.

٦- لا تعيبوا على أحد، حتى في قلوبكم، وإن كان كافراً، فلعلّ نور فطرته يهديه، ويقودكم تقبيحكم ولومكم هذا إلى سوء العاقبة.

٧- أيها المسكين! أنت في حضرة الله جلَّ جلاله، وفي محضر الملائكة المقرَّبين، تعمل خلاف رضا الله تعالى، والعبادة التي هي معراج القرب من الله، تؤدّيها لأجل النفس الأمَّارة بالسّوء ولأجل الشيطان.

٨- إنّ الصلاة التي لا تَنهى عن الفحشاء ولا تحافظ على القلب، بل لكثرتها تبعث على ضياع القلب، إن مثل هذه الطاعة ليست بصلاة. إنّ صلاتك التي تحافظ عليها كثيراً وتحرص على إقامتها، إذا كانت تقرّبك من الشيطان وخصيصته من الكِبر، فهي ليست بصلاة، لأنّ الصلاة لا تستدعي ذلك.

٩- إن الكِبر من أخلاق الشيطان الخاصة. فقد تكبّر على أبيك آدم، فطُرد من حضرة الله، وأنت أيضاً مطرود لأنّك تتكبّر على كل الآدميين من أبناء آدم.

١٠ - إذا كنت من أهل الإيمان الناقص والصوري، فعليك أن تطهّر نفسك من هذا الغشّ حتى تنضمّ إلى زمرة السعداء والصالحين. والغشّ يزول بنار التوبة والندم، وبإدخال النفس في أتون العذاب واللّوم، وصهرها في حرارة الندامة والعودة إلى الله. عليك أن تعمل في هذا العالم، وإلا فإنّ ﴿نَارُ

اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ سوف تذيب قلبك. والله أعلم كم قرناً من قرون الآخرة يستغرق إصلاحك هذا!.

١١- أيها الأخ، ما دمت في مقتبل عمرك، وزهرة شبابك، وأوج قوتك، وحرية إرادتك، سارع لإصلاح نفسك، ولا تُلقِ بالاً لهذا الجاه والمقام، وطأ على هذه الاعتبارات بقدميك، إنك إنسان، فابعد نفسك عن صفات الشيطان.

١٢ - إنّ الضيق والضغط والكدر والظلام الذي يحصل في القلب بسبب الحسد قلّما يوجد في خُلق فاسد آخر. وعلى أي حال إنّ صاحب هذا الخُلق يعيش في الدنيا معذّباً مبتلىً، ويكون له في القبر ضيق وظلمة، ويحشر في الآخرة مسكيناً متألماً.

١٣ - فيا عزيزي؛ إنّ الوقوف منذ البداية دون تسرّب المفاسد الأخلاقية أو العملية إلى مملكة ظاهرك وباطنك، أيسر بكثير من إخراجها بعد توغّلها، لأنّ ذلك يتطلّب الكثير من العناء والجهد. وإذا تسرّبت، فإنّك كلّما أخّرت التصدّي لإخراجها، ازداد الجهد المطلوب منك وضعفت قواك الداخلية.

١٤ - كلّما ازداد التلذّذ بالدنيا، اشتدّ تأثر القلب وتعلّقه بها وحبّه لها، إلى أن يتّجه القلب كُلّياً نحو الدنيا وزخارفها، وهذا يبعث على الكثير من المفاسد.

١٥ - إن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنفيذ الحدود والتعزيرات وسائر التعاليم السياسية الدينية والعقلية، لا يكون إلاّ في ظلّ القوة الغضبية الشريفة. وعلى ذلك، فإن الذين يظنون أن قتل غريزة الغضب بالكامل وإخماد أنفاسها يعدّ من الكمالات والمعارج النفسية إنّما يرتكبون خطيئة عظيمة، ويغفلون عن حدّ الكمال ومقام الاعتدال.

١٦ - إن القلب إذا غطّاه صدأ حُبّ الذات والأرحام والتعصّب القومي الجاهلي، فلن يكون فيه مكان لنور الإيمان، ولا موضع للاختلاء مع الله ذي الجلال تعالى.

١٧ - إن الإنسان العارف بالحقائق يعلم أن جميع العصبيات والارتباطات ليست سوى أمور عرضية زائلة، إلاّ تلك العلاقة بين الخالق والمخلوق. وتلك هي العصبية الحقيقية التي هي أمر ذاتي غير قابل للزوال،

وهو أوثق من كل ارتباط، وأقوى من كل حسب وأسمى من كل نسب.

١٨ - إن أولياء الله لم يخلدوا إلى الراحة أبداً، وكانوا دائمي الخوف من هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر. إن حالات علي بن الحسين عليه السلام، الإمام المعصوم، تثير الحيرة، وأنين أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، الوليّ المطلق، تبعث على الدهشة. ما الذي جرى لنكون على هذا القدر من الغفلة؟ مَنْ الذي جعلنا نطمئن؟ إنّه لا يُغرينا أحد بتأجيل عمل اليوم إلى الغد إلاّ الشيطان.

١٩ - إذا انتزع الشيطان، لا سمح الله، وسائل الإيمان من يدك، فلن تكون جديراً بالرحمة والشفاعة. نعم، رحمة الله واسعة في الدّارين. فإذا كنت تطلب الرحمة، فلماذا لا تستفيد من فيوضات الرحمة المتتالية في هذه الدنيا، وهي بذور الرحمات الأخرى؟

٢٠ - إذا لم يقف الإنسان بوجه هذه الصفة ولم يردعها، وترك نفسه وشأنها، فلن يمضيَ وقت طويل حتى يفلت الزّمام منه، ويصبح كلّ همّه واهتمامه منصباً على تلك الرّذيلة، حتى أنه لا يلتقي شخصاً إلاّ وعامله معاملة ذي الوجهين وذي اللّسانين، ولا يعاشر أحداً إلاّ وخالطت معاشرته تلك الصفة من التلوّن والنفاق، دون أن يخطر له شيء سوى منافعه الخاصة وأنانيته وعبادته لذاته، واضعاً تحت قدميه الصداقة والحميّة والهمّة والرجولة، ومتّسماً في كل حركاته وسكناته بالتلوّن، ولا يمتنع عن أي فساد وقبح ووقاحة. إن شخصاً هذا شأنه يكون بعيداً عن البشرية والإنسانية، ومحشوراً مع الشياطين.

٢١ - يا من تدّعي الإيمان وخضوع القلب في حضرة الله ذي الجلال، إذا كنت تؤمن بكلمة التوحيد، ولا يعبد قلبك غير الواحد، ولا يطلب غيره، ولا ترى الألوهية تستحق إلاّ لذاته المقدسة، وإذا كان ظاهرك وباطنك يتفقان فيما تدّعي، فلماذا نجدك وقد خضع قلبك لأهل الدنيا كل هذا الخضوع؟ لماذا تعبدهم؟ أليس ذلك لأنك ترى لهم تأثيراً في هذا العالم، وترى أن إرادتهم هي النافذة، وترى أنّ المال والقوة هما الطاقة المؤثرة والفاعلة؟ وأن ما لا تراه فاعلاً في هذا العالم هو إرادة الحق تعالى، فتخضع لجميع الأسباب الظاهرية، وتغفل عن المؤثر الحقيقي وعن مسبّب جميع الأسباب، ومع كل ذلك تدّعي

الإيمان بكلمة التوحيد. إذاً، فأنت أيضاً خارج عن زمرة المؤمنين، وداخل في زمرة المنافقين ومحشور مع أصحاب اللّسانين.

٢٢- يا من تدّعي الزهد والإخلاص، إذا كنت مخلصاً حقاً، وأنك لأجل الله ولأجل دار كرامته تزهد عن مشتهيات الدنيا، فما الذي يحملك على أن تفرح بمدح الناس لك والثناء عليك بقولهم إنك من أهل الصلاح والسداد، فيملأ السرور قلبك؟ ولماذا لا تبخل بشيء في سبيل مجالسة أهل الدنيا وفي سبيل زخارفها، وتفرّ من الفقراء والمساكين؟.

فاعلم أن زهدك وإخلاصك ليسا حقيقيين، بل إن زهدك في الدنيا هو من أجل الدنيا، وأن قلبك ليس خالصاً لوجه الله، وأنك كاذب في دعواك، وأنك من المتلوّنين المنافقين.

٢٣ - يا أيتها النفس اللّئيمة التي تتظاهرين بالتفكير للخروج من الأيام المظلمة والنجاة من هذه التعاسة، إذا كنت صادقة، وقلبك يواكب لسانك، وسرّك يطابق علنك، فلماذا أنتِ غافلة إلى هذا الحد؟ ولماذا يسيطر عليكِ القلب المظلم والشهوات النفسانية وتتغلّب عليك، دون أن تفكري في رحلة الموت المليئة بالمخاطر؟

٢٤ - لقد تصرّم عمرك دون أن تبتعد عن أهوائك ورغباتك. لقد أمضيت عمراً منغمساً في الشهوة والغفلة والشقاء وسيحلّ الأجل قريباً، وأنت ما زلت تمارس أعمالك وأخلاقك القبيحة. فأنت نفسك واعظ غير متّعظ، ومن زمرة المنافقين وذوي الوجهين. ولئن بقيت على هذا الحال فستحشر بوجهين ولسانين من نار..

٢٥ - يا أخي، إذا كنت تعرف أنك من أتباع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وتريد أن تحقق هدفه، فاعمل على أن لا تضعه موضع الخجل بقبيح عملك وسوء فعلك. ترى إذا كان أحد من أولادك والمقرّبين إليك يعمل القبيح وغير المناسب من الأعمال التي تتعارض وشأنك، فكم سيكون ذلك مدعاة لخجلك من الناس وسبباً في طأطأة رأسك أمامهم؟

٢٦ - الويل لنا نحن الغافلين الذين لا نستيقظ من النوم حتى آخر العمر. نبقى في سُكر الطبيعة غارقين، بل نزداد كل يوم سُكراً وغفلة، ولا نفهم شيئاً

سوى الحالة الحيوانية من مأكل ومشرب ومنكح، ومهما فعلنا، وإن كان من سنخ العبادات، فإنما نفعله في سبيل البطن والفرج. أتحسب أن صلاة خليل الرحمن كانت مثل صلاتنا؟ الخليل لم يطلب حاجة حتى من جبرائيل، ونحن نطلب حاجاتنا من الشيطان نفسه ظناً منّا بأنه يقضي الحاجات.

٢٧ - إلهي وربي! إن أيدينا عن كل شيء قاصرة، ونحن عارفون بأننا ناقصون وتافهون، ولا نملك ما يليق بأعتاب قدسك. كلّنا نقص وعيب. ظاهرنا وباطننا ملوّث بالمهالك والموبقات. فمن نحن حتى نرجو القدرة على الثناء عليك، فيما يعترف الوليّ من أوليائك قائلاً: «أفَبِلِساني الكالّ هذا أشْكُرُكَ!» مقراً بعجزه وَقصوره؟ فكيف بنا نحن أهل المعصية المحجوبين عن ساحة كبريائك؟ ما عسانا نقول سوى أن نحرّك ألسنتنا قائلين: إن رجاءنا موكول إلى رحمتك، وإن أملنا وثقتنا بفضلك ومغفرتك وجودك وكرمك.

٢٨ - إذا نظّف العبد أرض قلبه من أشواك الأخلاق الفاسدة وأحجار الموبقات وسباختها، وبذر فيها بذور الأعمال، وسقاها بماء العلم الصافي النافع والإيمان الخالص، وخلّصها من المفسدات والموانع مثل العجب والرياء وأمثالهما التي تعدّ بمثابة الأعشاب الضارّة العائقة لنموّ الزرع، ثم انتظر ربّه المتعالي ورجاه أن يثبّته على الحق، ويجعل عاقبة أمره إلى خير، كان هذا الرجاء مستحسناً، كما يقول الحقّ المتعالي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾.

٢٩ - إنّ الإنسان عندما يدرك منتهى قصوره في النهوض بالعبودية، ويرى صعوبة وضيق طريق الآخرة، يتولّد فيه الخوف بأعلى درجة. وعندما يجد ذنوبه ويفكّر في أناس كانت عاقبة أمرهم الموت من دون إيمان وعمل صالح، رغم حسن أحوالهم في بدء الأمر ولكنهم انتهوا إلى سوء العاقبة، يشتدّ فيه الخوف.

٣٠ - إنّ ما يصل إلينا في ذلك العالم هو صور أعمالنا. فلذلك مزّق سلاسل الشهوة والأهواء المتعرّجة بعضها على بعض، وحطّم أصفاد القلب، واخْرج من قيود الأسر، وكن حراً في هذا العالم، حتى تكون حراً في ذلك العالم. ولولا ذلك لوجدت الصورة الملكوتية لهذا الأسر حاضرة في ذلك العالم، واعلم بأنها مؤلمة جداً.

إن أولياء الله رغم تحرّرهم التام من الأسر والرق، وبلوغهم الحرية المطلقة فإن قلوبهم كانت مضطربة وكانوا يجزعون وينحبون بدرجة تثير دهشة العقول.

٣١ - إنّ الإنسان العاقل الرؤوف بنفسه لا بد له من السعي واللجوء إلى كل سبيل لإنقاذ نفسه من الأسر، والنهوض أمام النفس الأمارة والشيطان الباطني، ما دامت الفرصة سانحة، وقواه الجسدية سالمة وما دام أنه على قيد الحياة وفي صحة موفورة وفتوّة موجودة، وأن قواه لم تتسخّر كلياً، ثم يراقب حياته فترة من الوقت، ويتأمّل في أحوال نفسه وأحوال الماضين، ويتمعّن في سوء عاقبة بعضهم، ويُفهم نفسه أن هذه الأيام القليلة تبلى، ويوقظ قلبه ويفهمه الحقيقة التالية المنقولة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حيث خاطبنا قائلاً: «الدنيا مزرعة الآخرة».

٣٢- إنّ العبد الذي لا يتحمّل مصيبة واحدة نازلة عليه من الحق المتعالي والحبيب المطلق، والذي إذ واجه بليّة واحدة رفع صوته بالشكوى من وليّ نعمه أمام المخلوق، رغم نزول البركات عليه وتلقّيه آلاف آلاف النعم، مثل هذا العبد أي إيمان له؟ وأي تسليم له أمام المقام القدسي للحق؟

٣٣- هل تظن أن التوبة مجرّد كلام يقال؟ إن القيام بالتوبة لعمل شاق. إن الرجوع إلى الله والعزم على عدم العودة إلى الذنب يحتاج إلى رياضة علمية وعملية، إذ نادراً ما يحدث للإنسان أن يفكر وحده بالتوبة أو يتوفق إليها أو يتوفق إلى توفير شرائط صحة التوبة وقبولها أو إلى توفير شرائط كمالها. إذ من الممكن أن يدركه الموت قبل التفكير في التوبة أو إنجازها وينقله من هذه النشأة مع المعاصي التي تنوء بالإنسان ومع ظلمات الذنوب اللامتناهية. وفي ذلك الوقت يعلم الله وحده المصائب والمحن التي سوف يواجهها!

٣٤ - إذا عاش الإنسان مع الحق سبحانه وتعالى في جميع الأحوال وكافة المستجدات، وشاهد نفسه أمام الذات المقدّس عزّ شأنه، لأحجم عن الأمور التي تسخط الله، وردع نفسه عن الطغيان. إن المشاكل والمصائب المنبثقة من النفس الأمّارة والشيطان الرجيم قد نشأت عن الغفلة عن ذكر الحق وعذابه وعقابه.

٣٥ - إن الله سبحانه وتعالى غيور، ويكون هتك ستر المؤمنين وكشف عوراتهم هتكاً لناموس الله وكرامته. ولو أن إنساناً تجاوز في الاستهتار الحدود، وهتك حرمات الله، كشف الله الغيور عيوبه التي سترها عن الآخرين بلطفه وستّاريته، وهتك أسراره وفضح أمره في هذا العالم أمام الناس وفي عالم الآخرة أمام الملائكة والأنبياء والأولياء عليهم السلام.

٣٦ - يجب أنْ يكون الإنسان مثل الطبيب الرحيم، والمرافق الرؤوف يراقب نفسه، ولا يسمح لفلتان زمامها مِنْ يده، لأنها في لحظة من الغفلة تنفلت من يده وتقوده إلى الذل والهلاك.

٣٧ - اعلم أنّ شكر نِعَم الحق المتعالي سبحانه الظاهرية والباطنية، من المسؤوليات اللازمة للعبودية، حيث يجب على كل شخص حسب قدرته المتيسّرة أن يشكر ربه، رغم أن أحداً من المخلوقين لا يستطيع أن يؤدي حق شكره تعالى. ويكون منتهى الشكر في معرفة الإنسان عجزه عن النهوض بحق شكره سبحانه. كما أن غاية العبودية تكون في معرفة الإنسان عجزه عن القيام بحق العبودية له تعالى.

٣٨ -لو أن شخصاً قام بالوظائف العبودية والمناسك الظاهرية- حسب ما هو لازم ومطابق لتوجيهات الأنبياء- لانعكست من جرّاء أدائه لمسؤولياته العبودية آثار على قلبه وروحه، حيث يحسن خلقه، وتتكامل عقائده.

٣٩ - أيها العزيز، أنت محتاج في جميع العوالم: عالم البرزخ وعالم القبر وعالم القيامة ودرجاتها إلى المعارف الإلهية الحقّة، والعلوم الحقيقية والخلق الحسن والأعمال الصالحة. فاجتهد أينما كنت من هذه الدرجات والمراتب، وأكثر من إخلاصك وأزل عن قلبك أوهام النفس ووساوس الشيطان حتى تظهر لك النتائج، وتجد سبيلاً إلى الحقيقة، وينفتح لك طريق الهداية، ويكون الله سبحانه في عونك.

٤٠ - اعلم أنّ التفرّغ للعبادة يحصل من تكريس الوقت والقلب لها. وهذا من الأمور المهمة في باب العبادات. فإن حضور القلب من دون تفريغه وتكريس الوقت له غير ميسور، والعبادة، من دون حضور القلب، غير مجدية.

٤١ - لا بد للإنسان المتعبد، أن يوظف وقتاً للعبادة. وأن يحافظ على

أوقات الصلاة التي هي أهم العبادات وأن يؤديها في وقت الفضيلة، ولا يختار لنفسه في تلك الأوقات عملاً آخر.

٤٢ - عزيزي: اجعل مناجاتك مع الحق سبحانه بمثابة التحدّث مع إنسان بسيط من هؤلاء الناس؛ فكيف إنك إذا تكلمت مع صديق، بل مع شخص غريب، انصرف قلبك عن غيره، وتوجّهت بكل وجودك نحوه، أثناء التكلم معه، ولكنك إذا تكلمت وناجيت وليّ النِّعم، وربّ العالمين، غفلت عنه وانصرفت عنه إلى غيره؟

٤٣ - إن تفريغ القلب من غير الحق يعدّ من الأمور المهمة، التي يجب على الإنسان أن يحققها مهما كلف الثمن، والسبيل إلى تحصيله ميسور وسهل، فمع قدر قليل من الانتباه والمراقبة نستطيع أن ننجزه ونحققه.

٤٤- كلّما اتجه القلب نحو تدبير الأمور وتعمير الدنيا أكثر، وكان تعلقه أشد، كان غبار الذل والمسكنة عليه أوفر، وظلام الهوان والحاجة أوسع، وعلى العكس كلما رَكَل بقدميه التعلّق بالدنيا، ووجّه وجه قلبه إلى الغني المطلق، وآمن بالفقر الذاتي للموجودات، وعرف بأن أحداً من الكائنات لا يملك لنفسه شيئاً، وأن جميع الأقوياء والأعزاء والسلاطين قد سمعوا بقلوبهم أمام ساحة الحق المقدسة من الهاتف الملكوتي، واللسان الغيبي، الآية الكريمة؟يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ؟ كلّما استغنى الإنسان عن العالمين أكثر، وبلغ مستوى استغنائه درجة لا يرى لمُلك سليمان قيمة، ولا يأبه بخزائن الأرض عندما توضع بين يديه مفاتيحها.

٤٥ - لو أنّ القلب غفل عن الاشتغال بالحق وأهمل التفرغ في التوجّه نحوه لغدت هذه الغفلة أساس كل الشقاء، وينبوع جميع النقائص ومبعث كافة الأمراض النفسية. وبسبب هذه الغفلة يحول بين القلب والحق المتعالي ظلام داكن وكدورة شديدة وحجب غليظة تمنع من تغلغل نور الهداية فيه، وتحرمه من التوفيقات الإلهية.

٤٦ - لا تقارن نفسك مع الأولياء، ولا تظن بأن قلبك يضاهي قلوب الأنبياء وأهل المعارف. إن قلوبنا ذات غبار التعلق بالدنيا وملذّاتها، وإن انغماسنا في الشهوات يمنع قلوبنا من أن تكون مرآة لتجلّي الحق سبحانه، ومحلاً لظهور المحبوب.

٤٧ - إنّ الإنسان ما دام يشتغل بتعمير هذا العالم، ويكون قلبه متّجهاً نحو هذه النشأة، وما دام سكر الطبيعة- عالم المادة- قد أعماه وأفقد وعيه، والشهوة والغضب المخدرتان قد خدّرتاه وسلبتا لُبّه، يكون محجوباً نهائياً عن صور أعماله وأخلاقه، وتكون آثار أعماله وأخلاقه مهجورة في ملكوت قلبه. ولكن عندما تغشاه سكرات الموت وتواجهه صعابها وضغوطها، ويبتعد قليلاً عن هذه النشأة، فإذا كان من أهل الإيمان واليقين، وكان قلبه متعلقاً بهذه العوالم المادية، اتّجه قلبه في نهاية المطاف من حياته إلى ذلك العالم، والسائقون المعنويون، وملائكة الله الموكّلون عليه، يسوقونه جميعاً إلى ذلك العالم. وبعد هذا السوق، وذاك الانصراف ينكشف له نموذج من عالم البرزخ، وتنفتح عليه من عالم الغيب كُوّة ويتكشّف له حاله ومقامه قليلاً، كما نقل عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «حَرَامٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّها مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ هِيَ أَمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ».

٤٨ - إنّ من الأمور الهامّة السعي في سبيل تطوير حالة القلب، وجعلها إلهية، وتوجيهها نحو الحق المتعالي وأوليائه ودار كرامته. ويكون هذا قطعاً بواسطة التفكّر في آلاء الذات المقدّس، ونعمائه والمحافظة على طاعته وعبادته. ولكن يجب أن لا يعتمد الإنسان على نفسه ومساعيه، بل يستعين بالله على ذلك في جميع الأحوال، وخاصة في حالات الخلوة مع الله بكل تذلّل وتضرّع وبكاء، ويطلب منه أن يلقي حبّه في قلبه ويضيئه بنور محبته ومعرفته، ويخرج حب الدنيا وما عدا الله من قلبه.

٤٩ - إنّ الورع عن المحرّمات الإلهية يكون أساس جميع الكمالات المعنوية، والمقامات الأخروية. ولا يحصل لأحد مقامٌ إلا عند الورع عن محرّمات الله. وإن القلب الذي لا يتحلّى بالورع ليصدأ، ويبلغ به الأمر إلى مستوىً لا يُرجى له النجاة.

٥٠ - إنّ النفوس المدنّسة بالمعصية، لا تقبل صورة ولا رسماً إلاّ بعد تنظيفها من الكدر وتطهيرها من القذارة، حتى يتمكّن الرسّام من الرسم فيها. فالعبادات التي هي الصور الكمالية للنفس، لا تنفع من دون صقلها من غبار المعصية، وإنما تكون صورة من دون لبّ وظاهراً من دون روح.

٥١ - إنّ الابتعاد عن المحرمات الإلهية، لا يستدعي جهداً جبَّاراً، بل

الإنسان مع قليل من الترويض النفسي والعمل، يستطيع أن يترك جميع المحرمات، شريطة إرادته أن يكون فرداً من أهل السعادة والنجاة، ومن أهل الولاية للأئمة الأطهار وكرامة الحق المتعالي.

٥٢ - إنّ ولاية أهل بيت العصمة والطهارة، ومودّتهم، ومعرفة مرتبتهم المقدّسة، أمانة من الحق سبحانه. كما ورد في الأحاديث الكثيرة الشريفة في تفسير الأمانة في الآية ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ بولاية أمير المؤمنين عليه السلام﴾.

٥٣ - يجب على الإنسان أنْ يكون مستسلماً لأقوال الأنبياء والأولياء عليهم السلام، ولا يوجد شيء في سبيل تكامل الإنسان، أفضل من التسليم والطاعة أمام أولياء الحق، وخاصة في الأمور التي لا مجال للعقل في التطرّق إليها ولا يوجد سبيل لإدراكها واستيعابها إلا بواسطة الوحي والرسالة.

٥٤ - من المؤسف جداً آلاف المرات أنّي قدمت إلى هذا العالم وأنا مستغرق في بحار هوى النفس، وملتصق بالأرض المادية، ومقيّد بالشهوات وأسير للبطن والفرج، وغافل عن عالم مُلك الوجود، وسكران بسكر الأنانية والذاتية. من المؤسف أني سأفارق هذا العالم، ولم أدرك شيئاً من محبّة الأولياء، ولم أفهم شيئاً أبداً من جذباتهم وجذواتهم ومنازلهم ومغازلاتهم، بل كان حضوري في هذا العالم حضوراً حيوانياً، وحركاتي حركات حيوانيةً وشيطانية. وعليه فسيكون موتي أيضاً حيوانياً وشيطانياً. اللهمّ إليك المشتكى وعليك المعوّل.

إلهي! أنقذنا بنور هدايتك، وأيقظنا من هذا النوم العميق، وخذ بأيدينا إلى عالم الغيب والنور ودار البهجة والسرور، ومحفل الأنس، والخلوة الخاصة بك.

٥٥- إننا قلّما يعترينا النسيان تجاه أمر دنيوي لا سيّما في الأمور المهمّة منها، وذلك لاستعظام النفس لها، وتعلّقها بها، وتذكّرها الدائم. ومن الطبيعي أن لا يُنسى مثل هذا الأمر. فإذا قال لك شخص صادق في وعوده، إنني لدى الظهر من يوم كذا، أدفع لك مبلغاً يعدّ كبيراً ومهمّاً عندك، فإنك لا تنسى ذلك اليوم والموعد، بل تحصي الساعات والدقائق حتى يقترب الوقت لكي تستقبل

الموعد بكل توجه وحضور قلب. كل ذلك نتيجة أن حبّ النفس لذلك الشيء وإكبارها له، قد شغلك به، فلا تتهاون فيه أبداً. وهكذا يكون الاهتمام من جانب الإنسان في كل الأمور الدنيوية حسب وضعه وشؤونه. وأما إذا كان الشيء تافهاً لدى الإنسان، لتوجهت النفس له لحظة واحدة، ثم غفلت عنه.

إذاً، هل تعرف المسوّغ لفتورنا هذا في الأمور الدينية؟ إنه لأجل عدم إيماننا بالغيب، ولأن مرتكزات عقائدنا واهية، وإيماننا بالوعود الإلهية والأنبياء مهتز ومتزلزل، وتكون النتيجة أن جميع الأمور الدينية والشرائع الإلهية عندنا تافهة وواهنة.

٥٦ - إنّ الإنسان إذا آمن بالمقامات الروحانية والمعارج العرفانية فمن الممكن أن هذا الإيمان يُلهب جذوة العشق الفطري الهامد تحت رماد الرغبات النفسية، ويشعل نور الشوق في القلب، ويندفع شيئاً فشيئاً نحو الطلب والنهوض بالجهاد، فيصبح مشمولاً بهداية الحق، ونجدة الذات المقدّس المتعالي له، والحمد لله.

٥٧ - فليكن معلوماً أنّه لا بدّ لأي إنسان أن يكون هو معالج قلبه وطبيب روحه «فإنّ المربية لن تكون أرحم من الأم». ولا يترك أيّام الفرصة والمهلة والتوسعة تفوت منه، فيستيقظ من الغفلة في وقت الاضطرار والضّنك والضّيق حيث لا ينفعه أي دواء.

يا أيها العزيز، ما دامت هذه النّعمة الإلهيّة العظيمة والعمر الذي أعطاكه الله تعالى موجودين فابذل همّتك لأيّام الابتلاء والضّر، ونجّ نفسك من المشقّات والشقاوات التي تعترضك، فأنت اليوم في دار التغيُّر والتبدُّل ودار الزّراعة، وتستطيع أن تحصل على النتيجة المطلوبة، فإذا لا سمح الله كان الحزب الشّيطاني غالباً فيك، وعلى هذا الحال تنقضي أيَّامك وتنقطع يدك من هذا العالم فلا يُقبل الجبران بعده ولا تفيده الحسرة والنَّدامة ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٥٨ - إنّ الاشتغال بتهذيب النفس وتصفية الأخلاق، وهو في الحقيقة خروج من سلطة إبليس وحكومة الشيطان، من أعظم المهمات وأوجب الواجبات العقلية.

٥٩ - أيُّها الإنسان المسكين كم ستكون حسرتك يوم يرفع حجاب الطبيعة عن بصرك وتعاين أنَّ كل ما مشيت له في العالم، وسعيت فيه كان في طريق مسكنتك وشقاوتك وقد انسدّ طريق العلاج والجبران وانقطعت يدك عن كل شيء، وليس لك مجال للفرار من السلطة الإلهيّة القاهرة ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ (الرحمن: ٣٣) ولا سبيل لجبران النقائض الماضية والاعتذار عن المعاصي الإلهية: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾.

٦٠ - «يا رب» هل يمكن أن توقظ هذا القلب المحجوب والمنكوس، وتجرّ هذا الغافل المستغرق في ظلمات الطبيعة إلى عالم النُّور وتكسر بيد قدرتك الأصنام الموجودة في القلب، وتزيل غبار الجسم عن البصر؟ «إلهي» قد خنَّا أمانتك وجعلنا فطرتك في تصرف الشَّيطان اللَّعين وحجبنا عن الفطرة الإلهيَّة، وأخاف أن أخرج كلياً بهذا السَّير الطَّبيعي والسُّلوك الشَّيطاني عن الفطرة الإلهيَّة وأجعل الدّار كلَّها في تصرُّف الشَّيطان وجنوده، والجهل وجنوده.

«يا رب» خذ أنت بيدنا حيث لا طاقة لنا على المقاومة، إلاّ أن يأخذ بيدنا لطفك، إنَّك ذو الفضل العظيم.

٦١ - إنّ قلوبنا لم تتعلق بوعوده لننزعها من هذه الدُّنيا الدنيّة والنشأة الفانية ونعلّقها بالنشأة الباقية، ولم يؤثر وعيده فيها لنحترز من المعاصي الإلهيَّة ومخالفة وليّ النعمة، وهذا ليس إلاّ لأن حقيقة القرآن وحقيَّته لم تصل إلى قلوبنا، ولم تؤمن به.

٦٢ - أيُّها الإنسان القاسي القلب، فكّر وانظر ما هو المرض الذي جعل قلبك أقسى من الحجر الصَّلب، ولا يقبل قرآن الله الذي نزل لنجاتك من العذاب والظلمات. نعم إنّ حبائل الشيطان التي تجلّت في نظرك في صورة الدُّنيا بأصفرها وأحمرها قد سدّت طريق سمعك وبصرك، وجعلت قلبك منكوساً. والآن فكّر في الآية الشريفة التي تقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩) فانظر هل علامات الذين خلقوا لجهنم موجودة فيك؟ إن قلباً حرم من

نور التدبُّر والتفقُّه، وإرجاع ظاهر الدنيا إلى باطنها، لا فرق بينه وبين قطعة لحم تشكّل القلب الحيواني.

٦٣ - بالذّكر الحقيقي تخترق الحجب بين العبد والحق، وترتفع موانع الحضور، وتزول قسوة القلب وغفلته، وتنفتح للسالك أبواب الملكوت الأعلى، وأبواب لطف الحق تعالى ورحمته. ولكن العمدة أن يكون القلب في ذلك الذكر حياً ولا يكون ميتاً ولا مستأنساً مع الأموات، وكل شيء سوى الله وسوى وجهه المقدّس هو من الأموات، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

٦٤ - اعلم أنّ الإنسان بسبب حبّ النّفس والإعجاب بها يغفل عن نفسه، وربما يرى النّقائض والعيوب الموجودة فيها كمالاً وحُسناً. والاشتباه بين صفات النفس كثير جدّاً، وقَلّ من يقدر على التمييز بينها تمييزاً صحيحاً. وهذا أحد معاني نسيان النفس، أو أحد مراتبها، الذي يحصل من نسيان الحق تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

٦٥ - فتنبّه أيُّها العزيز، واستيقظ من النّوم الثَّقيل، واحذر الغرور الشَّيطاني، فإن هذا الغرور يهلك الإنسان هلاكاً أبديّاً، ويؤخّره عن قافلة سالكي الطريق ويحرمه من كسب المعارف الإلهيَّة التي هي قرَّة عين أهل الله. واعلم أنَّهُ لا تؤثر مع الغرور المواعظ الإلهيَّة ودعوات الأنبياء، ومواعظ الأولياء، لأنَّ الغرور يقلع جذورها كلها، وهذا من مصائد إبليس الكبيرة وحبال النفس الدّقيقة.

٦٦- على الشَّباب حتماً ولازماً أنْ يكونوا في صدد التَّصفية والتَّزكية ما دامت فرصة الشباب حاضرة، والصَّفاء الباطني، والفطرة الأصليَّة باقيين على حالهما. فيقلعون جذور الأخلاق الفاسدة، والصفات المظلمة من قلوبهم، لأنه بوجود خلق واحد سيّئ تكون سعادة الإنسان في خطر عظيم.

٦٧ - نحن المساكين كدود القز ننسج حول أنفسنا خيوط الآمال والأماني والحرص، والطَّمع، ومحبّة الدُّنيا، وزخارفها، ونهلك أنفسنا في هذا النسيج.

٦٨ - اليوم لا بدّ لك من أنْ تفكّر في النّعم، والرَّحمات الإلهيّة، وتقطع يد طلبك عن المخلوق الضعيف، وتنظر إلى ألطاف الحق تعالى العامة

والخاصّة، وتقطع قدم السعي عن غير بابه تعالى، ولا تعتمد على غير ركن الرحمة الإلهية الركين. فما لك غفلت عن وليّ نعمتك، واعتمدت على نفسك وعملك، وعلى المخلوقين وعملهم، وارتكبت هذا الشرك الخفيّ أو الجليّ؟

٦٩ - يمكن للعالم أنْ يؤمن سعادته الأبديّة بالروابط الحسنة. ولكن مع الأسف هذه القوى المخترعة هي تحت سيطرة الجهل والشيطنة وحب النفس وكلها تستعمل ضد سعادة النوع الإنساني وخلاف نظام المدينة الفاضلة.

٧٠ - لو اجتمعت النَّارُ كُلّها في عالم الدُّنيا بعضها فوق بعض فلا تقدر على إحراق فؤاد الإنسان. وما يحرق الباطن والظاهر والرُّوح والقلب، والفؤاد والبدن هو النَّار الملكوتيَّة الإلهيّة، وتبرز من باطن القلب، وتنفذ إلى الظَّاهر من مجرى الحواس.

٧١ - إنّ العلاج القطعي لأكثر المفاسد يكون بعلاج حب الدُّنيا، وحب النَّفس، لأنّه بعلاجها تكون النفس ساكنة ومطمئنة، ويسكن القلب، ويحلّ فيه الاطمئنان، ويتساهل بالأمور الدنيويَّة، ولا يهمُّه أي مأكل أو مشرب. فإذا زاحمه أحد في أمر من أمور الدنيا، يتلقّاه ببرودة الدم ويواجهه بالتساهل.

٧٢ - أيها الحبيب، استيقظ قليلاً من النوم الثقيل وخذ طريق عشاق الجناب، واغسل اليد والوجه من هذا العالم، عالم الظلمة والكدورة والشيطنة، وضع القدم في حيّ المحبين، لا بل تحرك إلى حيّ الحبيب.

أيها العزيز، ستنتهي هذه الأيام القليلة للمهلة الإلهية، وسيأخذوننا من هذه الدنيا طوعاً أو كرهاً، فإن ذهبت باختيار، فَرَوح وريحان وكرامات الله، وإن ذهبت كرهاً، فنزع وصعق وضغط وظلمة وكدورة. إن مثلنا في هذه الدنيا كمثل شجر تأصل في الأرض، فكلما كان حديث الغرس كان نزعه أسهل.

٧٣ - أيها العزيز، كلٌ منّا، لو أخبره طفل ابن عشر سنين أن حريقاً وقع في بيته، أو أن ابنه وقع في الماء، وهو الآن يغرق، فهل نترك الاشتغال بالعمل المهم، ونرفع اليد عنه، ونركض وراء تلك الأخبار الموحشة، أم أننا لا نهتمّ لها ونجلس في اطمئنان نفس كامل؟ فالآن أي أمر حدث؟! إن جميع الآيات والأخبار والبراهين والعيان لم تؤثر فينا تأثير خبر طفلٍ ابن عشر سنين. لأنها لو أثرت لسلبت الراحة منا.

٧٤ - إنّ الإنسان إذا انحرف عن الطريق المستقيم فهو يفوق البهائم والسباع والشياطين في كل باب من أبواب البهيمية والسُبعية والشيطانية، لأن لقواه سمة الإطلاق، وغيره من الموجودات محدود ومقيّد.

٧٥ - لا يمكن العروج إلى الكمالات الروحانية، والوصول إلى لقاء جمال الجميل مع التعلّق بغير الحق تعالى، وتبعية شهوات البطن والفرج.

٧٦ - ما دام القلب متوجهاً إلى عالم الطبيعة الظلماني وبئر الدنيا الضيق المظلم، وفي غلاف مُلك هذا العالم وغِلّه فهو ضيق وظلماني وليس قابلاً لنور الهداية وتجلّي الجمال والجلال.

٧٧- بالزهد في الدنيا والإعراض عنها يستقر في القلب نور الحكمة، وهو الهادي لطريق السعادة، والوصول إلى مقام كمال الإنسانية، ويجري من القلب إلى اللسان كما ورد في باب الإخلاص أيضاً «ما أخلص عبد الله عزّ وجل أربعين صباحاً إلاّ جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه».

٧٨ - ما دامت محبّة الدنيا والرغبة فيها متمكنتين في القلب فجميع عيوبها تتراءى حسناً وقبائحها جميلاً وجمالاً.

٧٩ - إذا حصل الزهد الحقيقي للإنسان يخرج من الدنيا إلى دار السلامة سالماً بكل معنى السلامة، وبلا عيب. لأن جميع العيوب تحصل من التعلّقات، فإذا لم تكن التعلّقات إلى غير عزّ القدس، تحصل السلامة المطلقة.

٨٠ - إنّ الحق تعالى شأنه يعامل خلقه في جميع الأمور بالرفق والمداراة، حتى في تشريع الشرائع، لأن الهداية إلى طريق السعادة والكمال عين الرفق.

٨١ - إذا رفقت النفس وجدت أنساً ومحبة للعبادات والطاعات. وبواسطة هذه المحبة والعلاقة تجد المحبة للحق تعالى والأنس به. وهذا فتح لباب المعارف الإلهية الذي هو منبع الإيمان.

٨٢ - الإنسان يعجب بنفسه ويحبها. وهذه المحبة المفرطة للنفس هي سبب احتجابه عن نقصائصه وعيوبه فلا يرى قبائحه، بل ربما تتجلى مساوئه في نظرِهِ محاسن، ويرى الفضائل والحسنات الموجودة فيه مضاعفة.

٨٣ - التواضع مبدؤه العلم بالله والعلم بالنفس، وغايته الله أو كرامة الله

ونتيجته وثمرته الكمال النفساني. والتملّق مبدؤه الشرك والجهل وغايته النفس وثمرته الخفّة والذلّة والنقص والعار. والتكبّر مبدؤه الإعجاب بالنفس وحبها والجهل، والغفلة عن الحق ومظاهره، وغايته النفس والغرور ونتيجته التمرّد والطغيان. وعزّة النفس مبدؤها التوكل على الله والاعتماد على الحق تعالى وغايتها الله وثمرتها ترك غيره.

٨٤ - ذكر الحق تعالى يصرف القلب عن المنازل والمناظر الطبيعية ويسقط جميع العالم ومن فيه من نظره، ولا يتعلق قلبه بأحد غير الحق تعالى، ولا يفرح قلبه بشيء.

٨٥ - إنّ معرفة الله تأتي من خلال حب الله. وهذا الحب إذا كمل يجعل الإنسان منقطعاً عن نفسه. فإذا انقطع عن نفسه ينقطع عن جميع العوالم، ولا يطمع في نفسه وفي الآخرين، ويكون طاهراً من رجس الشيطان ورجس الطبيعة، ويطل نور الأزل في باطن قلبه، ويسري من الباطن إلى الظاهر، ويكون قوله وفعله نورانياً، وجميع قواه وأعضاؤه إلهية ونورانية.

٨٦ - إذا وجدت التواضع فيك والتذلّل، فاشكر الله تعالى واسْعَ في زيادتهما ولا تغفل عن الحيل النفسانية، فإن النفس والشيطان بالمرصاد، وينتظران الفرصة ليصرفا الإنسان عن طريق الحق. ولا تغتر أبداً بكمالات النفس، فإن الغرور من الشيطان. فكن سيّئ الظن بنفسك دائماً. وكن حذراً وخائفاً من سوء العاقبة.

٨٧ - أيّها العزيز، قم من نومك الثقيل، وعالج هذه الأمراض المختلفة بالقرآن والحديث، وتمسك بحبل الله المتين وذيل أولياء الله، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ترك هاتين النعمتين العظيمتين لنا، لننجو من ظلمات الطبيعة بواسطة التمسك بهما ونتخلص من هذه الأغلال، ونتصف بسيرة الأنبياء والأولياء.

٨٨- إن صلاةً هي معراج المؤمن ومقربة المتقين لا بد من أن تقطع علائق الدنيا عن القلب وتفك عنه أغلال الطبيعة وتجعله إلهياً وربانياً.

٨٩ - إنّ السجود على التراب خمسين سنة لا بد من أن يوجد في الإنسان روح التواضع والتذلل لو لم يكن تصرف الشيطان في الوسط.

٩٠ - إذا لم يعمل العالم بوظيفة العلم، وهي الأخلاق الحسنة، فسيسقط الدين والعلم من أعين الناس، وتتزلزل عقيدتهم وتنصرف قلوبهم حتى عن العارفين بالله تعالى، وهذه من أوجع الضربات على جسد الدين والحقيقة الصادرة عن العلماء غير العارفين بوظيفتهم، وقلّما يكون شيء أكثر تأثيراً منها.

إنّ خُلُقاً سيئاً من عالم، أو عملاً مخالفاً من طالب، يؤثر في فساد أخلاق الناس وأعمالهم تأثيراً لا يماثله فيه شيء آخر. فلا بد لهم من أن يواظبوا على مراقبة أنفسهم حيث إنهم يأخذون على عاتقهم إسعاد الناس، بالإضافة إلى إسعاد أنفسهم. ففسادهم وقبحهم يختلفان عن فساد الآخرين وقبحهم، والحجّة عليهم أتمّ.

٩١ - إذا أعمل الإنسان الوقار والسكينة والطمأنينة في الأعمال الظاهرية، ولو بالتكلف والتصنّع، فتسحلّ بالتدريج في باطن الروح هذه الملكة الشريفة، أي الطمأنينة والتثبّت، التي هي مبدأ الكثير من الخيرات والكمالات.

٩٢ - إنّ قلباً شعّ فيه نور التوحيد ومعرفة كمال المطلق يكون ذا طمأنينة وثبات وتأنٍ وقرار. وإن قلباً أصبح نورانياً بمعرفة الحق جلّ وعلا يرى مجاري الأمور بقدرته تعالى، ويرى نفسه وجدّه وحركته وسكونه وجميع الموجودات منه، ولا يرى زمام أمر الموجودات بيدها.

إن قلباً محتجباً عن المعرفة، وداخلاً في حجب الإعجاب بالنفس وحجب الشهوات واللذات الحيوانية، يخاف من فوت هذه اللذات، وشخص كهذا يفقد طمأنينة القلب ويقدم على الأمور بعجلة وتسرّع.

٩٣ - إنّ نظر أولياء الله إلى الدعاء انقطاع إلى الحق تعالى، فلا يجعلونه ولا يجعلون مناجاته والخلوة معه وسيلة لعبادة النفس وحبها، بل كل ما يطلبونه وسيلة لفتح باب مناجاة الحبيب.

٩٤ - نحن أسرى النفس والشهوة ونريد الله لثمرات الدنيا، ونفدي اللذات النفسانية بالحبيب المطلق، وهذا من أعظم الخطايا، إذ لو كان لقلوبنا حظ من المعرفة، وحصل فيها تجلٍّ للمحبة فسنموت حتماً من الخجل، وننكّس رؤوسنا حياءً إلى يوم القيامة. فأولئك إذا طلبوا شيئاً فإنما يطلبونه لأنه عطاء الحبيب.

٩٥ - إنّ نار الله كما تحرق الجسم بظاهره وباطنه كذلك تحرق الروح والقلب، ونار كهذه غير متصورة في هذا العالم.

٩٦ - الإنسان العاقل لا بد من أنْ يقيس مقدار عيشه في الدنيا وحاجته فيها مع مقدار عيشه في الآخرة وحاجته فيها، ثم يجدّ في تقصّي وسائل المعيشة في هذه الحياة وتلك، ولينظر كم يحتاج لو عاش مائة عام فرضاً، وكم يحتاج لعيشه الأبدي الذي لا نهاية له. ثم لينظر كمْ سيواجه في ذلك العالم من الحسرات والندامات ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (العصر: ٢١). إذاً قسماً بالله! لو اطلع الإنسان على مقدار خسارته اطلاعاً حقيقياً لسلب منه الهدوء والراحة، حيث يرى أن كل ما في يده من رأس مال السعادة قد خرج من يده، بل أكثر من ذلك إذ صرفه في تحصيل الشقاء فتهيّأ لنفسه جهنم ونارها، بعرق الجبين وكدّ اليمين.

٩٧ - لا بدّ لنا إذاً، نحن المرضى والضالين، من أن نطبّق وصفة السير الملكوتي ولأمراضنا القلبية الصادرة عن هداة طريق الهداية وأطباء النفوس والأرواح وبدون أن نُعمِل أفكارنا الناقصة وآراءنا الضعيفة لنصل إلى المقصد، وهو الوصول إلى سرائر التوحيد.

٩٨ - إذا سلّمت الروح تسلم جميع ممالك الوجود، ثم تسلم جميع الأعضاء الظاهرة والقوى الملكية أيضاً. وتسليمها أن لا يكون لها أو لأنانيّتها حركة أو سكون ويكون قبضها وبسطها خاضعين لإرادة الحق تعالى ويحصل فيها نموذج قرب النوافل «كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به...» إلخ.

٩٩- اعلم أنّ الإنسان مفطور على حب الكمال والجمال وحب الله والتوجّه إليه. فكل ما يرِد عليه فهو من الله، وإن كان حسب الطبيعة غير ملائم له، فيجب عليه أن لا يظهر الجزع، ويعتبر الجزع ممّا يرد من الحق تعالى عيباً.

١٠٠ - من أعظم الكمالات الإنسانية تجاوز الإنسان عن الأشخاص

الذين أساؤوا إليه. وصفة العفو من الصفات الجمالية للحق تعالى، والاتصاف بها تشبُّه بالمبادئ العالية[١].

من أقوال الإمام الخميني (قدس سره) في تزكية النفس:

١ - صوموا أيام الاثنين والخميس قدر الإمكان.

٢ - أدوا الصلوات الخمس في أوقاتها وأقيموا صلاة الليل.

٣ - قللوا من أوقات النوم وأقرؤوا القرآن كثيرا.

٤ - أوفوا بعهودكم ومواثيقكم.

٥ - انظروا إلى الفقراء ماديا وإلى أولياء الله معنويا.

٦ - اجتنبوا مواضع التهم.

٧ - ألبسوا أبسط الملابس.

٨ - لا تتكلموا كثيرا وعليكم بالدعاء وخاصة دعاء الثلاثاء.

٩ - تعلموا العلوم التكنولوجية التي يحتاجها كل قطر إسلامي.

١٠ - انسوا حسناتكم وتذكروا سيئاتكم.

١١ - مارسوا الرياضة(المشي على الأقدام وتسلق الجبال).

١٢ - لا تشتركوا في مجالس الزينة المليئة بصرف المبالغ الطائلة ولا تقيموا مثلها.

١٣ - أكثروا من قراءة الكتب الدينية والاجتماعية والسياسية والفلسفية والخطابة والكلام.

١٤ - كونوا على علم بأحداث اليوم وعلى بينه من أمور المسلمين (اطلعوا على الأخبار اليومية والأخبار المرتبطة بأمور المسلمين).

---

(١) هذه الكلمات المختارة من كتابي (الأربعون حديثاً) و (جنود العقل والجهل).

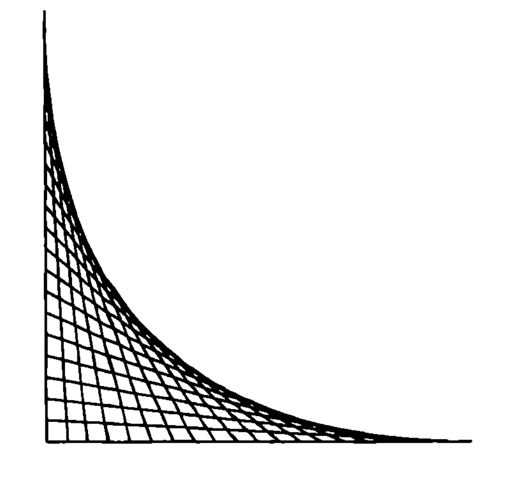
المبحث الرابع:

كيفية السلوك إلى الله

تنوع الطّرق لأرباب السّير والسّلوك

المرحلة الاولى في السير الى الله

(التوبة، وجوبها وحقيقتها)



ما هي كيفية السلوك الى الله عز وجل؟

لا بُدَّ وأن نعرف أولاً بأن معنى « السُّلُوك » من حيث اللغة هو الدخول، وقد وَرَدَ ذكر السلوك بهذا المعنى في القرآن الكريم في مواضع عديدة منها قول الله عزَّ وجل: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[١]، أي أدْخِل يدك، ومنها أيضا قوله الله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾[٢]، أي ما أدخلكم في نار جهنم.

ثم أننا لا بد وأن نعرف بأن السلوك إلى الله - على حد التعبير المصطلح - إنما يكون بإتخاذ النهج الإلهي طريقاً للوصول الى مرضاة الله والتقرُّب إليه، وهو ما لا يحصل إلا بالطاعة المطلقة لله عَزَّ وجَلَّ من خلال الإمتثال لأوامر الله وإجتناب نواهيه.

إذن فالسلوك والسير إلى الله - حسب المصطلح في العرفان الإسلامي الصحيح - ليس إلاَّ ما أشرنا إليه، لا كما يتوهمه بعض الناس بأنه مجموعة أوراد وأذكار يرددها الإنسان فيتوصل من خلالها إلى مقام القُرب الإلهي.

لكن ينبغي التنبيه على أن الأذكار والأدعية المأثورة تُعَدُّ من العوامل المؤثرة في إيجاد حالة التَّذكر والتوجه إلى الله بشرط أن لا يتعامل الإنسان معها

---

(١) القران الكريم: سورة القصص (٢٨)، الآية: ٣٢.

(٢) القران الكريم: سورة المدثر (٤٧)، الآيات: ٤٠- ٤٢.

كمجرد ألفاظ ونصوص سِحريَّة يتلفظها حتى تتحقق أمانيه دون أن يعرف القصد من إنشاء تلك النصوص أو أن يتعرَّف على معانيها السامية، بل لا بد وأن يكون تعامله مع تلك الألفاظ تعاملاً واعياً معبراً عن الإيمان القلبي والإلتزام العملي لدى الفرد المسلم.

من أين نبدأ؟

يُعتبر الورع عن محارم الله والإلتزام بأوامره هو المسلك الأول الذي يجب أن يبدأ الإنسان بدخوله، فبدون الورع يَقِلُّ تأثير عمل الإنسان بل ينعدم في بعض الأوقات، ذلك لأن الورع والتقوى هما الملاك والمقياس لتقييم العمل، قال الله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[١].

و رُوِي عَنْ الإمام أمير المؤمنين عَلِيٍّ (عليه السلام) أنه قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) خَطَبَنَا ذَاتَ يَوْم فَقَالَ: « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْكُمْ شَهْرُ اللَّهِ بِالْبَرَكَةِ وَ الرَّحْمَةِ وَ الْمَغْفِرَةِ[٢]... قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام) فَقُمْتُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ فِي هَذَا الشَّهْرِ؟ فَقَالَ: « يَا أَبَا الْحَسَنِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْوَرَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ »[٣].

فمن أراد سلوك طريقٍ قصيرٍ ومضمونٍ يؤدي إلى مرضاة الله فما عليه إلا ترك المحرمات وأداء الواجبات التي حدَّدَتها الشريعة الإسلامية، وهو أمر سهل وهيِّن، وصعب وعسير في وقت واحد، سهل لمن يتمتع بإرادة قوية وعزم قوي ونية صادقة، وصعب بل مستحيل لمن أراد الجمع بين مرضاة الله والسير وراء

---

(١) القران الكريم: سورة المائدة (٥)، الآية: ٢٧.
(٢) الخطبة طويلة إقتطفنا محل الشاهد منها.
(٣) وسائل الشيعة (تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة): ١٠/ ٣١٣، للشيخ محمد بن الحسن بن علي، المعروف بالحُر العاملي، المولود سنة: ١٠٣٣ هجرية بجبل عامل لبنان، والمتوفى سنة ١١٠٤ هجرية بمشهد الإمام الرضا (عليه السَّلام) والمدفون بها، طبعة: مؤسسة آل البيت، سنة: ١٤٠٩ هجرية، قم/إيران.

الأهواء والشهوات. فقد رُويَ عَن النبي عيسى بن مريم (عليه السَّلام) أنه قالَ: « النومُ على الحصيرِ وأكلُ خُبْزِ الشَّعيرِ في طلبِ الفردوسِ يَسير »[١].

تنوع الطّرق لأرباب السّير والسّلوك:

من الجدير بالذكر، أنّ أرباب السّير والسّلوك، والعلماء الذين سلكوا هذا الطريق، وإتخذوا من القرآن الكريم والسّنة الشّريفة دليلاً لهم، (لا الصّوفيين الذين تأثروا بالمذاهب غير الإسلاميّة الأجنبيّة)، فكلّ واحد من أُولئك الأفاضل إقتَرح طريقةً تختص به، أو بتعبير أدق، إتّخذوا منازل ومراحل، سنأتي بها بصورة ملخّصة، حتّى يكتمل البحث، ويكون أكثر فائدة:

١- السّير والسّلوك المنسوب «للسيد بحر العلوم»:

هناك كتاب منسوب للعلاّمة الفقيه العالم: «السيد بحر العلوم»، ورغم أنّ بعض أبحاثه لا يمكن القول بصدورها منه، إلاّ أنّ بعض أقسامه والحقّ يقال، في غاية الأهميّة، فقد ذكر السّيد في هذا الكتاب أربعة عوالم ومنازل، مهمّة للسّير والسّلوك إلى الله تعالى، والقرب منه، وهي:

١- الإسلام.
٢- الإيمان.
٣- الهجرة.
٤- الجهاد.

وكلّ واحد من هذه العوالم الأربعة، ذكر له ثلاث مراحل، فيصبح المجموع إثني عشرةَ مرحلةً، وبعد تجاوز هذه المراحل الإثني عشر، يصل السّالك إلى الله، وإلى عالم الخُلوص والفناء، والمراحل أو المنازل الإثني عشر هي:

المنزل الأول: الإسلام الأصغر، والقصد منه هو إظهار الشّهادتين والتّصديق بهما في الظّاهر، وأداء الوظائف الدينيّة.

المنزل الثاني: الإيمان الأصغر، وهو عبارة عن التّصديق القلبي

---

(١) مجموعة ورَّام: ٢/ ٢٣٠، لورَّام بن أبي فارس، المتوفى سنة: ٦٠٥ هجرية بالحلة/ العراق، طبعة الأوفست عن طبعة دار صعب ودار التعارف، بيروت / لبنان، سنة: ١٣٧٦ هجرية.

والإعتقاد الباطني بكل المعارف الإسلاميّة.

المنزل الثالث: الإسلام الأكبر، وهو عبارةٌ عن التّسليم في مقابل كلّ حقائق الإسلام، والأوامر والنّواهي الإلهيّة.

المنزل الرابع: الإيمان الأكبر، وهو عبارةٌ عن روح ومعنى الإسلام الأكبر، والّذي ينتقل من مرتبة الطاعة، إلى مرتبة الشّوق والرّضا والرّغبة.

المنزل الخامس: الهجرة الصّغرى، وهي الإنتقال من «دار الكفر»، إلى «دار الإسلام»، وهي شبيهةٌ بهجرة المسلمين، من مكّة التي كانت مقرّ للكفار إلى المدينة.

المنزل السّادس: الهجرة الكبرى، وهي الهجرة والإبتعاد عن أهل الذنوب والعصيان، وعدم الجلوس مع الظّالمين والملّوثين.

المنزل السابع: الجهاد الأكبر، وهو عبارةٌ عن محاربة جنود الشّيطان، بالإستمداد من جنود الرّحمان، وهي جنود العقل.

المنزل الثامن: منزل الفتح والظّفر على جنود الشيطان، والتّحرر من سلطتهم، والخروج من عالم الجهل والطّبيعة.

المنزل التاسع: الإسلام الأعظم، وهو عبارةٌ عن الغلبة على جنود الشّهوة والآمال البعيدة، فتنتصر العوامل الموقظة الخارجية، على العوامل الإنحرافيّة الداخليّة، وهنا يكون القلب، مركزاً للأنوار الإلهيّة، والإضافات الرّبانيّة.

المنزل العاشر: الإيمان الأعظم، وهو الفناء في الله تعالى، ومرحلة الدّخول في عالم: ﴿فادخُلِي فِي عِبادِي وادخُلِي جَنَّتِي﴾، وعندها تظهر حقيقة العبوديّة لله تعالى في واقع النّفس.

المنزل الحادي عشر: الهجرة العظمى، وهي هجرة الذّات ونسيانها، والسّفر إلى عالم الوجود المطلق، والتّوجه

الكامل للذّات المقدّسة للباري تعالى، وهي الّتي تدخل في جملة خطاب: ﴿وادخُلِي جَنَّتِي﴾.

المنزل الثّاني عشر: الجهاد الأعظم، فبعد هجرة الذّات، يتوسل بالله

تعالى أن يمحوكلّ آثار الأنا، ويضع القدم على بساط التّوحيد المطلق.

فبعد أن تُطوى هذه العوالم الإثنا عشر، يدخل في عالم الخُلوص، ويكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿بَل أحياءٌ عِندَ رَبِّهِم يُرزَقُونَ﴾[1].

كيفية السّير والسّلوك في هذه الطريقة:

في رسالة السّير والسّلوك المنسوبة للعلاّمة بحر العُلوم، وبعد ذكره للعوالم والمنازل المذكورة آنفاً، يتطرق إلى كيفية السّير في هذا الطريق الصعب، والمليء بالمفاخر، ويذكر (٢٥) أمراً للوصول إلى المقاصد العليا، ونذكرها بشكل مختصر:

فالسّالك إلى الله تعالى، والمريد للقرب منه، لأجل الوصول إلى هذه العوالم، وبعد إطّلاعه الكامل على أُصول الدين وفروعه، وأحكامه الإسلامية من الطُرق المعتبرة، يشدُّ الرحال ويأخذ طريقه في عملية السّلوك، من خلال الإلتزام بالمراحل الـ (٢٥)، ليصل إلى المقصود:

أولاً: ترك الآداب والرّسوم والعادات التي تقف عقبةً في الطريق، وتغرقه في بحر الآثام.

ثانياً: العزم القاطع للسّير في هذا الطّريق، فلا يخاف شيئاً، ولايتردّد، وليعتمد على لُطف الله تعالى.

ثالثاً: الرّفق ومُداراة النّفس، فلا يحمّلها أكثر من طاقتها، كي لا تنفر ولا تنطفيء جذوتها، ولئلاّ تنقطع عن المسير.

رابعاً: الوفاء، وهو الوفاء بالبقاء على العهد في التّوبة، وتركه للذّنوب وَ عدم العودة إليها، وليكون وفيّاً مع أُستاذه أيضاً.

خامساً: الثّبات والدّوام، يعني الدّوام على ما إختاره من برامج لنفسه، حتى تُصبح عادةً عنده، وليغلق طريق العودة على نفسه.

---

(١) للإطّلاع، يرجى مراجعة: رسالة السّير والسّلوك للمرحوم السيّد بحر العلوم قدس سره، وفيه تفاوت وإختلاف بينه وبين رسالة العلاّمة الطباطبائي، لبّ اللّباب، وهنا في الواقع تلفيق من الإثنين.

سادساً: المُراقبة، وهي عبارة عن الإنتباه لنفسه في كل الأُمور والأحوال، ولِئّلا تصدر منه المخالفة.

سابعاً: المحاسبة، كما جاء في حديث: «لَيسَ مِنّا مَنْ لَم يُحاسِبْ نَفسَهُ كُلَّ يَوم»[١].

ثامناً: المؤآخذة، حيث يوآخذ نفسه في كلّ خطأ يصدر منه ويعاقبها.

تاسعاً: المسارعة، يعني يعمل بمقتضى أمر: ﴿سَارِعُوا إِلى مَغْفِرَة مِنْ رَبّكُم﴾[٢].

الوارد في القرآن الكريم، فيُسارع في كلّ خير، لئلاّ يسبقه الشّيطان ويوسوس له في تركه.

عاشراً: خُلوص الباطن، وهو تطهير الباطن، بحيث لا يكون أدنى غش في قلبه، والحب التام لرسول الله صلى الله عليه واله وسلم صاحب الشّريعة، والأوصياء المعصومين عليهم السلام.

الحادي عشر: الأدب، حفظ حُرمة الرّسول الأكرم صلى الله عليه واله وسلم، وأوصياءه المعصومين عليهم السلام، بحيث لا يلفظ بلفظ يدل على عدم الرّضا منهم، والإعتراض عليهم عليهم السلام، وحفظ حرمة الأكابر، ولبيان حاجته في الدّعاء لا يستعمل ألفاظاً تدل على الأمر والنّهي.

الثاني عشر: النيّة، وتعني إخلاص القصد في هذا المسير والحركة، وجميع الأعمال لله تعالى.

الثالث عشر: الصّمت، ويعني الإكتفاء بالمقدار اللاّزم من الكلام.

الرابع عشر: الجوع وقلّة الأكل، وهو من الشّروط المهمّة لسلوك هذا الطريق، ولكن ليس للحدّ الذي يبعث على الضّعف وعدم القدرة.

الخامس عشر: الخلوة، وهي عبارةٌ عن العزلة عن أهل العصيان، وطلاّب الدنيا وأصحاب العقول الناقصة، والتّوجه الخالص لله عند العبادة والذّكر، والإبتعاد عن الضّوضاء وعناصر التّشويش الذهني.

---

(١) إرشاد القلوب للديلمي، باب ٩٣.
(٢) آل عمران: ١٣٣.

السادس عشر: السّهر، وخصوصاً في الثّلث الأخير من الليل، الذي أكدّت عليه الآيات والرّوايات.

السابع عشر: الدّوام على الطّهارة، وهو أن يكون على وضوء دائماً، حيث ينوّر الباطن بأنوار خاصّة.

الثامن عشر: التّضرع لله تعالى، والتحرك على مستوى اظهار الخضوع له، أكثر وأكثر.

التاسع عشر: عدم إعطاء النفس ما تريد وإن كان مُباحاً، بالقدر الذي يستطيع.

العشرون: كتمان السّر، وهو من أهم الشّروط، وهو ما يؤكد عليه أساتذة هذا الأمر، حتى لا يجرّ الإنسان للرياء والتّظاهر، وإذا ما حصلت له المكاشفة، يجب أن لا يخبر أحد لئلاّ يُصاب بالعجب.

الواحد والعشرون: يجب الإلتزام في عمليّة السّلوك المعنوي بأُستاذ، سواء كان الأستاذ عامّاً للسّير والسّلوك أو خاصّاً، وهو رسول الله صلى الله عليه واله وسلم والأئمّة المعصومين عليهم السلام.

ويجب على السّالك الإنتباه إلى أنّ هذه المرحلة، هي مرحلةٌ دقيقةٌ جداً، حتى لا يختبر أحداً ولا يطّلع على صلاحيّته العلميّة والدينية، ولا يعمتد على إرشاداته بصورة كليّة، لأنّه يوجد بعض الشياطين يتلبّسون بلباس الأساتذة، وذئاب تلبس ثوب الرّاعي، فتحرف السّالك عن الجادّة.

ويقول المرحوم العلاّمة الطباطبائي في هذا المجال: إنّ الإطّلاع على العلوم والأسرار الغريبة، وما وراء الطّبيعة وأسرار الإنسان، والمشي على الماء والنار والإخبار بالمغيّبات، كلّها لا تؤكد أنّ ذلك الإنسان قد وصل إلى مرحلة الكمال، لأنّ كلّ تلك الأُمور تحصل في مرتبة المكاشفة الرّوحيّة، والطّريق طويل حتّى الوصول إلى الكمال.

الثاني والعشرون: «الأوراد»، وهي عبارةٌ عن الأذكار التي تفتح للسّالك الطّريق والمرور من المطّبات الصّعبة، وتعينه في المسير إلى الله تعالى.

الثالث والعشرون: نفي الخواطر، وهو تسخير القلب، والحكومة عليه والتّمركز الفكري، بحيث لا يمر من خاطره شيء، إلاّ بإختياره وإذنه، أو بتعبير

آخر، لا يشغل تفكيره الأفكار المُشوّشة، وهو من الأُمور الصّعبة.

الرابع والعشرون: التّفكر، والقصد منه أنّ السّالك يسعى من خلال التّفكير الصحيح، والعميق، في إكتساب المعرفة الحقّة، ويحصر تفكيره في عالم الصّفات، والأسماء الإلهيّة وتجلّياته وأفعاله.

الخامس والعشرون: الذِكر، والمراد منه التّوجه القلبي للذّات المقدّسة للباري تعالى، وليس الذّكر اللّساني الذي يسمّى بالوِرد، أو بعبارة أُخرى، يكون كلّ نظره جمال الإله، ولا يرى شيئاً غيره.

هذه هي خلاصة، ما نسب للعلاّمة بحر العلوم في دائرة السّير والسّلوك، وتبعه في ذلك مع إختلاف يسير، العلاّمة الطّباطبائي، وذلك كما جاء في رسالته «لبّ اللباب».

ثانياً: طريقة المرحوم الملكي التّبريزي:

وهو المرحوم «الحاج ميرزا جواد الآقا تبريزي»، وهو من الاساتذة المعروفين في السّير والسّلوك إلى الله، وقد إنتهج في رسالته (لقاء الله)، نهجاً يختلف عمّا جاء به في الرّسالة المنسوبة للعلاّمة بحر العلوم.

فهو يُذكر في البداية، أنّ لقاء الله هو الغاية القصوى، والهدف الأعلى، للسّير والسّلوك، ويستشهد لذلك بآيات متعدّدة من القرآن الكريم، وكذلك بالروايات الكثيرة لُمدّعاه، ويصرّح بأنّ لقاء الله تعالى ليس هو المشاهدة العينية، لأنّ الباري تعالى منزّه عن الكيفيات التي توجب رؤيته بالبصر، ولا هو لقاء النّعيم والثّواب في يوم القيامة، بل هو نوع من «الشّهود»، واللّقاء القلبي والروحي والمشاهدة بالبصيرة.

وبعدها يقترح برنامجاً للسّير في هذا الطريق الطويل، والمحفوف بالمخاطر.

ويتلخص في عدّة أُمور:

١- العزم والنيّة لسلوك هذا الطريق.

٢- التّوبة النّصوح من الأعمال السّالفة، وهي التّوبة التي تنفذ في أعماق الوجدان والوعي، في واقع النفس، وتعمل على تغييره، وغسل آثار الذّنوب وأدران الخطايا من جسمه وورحه.

٣- حمل الزّاد للطريق.

وذكرَ له عدّة برامج:

أ- صباحاً، المشارطة: (يشرط على نفسه أن لا يمضي إلاّ في طريق الحق)، وفي النّهار المراقبة: (الإنتباه لئلاّ يحيد عن الطريق)، ومساءاً المحاسبة: (لنفسه على ما فعله في النّهار).

ب- التّوجه للأوراد والأذكار، ووظائف اليقظة والمنام.

ج- التّوجه لصلاة اللّيل، والخَلوة بالله تعالى، وإحياء الليل وترويض النفس في حالات النوم والأكل، بحيث لا يتجاوز عن الحدّ الضروري.

٤- الإستفادة من سوط السّلوك، وهو عبارة عن مُؤاخذة النّفس وتوبيخها، لتوجُّهِها للدنيا وتقصيرها في طلب الحق، وعدم وفائها، وإطاعة الشّيطان في معصية الله تعالى، ويستغفر الله على كلّ ذلك ويعزم على السّعي في طريق الإخلاص والإيمان والصلاح.

٥- عند التّحول، وفي هذه المرحلة، وقبل كلّ شيء، يجب أن يفكّر في الموت، ليميت حبّ الدنيا في قلبه ويصلح الصّفات القبيحة عنده، وهو دواءٌ نافعٌ في هذا المجال، (وبعدها يفكر في عظمة الله وأسمائه وصفاته، ويذكر أولياء الحق، وليسعى بأن يُشابِهِهم في صفاتهم).

٦- عند القرب من منزل المقصود، يشير إلى أنّ الإنسان لديه ثلاثة عوالم:

١- عالم الحسّ والطّبيعة.

٢- عالم الخيال والمثال.

٣- عالم العقل والحقيقة.

فعالم الحسّ والطّبيعة كلّه ظلمات، وإذا لم يعبره فلن يستطيع الوصول لعالم المثال، وهو العالم الذي تكون فيه الحقائق لها صورٌ عاريةٌ عن المادّة.

وما دام يراوح في عالم المثال، فلن يستطيع الوصول إلى عالم العقل، الذي هو عالم الحقيقة والأصل للنفس الإنسانية، الذي لا صورة ولا مادة فيه، فإذا وصل لعالم العقل، وأدرك نفسه خاليةٌ عن المادة والصّورة، فسيصل إلى

معرفة الباري تعالى، ويكون مصداقاً لقوله: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَد عَرَفَ رَبَّهُ»[(١)(٢)].

طريقةٌ أُخرى:

في رسالة «لقاء الله» للعالم والمحقق الكبير، الآقا المصطفوي، أشار إلى برنامج آخر للسّير والسّلوك، في رسالته الجامعة والغنية، والمعتمدة على الآيات والأخبار، حيث أشار أولاً إلى الآيات المتعلّقة بلقاء الله، وبعدها شرع في تفسير معنى اللّقاء؛ أنّ المراد منه اللّقاء المعنوي والرّوحي، وأضاف أنّ الإنسان ولأجل وصوله للقاء الله تعالى في هذا السير المعنوي، عليه أن يكسر حدود المادة والمكان والزّمان، وكذلك الحدود الذّاتية لكلّ المُمكنات، ويفنى في عالم اللاّهوت، ويكون المخاطب لقوله تعالى: ﴿يا أَيَّتُها النَّفسُ المُطمَئِنَّةُ ارجَعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرضِيَّةً فادخُلِي فِي عِبادِي وادخُلي جَنَّتي﴾ (الفجر: ٣٠).

خمسة مراحل للوصول إلى المقصود الأكبر:

المرحلة الأُولى: التّحرك على مستوى تكميل وتقوية الإعتقادات، والتّوجه الخاص لأُصول الدّين.

المرحلة الثانية: التّوبة من الذنوب، والتّحرك من هذا الموقع للإتيان بالأعمال الصّالحة وأداء الواجبات.

المرحلة الثالثة: السّعي الجاد لتطهير النّفس من الرذائل، وتحليتها بالفضائل الأخلاقية.

المرحلة الرابعة: محو الأنانيّة، والفناء في مُقابل عظمة الحق.

وفي هذه المرحلة التي ينقطع الإنسان فيها عن التّعلقات المادية، من الأهل والأموال والأولاد واللّذات، تكون الشّهوات الماديّة والخياليّة قد تغيّرت وتبدّلت، إلى تعلّق وإرتباط روحي ومعنوي، والذي يبقى هو التّعلق بالذّات والنّفس، وهذا التعلّق متجذّر وقويّ لدرجة كبيرة جداً، ولشدّة ظهوره: خفي، وتبقى ملاحظةٌ واحدةٌ وهي، أنّ هدف السّالك في جميع هذه المراحل هو

---

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص ٣٢.
(٢) للتفصيل يرجى الرجوع إلى رسالة لقاء الله المرحوم التبريزي قدس سره.

الوصول إلى لقاء الله، وفي الواقع والباطن أنّ كلّ عمل يكون قد أدّاه هو له ولنفسه.

وبعبارة أُخرى: كان يُريد الوصول إلى المقامات العليا، والقُرب من الله تعالى، والحصول على الكمالات المعنوية والروحية، فكلّ ذلك كان بدافع النّفس والذّات، وليس لِلهدف الأصلي، ولذلك فهو عند وصوله لمثل هذا المقام يفرح غاية الفرح، ولكن إذا وصل غيره إلى هذا المقام، فسوف لن يكون فرحاً لهذا الحد، وهنا يجب أن تُحذف «الأنا» وتُنسى، ويكون المحبوب للسّالك هو تجلّي الله سبحانه، لا من خلال حبّ الذّات، أو بعبارة أوضح، يجب أن تُمحى «الأنا»، وهي الحِجاب الأكبر والمانعُ الأقوى، وآخر الحُجب للوصول إلى الله تعالى ولقائه.

ولإزالة هذا المانع، توجد عدّة طرق:

١- طريق التّوجه القلبي لله تعالى، والتّوحيد الذّاتي والصّفاتي والأفعالي، ومنه يفهم أنّ غيره لا شيء في مُقابله.

٢- التّفكر والإستدلال للوقوف بوجه «الأنانية» وحجاب النفس، بمعنى أن يرى أنّ الله تعالى غير محدود بحدٍّ، وهو الأزلي والحقّ المطلق، والنفس هي الموجود المحدود في كلّ شيء، وفي منتهى الضّعف والعجز والفقر والحاجة إلى الله تعالى، ومن دون المدد الإلهي فإنّها لا تستطيع الصّمود ولا لِلحظة واحدة.

٣- المعالجة بالأضداد، بمعنى أنّه كلّما أحسّ بوجود «الأنا» في وعيه، يعالج هذا الموقف بالتّوجه لله والصّالحين من عباده، لكي يعيش في الحضور الدّائم مع الباري تعالى.

المرحلة الخامسة: في هذه المرحلة يصبح السّالك إنساناً ملكوتياً، ويدخل في عالم الجبروت!. والقصد من الدخول في مرحلة الجبروت، هو أنّ الإنسان يصل إلى مرحلة من الصّفاء والإخلاص، يكون فيها مندّكاً في ذاتِ الله تعالى، وله نفوذٌ وسلطةٌ على الأُمور، فيتحرك في أداء وظائفه الإلهيّة، وإرشاد الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من موقع المسؤولية والإنضباط في خط الرّسالة، ويكون على بصيرة كاملة من أمره.

أو الأحرى، ينسى نفسه، ويكون على علم بكلّ المسائل والوظائف والأحكام والآداب الشرعية، وطرق السّير والسّلوك، ويكون تشخيصه لِلأمراض والأدوية دقيق جدّاً، كالطّبيب الحاذق الذي يعرف الدّاء والدّواء ويشخصه جيّداً[١].

السلوك الى الله:

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[٢].

تصرح الايات الكثيرة كالتي صدّرنا بها الدرس على أن الإنسان مطلوب منه في هذه الحياة أن يسلك الطريق والسبيل الموصل إلى اللّه أو كما يعبر إمامنا الخميني رحمه الله على الإنسان أن يبدأ ويسعى في حركة الهجرة من بئر الدنيا إلى اللّه فيقول: «. . . هناك أشخاص تحركوا وخرجوا من هذه البئر وهاجروا ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[٣]، أحد الاحتمالات هو أن هذه الهجرة هي من النفس إلى اللّه و»البيت» هناهو نفس الإنسان، فهناك طائفة خرجوا وهاجروا عن هذا البيت الظلماني: «مهاجراً إلى اللّه ورسوله» إلى أن وصلوا إلى منزل أدركه الموت وصلوا مرتبة لم يعد لهم فيها شيء من أنفسهم موت مطلق وعندها »وقع أجرهم على اللّه» فهنا أجر اخر ما هو الجنة ولا اشكال النعيم الأخرى هنا »اللّه» فقط»[٤].

فالمطلوب من الإنسان أن يهاجر إلى اللّه ولكن هذه الهجرة وهذا السفر له خطة وموازين حتى لا نكون من «الذين ضل سعيهم في الحياة الدني» وحتى لا نتبع السبل فتفرق بنا عن سبيله ونحن إضافة إلى ذلك نحتاج إلى دليل فالسلوك إلى اللّه صحيح أنه أمر فطري.

كما يقول الإمام الخميني رحمه الله: «لا يخفى على كل ذي وجدان أن الإنسان بفطرته الأصيلة وجبلته الذاتية بعشق الكمال التام المطلق ويتوجه قلبه

---

(١) للإطّلاع، يرجى الرجوع إلى كتاب: «لقاء الله»، للعلاّمة الكبير المُصطفوي.
(٢) سورة الانشقاق، الاية ٦.
(٣) سورة النساء، الاية ١٠٠.
(٤) الإمام الخميني تفسير اية البسملة ص ٤٣ و٤٤.

شطر الجميل على الإطلاق والكامل من جميع الوجوه وهذا من فطرة اللّه التي فطر الناس عليها وبهذا الحب للكمال تتوفر إرادة الملك والملكوت وتتحقق أسباب وصول عشاق الجمال المطلق إلى معشوقهم غير أن كل امرىء يرى الكمال في شيء ما حسب ماله ومقامه فيتوجه قلبه إليه فأهل الاخرة يرون الكمال في مقامات الاخرة ودرجاتها فقلوبهم متوجهة إليها وأهل اللّه يرون الكمال في جمال الحق، والجمال في اله سبحانه يقولون: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا﴾.

لكن لما كان الكثيرون يضلون أو يضللون فيتوهم الإنسان ما ليس بطريق موحل إلى الهدف طريقاً وما ليس بدليل دليلاً وما ليس بوسيلة وسيلة فيتبع التوهمات والمشعوذين ومدعي القداسة وقد حذر تعالى من ذلك »ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله».

سنتحدث عن موازين عملية السلوك دون ترتيبها بحسب الأولويات:

١- التمسك بظاهر الشريعة:

قد يتوهم بعض الناس أنهم إذا قطعوا شوطاً ما في عالم السير والسلوك إلى اللّه عزّ وجلّ وأصلحوا شيئاً من قلوبهم أنهم انتهوا من مرحلة تهذيب الظاهر وعليه فإنهم لا يعودون مكلفين بما يكلف به الناس عادة ثم ينجرفون خلف هذه الدسائس والمكائد الشيطانية ويبتدعون طرقاً وأساليب أو يزين لهم من يظنونهم أهل السلوك هذه البدع والأباطيل وكم تكون خسارتهم عظيمة عندما يكتشفون بعد طول عذاب ومشقة أنهم واهمون... وأن الذي ظنوه سبيل اللّه لم يكن سوى سبيل الشيطان.

ولذا فإن على السالك أن يحذر من هذه الأفكار وهذه الأعمال وعليه أن يضبط سلوكه على وفق الشريعة الغراء ولا يحيد عنها فكل عمل يعرض عليه أن يبحث عن مشروعيته ولا يغالي في تقدير نفسه وتقديس مدعي القداسة وبالتالي فإن كل طريقة لا توافق الشريعة في ظاهرها وأحكامها بادعاء الوصول إلى الأسرار والاستغناء عن الوظائف العبادية من خلال الإكتفاء بمقام الباطن كما كان يفعله بعض أهل التصوف على مر العصور حتى في زمن الأئمة عليهم السلام فالبدء يكون من ظاهر الشريعة يقول الإمام الخميني رحمه الله: «إن طي

أي طريق في المعارف الإلهية لا يمكن إلا بالبدء بظاهر الشريعة، وما لم يتأدب الإنسان باداب الشريعة الحقة لا يحصل له شيء من حقيقة الأخلاق الحسنة كما لا يمكن أن يتجلى في قلبه نور المعرفة وتنكشف له العلوم الباطنية وأسرار الشريعة»[١].

ولكن كما يحتاج الإنسان في ابتداء سيره وسلوكه إلى التمسك بظاهر الشريعة والسير على ضوئها كذلك فهو يحتاج وينبغي له عدم مخالفتها طيلة سيره وسلوكه يقول الإمام الخميني رحمه الله: «. . . وبعد انكشاف الحقيقة وظهور أنوار المعارف في قلبه سيستمر أيضاً في تأدبه بالاداب الشرعية الظاهرية»[٢].

بل إن سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وهو الإنسان الذي مثّل في حياته أكمل نموذج للسالكين إلى اللّه وال البيت جميعاً لم يدعوا يوماً أنهم غير مكلفين بظاهر الشريعة بل كانوا يوبخون من يدعي غير ذلك وهل هناك أفضل من خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وعترته الذين مع ذلك لم يكن التأدب بظاهر الشريعة موضوعاً عنهم، ولذا يرد الإمام الصادق عليه السلام على من ظن أن الذي يعرف ال محمد يسقط التكليف عنه قائلاً: «والله ما أنصفونا أن نكون أخذنا بالعمل ووضع عنهم».

وعن ذلك يقول الإمام الخميني رحمه الله: «والإنسان الشرعي هو الذي ينظم سلوكه وفق ما يتطلبه الشرع، وأن يكون ظاهره كظاهر الرسول الأكرم صلى اللّه عليه واله وسلم وأن يقتدي بالنبي العظيم صلى اللّه عليه واله وسلم ويتأسى به في جميع حركاته وسكناته»[٣].

مرحلة الاولى في السير الى الله (التوبة):

يقول كثير من علماء الأخلاق، إنّ الخطوة الأُولى لتهذيب الأخلاق والسّير إلى الله، هي «التّوبة»، التّوبة التي تمحو الذّنوب من القلب وتبيّض صفحته وتجعله يتحرك في دائرة النور، وتنقله من دائرة الظّلمة، وتخفف ثقل

---

(١) الأربعون حديثاً، ص ٢٥.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.

الذّنوب من خزينته النّفساني، ورصيده الباطني، وتمهّد الطّريق للسّير والسّلوك إلى الله تعالى، في خط الإيمان وتهذيب النّفس.

يقول المرحوم »الفيض الكاشاني»، في بداية الجزء السابع من كتابه: «المحجّة البيضاء»، الذي هو في الواقع، بداية الأبحاث الأخلاقيّة:

(فإنّ التّوبة من الذنوب، والرّجوع إلى ستار العُيوب وعلاّم الغيوب، مبدأ طريق السّالكين، ورأس مال الفائزين، وأوّل إقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقرّبين!).

وبعدها يشير إلى حقيقة مهمّة، وهي أنّ أغلب بني آدم يتورطون غالباً بالمعاصي، ويشير إلى معصية آدم: (التي هي في الواقع، من ترك الأولى)، وتوبته منها، ويقول: «وما أجدر بالأولاد الإقتداء بالآباء والأجداد، فلا غرو إن أذنب الآدمي وإجترم، فهي شنشنةٌ يعرفها من أخزم، ومن أشبه أباه، فما ظَلم، ولكنّ الأب إذا جبر بعد كسر، وعمّر بعد أن هدم، فليكن النزوع إليه في كلا طرفي، النّفي والإثبات والوجود والعدم، ولقد قلع آدم سنّ النّدم، وتندّم على ما سبق منه وتقدّم، فمن إتّخذه قدوةً في الذنب دون التّوبة فقد زلّت به القدم، بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقرّبين، والتجرُّد للشرّ دون التّلافي، سجيّة الشّياطين، والرّجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشرّ ضرورة الآدميين، فالمتجرّد للخير ملك مقرّب، عند الملك الدّيان، والمتجرّد للشرّ شيطان، والمتلافي للشرّ بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان. والمصرّ على الطّغيان، مسجّل على نفسه بنسب الشّيطان، فأمّا تصحيح النّسب بالتجرّد لمحض الخير إلى الملائكة، فخارج عن حيّز الإمكان، فإنّ الشرّ معجون مع الخير، في طينة آدم، عجناً محكماً لا يخلّصه إلاّ إلى إحدى النارين: نار الندم أو نار جهنم»[١]

أو بعبارة أُخرى: إنّ الإنسان غالباً ما يُخطيء، وخصوصاً في بداية سيره إلى الله تعالى، فإذا ما وجد أنّ أبواب العودة موصدةٌ في وجهه، فسيورثه اليأس الكامل، ويبقى يُرواح في مكانه، ولذلك فإنّ التّوبة تعتبر من الأُصول المهمّة

(١) المحجّة البيضاء، ج٧، ص٦ و٧، مع التلخيص.

في الإسلام، فهي تدعو كلَّ المذنبين إلى العمل لإصلاح أنفسهم، والدّخول في دائرة الرّحمة الإلهيّة، والسّعي لجبران ما مضى.

وقد بيّن الإمام السّجاد عليه السلام، في مناجاته: «مناجاة التائبين» أفضل وأحلى صورة لها، فقال: «إِلَهي أَنْتَ الّذِي فَتَحْتَ لِعبادِكَ باباً إِلى عَفْوِكَ سَمَّيْتَهُ التَّوبَةَ فَقُلْتَ تُوبُوا إِلى اللهِ تَوبَةً نَصُوحاً، فَما عُذْرُ مِنْ أَغْفَلَ دُخُولَ البابِ بَعْدَ فَتْحِهِ»(١).

والجدير بالذكر أنّ الباري تعالى يحبّ التّائبين، لأنّ التّوبة تعتبر الخطوة الأُولى لكي يعيش الإنسان في أجواء السّعادة والحياة الكريمة وقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «إِنّ اللهَ تَعالى أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوبَةِ عَبْدِهِ، مِنْ رَجُل أَضَلَّ راحِلَتَهُ وَزادَهُ، فِي لَيلَة ظَلْماءَ فَوَجَدها»(٢).

فهذا الحديث مزج بكنايات خاصة وعبارات جذابة، ليبيّن أنّ التّوبة في الواقع، الزّاد والرّاحلة لعبور الإنسان من وادي الظّلمات، ليصل إلى معدن النّور والرّحمة، ويعيش حالات الكرامة في الصفات الإنسانيّة.

إنّ ما يطرح في مبحث التّوبة أُمورٌ عديدةٌ، أهمّها هي:

١- حقيقة التّوبة.

٢- وجوب التّوبة.

حقيقة التّوبة:

«التوبة» في الأصل: هي الرجوع عن الذّنب »هذا إذا ما نسبت للمذنبين»، ولكن الآيات القرآنية والرّوايات نسبتها إلى الباري تعالى، وعليه فيصبح معناها: الرجوع إلى الرّحمة الإلهيّة، تلك الرحمة التي سُلبت من الإنسان إثر إرتكابه للمعصية والذّنب، فبعد عودته لموقع العبودية والعبادة، تمتد إليه الرّحمة الإلهيّة من جديد، وبناءاً على ذلك فإنّ أحد أسماء الباري تعالى، هو (التواب).

---

(١) المناجاة الخمسة عشر للإمام السجاد عليه السلام، المناجاة الأُولى؛ بحار الأنوار، ج٩٤، ص ١٤٢.

(٢) أُصول الكافي، ج٢، باب التوبة، ص ٤٣٥، ح٨.

و«التّوبة» في الحقيقة: هي مشترك لفظي أو معنوي بين الله وعباده، (ولكن إذا ما نُسبت للعبد، تتعدى بكلمة «إلى»، وإذا ما نُسبت للباري تعالى، فهي تتعدى بكلمة «على»[١].

وورد في «المحجّة البيضاء»، عن حقيقة التّوبة فقال: «إعلم أنّ التّوبة عبارةٌ عن معنى ينتظم ويلتئم، من ثلاثة أُمور مرتّبة: علم وحال وفعل، فالعلم أوّل والحال ثان والفعل ثالث، أمّا العلم فهو معرفة عِظم ضرر الذنوب، وكونها حجاباً بين العبد وبين كلّ محبوب، فإذا عرفت ذلك معرفةً محقّقةً بيقين غالب على قلبه، ثار من هذه المعرفة، تألّمٌ للقلب بسبب فوات المحبوب، فإنّ القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألّم، فإن كان فواته بفعله تأسّف على الفعل المفوّت، فيسمّى تألّمه بسبب فعله المفوّت لمحبوبه ندماً، فإذا غلب هذا الألم على القلب وإستولى إنبعث من هذا الألم في القلب، حالةً أخرى تسمّى إرادةً وقصداً إلى فعل له تعلّق بالحال وبالماضي والإستقبال.

فثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب، نار الندم فيتألّم به القلب، حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أن صار محجوباً عن محبوبه»[٢].

وجوب التّوبة:

إتّفق علماء الإسلام على وجوب التّوبة، وكذلك فإنّ القرآن قد صرّح بها في الآية (٨) من سورة التّحريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَار﴾.

إنّ كلّ الأنبياء عندما يتقلدّون أعباء الرّسالة، فأوّل شيء يدعون إليه هو التّوبة، لأنّه بدون التّوبة وتنقية القلب، لا يوجد مكان للتّوحيد والفضائل في أجواء النّفس وواقع الإنسان.

فالنّبي هود عليه السلام، أوّل ما دعى قومه: إلى التّوبة والإستغفار، فقال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (هود: ٥٢).

وكذلك النّبي صالح عليه السلام، جعل التّوبة أساساً لعمله ودعوته، فقال

---

(١) تفسير الفخر الرازي وتفسير الصّافي، ذيل الآية ٣٧ من سورة البقرة.
(٢) المحجّة البيضاء، ج ٧، ص ٥.

تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (هود: ٦١).

ثم النّبيّ شعيب عليه السلام، الذي تحرك في دعوته من هذا المنطلق، فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود: ٩٠).

ودعمت الروايات ذلك الأمر، وأكّدت على وجوب التّوبة الفوريّة، ومنها:

١- وصية الإمام علي عليه السلام لإبنه الإمام الحسن عليه السلام: «وَإِنْ قَارَفْتَ سَيِّئَةً فَعَجِّلْ مَحوَها بِالتَّوبَةِ»[1].

طبعاً حاشا للإمام أن يقترف الذّنوب، ولكن قصد الإمام علي عليه السلام هنا، تنبيه الآخرين إلى هذا المعنى.

٢- قال الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله، لإبن مسعود: «يابنَ مَسْعُودَ لا تُقَدِّمِ الذَّنْبَ وَلا تُؤَخِرِ التَّوبَةَ، وَلَكِنْ قَدِّمِ التَّوبَةَ وَأَخِّرِ الذَّنْب»[2]

٣- وفي حديث آخر، قال الإمام علي عليه السلام: «مُسَوِّفُ نَفْسِهِ بِالتَّوبَةِ مِنْ هُجُومِ الأَجَلَ عَلَى أعْظَمِ الخَطَرِ»[3].

(١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٢٠٨.
(٢) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٠٤.
(٣) مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ١٣٠.

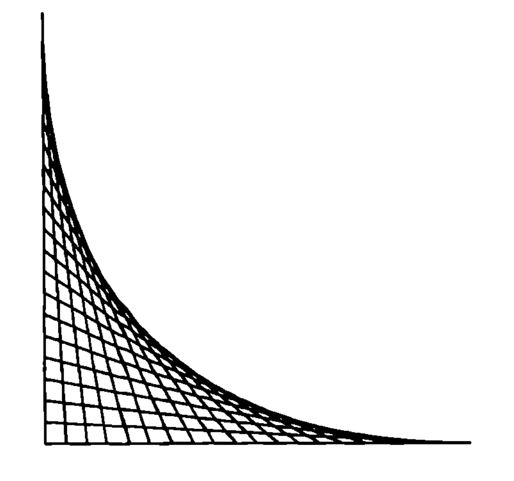
المبحث الخامس:

في الزهد

(الزهد في حقيقته، دَرجات وفوائد الزهد

زهد فاطمة الزهراء (سلام الله عليها

(والزهد في «نهج البلاغة»)



الــزهـــــد

الزُّهد في اللغة: الإعراض، والزهيد: الشيء القليل، فالأصلُ اللغوي واحد يدلُّ على قلَّة الشيء[1].

«فمعنى الزهد في الشيء: الإعراض عنه؛ لاستقلالِه واحتقارِه، وارْتفاع الهمَّة عنه»[2].

ولم ترد هذه المادة في القرآن الكريم إلاَّ في موضع واحد، في قوله - تعالى -: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].

وقدِ اتَّفق العلماء والحكماء على علوِّ مكانه، وشرَف مقامه؛ بَيْدَ أنهم اختلفوا في حقيقتِه الشرعيَّة اختلافًا كثيرًا، وتنوَّعت عباراتهم، وقد يصل هذا الاختلافُ إلى التغاير، وسأورد أشهرَ هذه التعريفات، ثم أعقِّب بما أراه راجحًا:

١- فقيل: الزهد ترْك الحلال مِن الدنيا، والإعراض عنها وعن شهواتها بترْك طلبها؛ فإنَّ طالب الشيءِ مع الشيء.

٢- وقال الفضيل بن عِياض: أصل الزُّهد الرِّضا عن الله - عزَّ وجلَّ - وقال: القنوع: هو الزاهدُ، وهو الغني.

٣- وقال الحسنُ البصريُّ: الزاهد الذي إذا رأى أحدًا قال: هو أفضل منِّي؛ أي: إنه يزهَد في مدح نفسه وتعظيمها.

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٣٠).

(٢) «جامع العلوم والحِكَم» لابن رجب (ص: ٢٧٣).

٤- وقيل: الزُّهد في الدنيا أن لا تأسَى على ما فات منها، ولا تفرح بما أتَاك منها، قال ابن السمَّاك: هذا هو الزاهدُ المبرّز في زهده.

٥- وقال مالك بن دينار: ترْكُ الدنيا لمن قدَر عليها.

٦- وقال مالك بن أنس: هو طِيب الكسب، وقِصَر الأمل.

٧- وقيل: أخْذ قدْرِ الضرورة مِن الحلال المتيقَّن الحِل، فهو أخصُّ من الورع؛ إذ هو ترْك المشتبه، وهذا زهدُ العارفين، وأعلى منه زهدُ المقرَّبين، وهو الزهدُ فيما سوى الله تعالى من دُنيا وجَنَّة وغيرهما؛ إذ ليس لهذا الزاهد مقصدٌ إلا الوصول إليه تعالى والقُرْب منه، وفي هذا التعريف مسحةُ تصوُّف.

٨- وقال سفيان بن عُيينة: الزهدُ الشُّكر عندَ السرَّاء، والصبر عندَ الضرَّاء.

٩- وقال سفيانُ الثوريُّ: الزهد في الدنيا قِصر الأمل، ليس بأكْل الغليظ، ولا لبس العباء.

١٠ - وقال إبراهيمُ بن أدهم: الزُّهد ثلاثةُ أصناف: زُهد فرض، وهو الزُّهد في الحرام، وزهد فضْل، وهو الزُّهد في الحَلال، وزُهد سلامة، وهو الزُّهد في الشُّبهات(١).

يرَى أنَّ الزهد في حقيقته:

تعلُّق القلب بالله دون سواه، فلا تشغله الدنيا عن الآخِرة، ولا يهتمُّ لأمر الدنيا، سواء أقبلتْ إليه أم أدبرَتْ عنه، إذا أُعطي شكَر، وإذا مُنِع صبر.

هذا ما يُفهم مِن النصوص الشرعيَّة إذا جُمِع بعضها إلى بعض، كقول الحقِّ سبحانه: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢].

قال الطبريُّ - رحمه الله - في تفسيره الآيات بعدَ أن ساق - كعادته -

---

(١) ينظر في التعريفات: «جامع العلوم والحِكَم» (ص: ٢٧٤)، فما بعدها، و«كشَّاف اصطلاحات الفنون» (٢/ ٦١٠).

أقوالَ المفسِّرين: «والصواب مِن القول في ذلك عِندي أن يُقال: إنَّ الله - جلَّ ثناؤه - أخبر عن قومٍ من أهلِ الإيمان به وبرسوله، ممَّن حجَّ بَيته، يسألون ربَّهم الحسنةَ في الدنيا، والحسنةَ في الآخرة، وأن يَقيَهم عذاب النار، وقد تجمع «الحسنةُ» من الله - عزَّ وجلَّ - العافيةَ في الجسم والمعاش والرِّزق وغير ذلك، والعِلم والعبادة.

وأمَّا في الآخرة، فلا شكَّ أنَّها الجَّنة؛ لأنَّ مَن لم يَنلها يومئذٍ فقد حُرِم جميع الحسنات، وفارَق جميع مَعاني العافية»[(١)].

وفي ضوءِ تلك النصوص والمفاهيم، يُمكننا أن نختارَ هذا التعريف للزُّهد، فهو باختصار: «الأخْذ بما تيسَّر مِن متاع الدُّنيا الحَلال، والقناعة به، مع سخاوةِ النفْس وسلامة القلْب»، فقولنا: الأخْذ بما تيسَّر من متاع الدُّنيا، يخرج ما صعُب الحصول عليه مِن الدنيا؛ لكونه يرهق النفسَ ويشغلها ويهمُّها، وقولنا: متاع الدنيا: يشمل «كلّ ما ينتفع به مِن عروض الدنيا قليلها وكثيرها»[(٢)]؛ ويأتي في مقدِّمة ذلك: المال والنِّساء، وقلنا: الحلال، يخرج الحرام وما فيه شُبهة، وقلنا: والقناعة به؛ أي: الرضا، كما ورد في الأثر: (القناعة كَنْز لا يفنَى)؛ أي: إن النفس تستغني به، كما جاء في الحديث الصحيح: ((ليس الغِنَى عن كثرة العرَض؛ ولكن الغِنى غِنى النفس))؛ متفق عليه، وقولنا: مع سخاوةِ النفس؛ أي: جودها وكرمها، وهذا نقيضُ الشح والبخل، وقلنا: سلامة القلْب؛ أي: «الخالِص مِن الأوصاف الذميمة، والمتَّصف بالأوصاف الجميلة»[(٣)]، كما قال الحق سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]، فإنَّ القلب إذا كان مريضًا لا يستحقُّ صاحبه أن يكونَ زاهدًا ولو طلق الدنيا ألبتة، مثلما هو ملحوظٌ عندَ البوذيِّين والرهبان ومخرِّفي الصوفيَّة ونحوهم.

دَرجات الزهد:

مُعينات على الزهد: قسَّم ابن رجب ما يُعين على الزهد إلى:

---

(١) «تفسير الطبري» (٤/ ٢٠٥)؛ تحقيق محمود شاكر.

(٢) «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٢٩٣) مادة (متع).

(٣) «تفسير القرطبي» (١٣/ ١١٥).

أ- عِلم العبدِ أنَّ الدنيا ظلٌّ زائِلٌ وخيالٌ زائر، فهي كما قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[(١)].

ب- عِلم العبدِ أنَّ وراءَ الدنيا دارًا أعظمَ منها قَدْرًا وأجلَّ، وهي دار البقاء.

جـ- مَعرفة العبدِ وإيمانه بأنَّ زُهدَه في الدنيا لا يَمنعه شيئًا كُتِب له منها، وأنَّ حرصه عليها لا يجلبُ له ما لم يُقْضَ له منها.

فيم يزهد المؤمن؟

النفس: ويقصد بذلك عدم عجب المرء بنفسه، فيظن أنه سيخرق الأرض، أو يبلغ الجبال طولاً، فيتكبَّر بمنصبه، أو بما أعطاه اللهُ مِن صورةٍ على خلقِ الله، وإنما يَتواضَع ويَخفِض جَناحَه للمؤمنين، كما أمَر الله تعالى نبيَّه - صلَّى الله عليه وسلَّم -: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٢)].

المال: وليس المراد رَفْضَه، فنِعمَ المالُ الصالح للعبدِ الصالح، فالمال قد يكونُ نِعمةً إذا أعان صاحبَه على طاعة الله - سبحانه وتعالى - وأنْفَقه في مرضاتِه، وقد يُفسِد صاحبَه فيدفعه إلى الطغيانِ؛ يقول الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[(٣)].

ما في أيدي الناس: ويُقصد بذلك الزُّهدُ عمَّا في أيدي الناس، وعدَم استشرافه أو التطلُّع إليه، وقد مرَّ قولُه - صلَّى الله عليه وسلَّم -: (ازهدْ فيما في أيدي الناسِ يُحبَّكَ الناس)، فإنْ جاء مِن الناس للعبدِ شيءٌ بدون استشرافِ نَفْسٍ فلا بأسَ به.

الملك والرياسة: فهي أمانةٌ وقد تكون خزيًا ونَدامة، إلا مَن قام بحقِّها، فسليمان وداود - عليهما السلام - كانَا مِن أزهدِ الناس في زمانهما، ولهما مِن

---

(١) [الحديد: ٢٠]. (٢) [الحجر: ٨٨].
(٣) [العلق: ٦ - ٧].

المُلك ما أخبرَنا الله - عزَّ وجلَّ - كذلك يوسف - عليه السلام قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾[١].

وإنَّما المُلك الذي يَطغَى صاحبُه هو الذي نهَى الله عنه؛ يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾[٢].

هل الدنيا سجن المؤمن؟

إن الإسلام - المتمثل في نهج بلاغة الإمام (عليه السلام) - يرى علاقة الإنسان بالدنيا كعلاقة الزارع بزرعه: (الدنيا مزرعة الآخرة) أو علاقة التاجر بالمتجر: (إن الدنيا متجر أولياء الله)[٣] أو علاقة المسابق بميدان السباق: (ألا وإن اليوم المظمار وغداً السباق، والسبقة الجنة والغاية النار)[٤] أو علاقة العابد بالمسجد: (الدنيا . . مسجد أحباء الله)[٥].

ما هي الدنيا المذمومة؟

إن هناك صورة يصبح الإنسان فيها بهدفه في (أسفل السافلين) وأخسّ موجود في الحياة: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[٦] وتتحطم فيها جميع قيمه ومثله الإنسانية السامية، ويخرج فيها بصورة حيوانية منكوسة!

تنقسم الآيات القرآنية الكريمة التي تتعلق بعلاقة الإنسان بالدنيا إلى قسمين:

القسم الأول: آيات تدل على فناء الدنيا وزوالها، وعدم ثباتها، وتغيرها وتنكرها، وانتقالها بأهلها حالاً بعد حال.

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾[٧].

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ

---

(١) [يوسف: ١٠١].
(٢) [البقرة: ٢٥٨.
(٣) الحكمة: ١٣١.
(٤) الخطبة: ٢٨.
(٥) الحكمة: ١٣١.
(٦) سورة الفرقان: ٤٤.
(٧) سورة الكهف: ٤٥.

حُطَاماً وَفِي الآَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[١].

والقسم الثاني من الآيات: يسلط الأضواء واضحة صريحة على مشكلة علاقة الإنسان بهذه الحياة، بما نرى فيها صريحاً، أن الذي يحكم الإسلام عليه بأن لا يكون هو: أن يتعلق الإنسان بهذه الحياة تعلق أسر وذلة وقناعة. والآيات هي:

١ - ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[٢].

فهذه الآية الكريمة بينما تنتقد المال والبنين بأنها ليست بأكثر من زينة في الحياة الدنيا، تجعل بمكانها الأمل الوحيد للإنسان في هذه الحياة: الباقيات الصالحات إذ هي خير ثواباً وخير أملاً، أي ترى أن تكون هي الأمل لا الزينة.

٢ - ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾[٣].

وهذه الآية أيضاً إنما تنتقد أن يرضى الإنسان بالحياة الدنيا ويطمئن إليها ويغفل عن آيات الله ولا يرجو لقاء الله سبحانه، فإما أن لا يغفل عن آيات الله ويرجو لقاء الله، فلا بأس.

٣ - ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾[٤].

وهذه الآية الكريمة أيضاً إنما تنتقد من يتولى عن ذكر الله ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فأما من لم يتول عن ذكر الله وأراد الآخرة وسعى لها سعيها، فلا بأس عليه.

٤ - ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآَخِرَةِ إِلاَ مَتَاعٌ﴾[٥].

وهذه الآية الكريمة أيضاً إنما تنتقد الذين يفرحون بهذه الحياة الدنيا ولا يضمرون للآخرة أي حزن أو سرور، بل لا يعدون للآخرة أي إعداد، إذ لا يعدونها في الحياة الدنيا إلا قليلاً، فأما من لا يعد الحياة الدنيا في الآخرة إلا

---

(١) سورة الحديد: ٢٠.
(٢) سورة الكهف: ٤٨.
(٣) سورة يونس: ٧.
(٤) سورة النجم: ٢٩-٣٠.
(٥) سورة الرعد: ٢٦.

قليلاً. ولا يعد للحياة الدنيا إلا قليلاً أيضاً، بل إنما يضمر فرحته ويعد عدته ويسعى سعيه للآخرة، فلا بأس عليه أيضاً.

٥ - ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[1].

وهذه الآية الكريمة أيضاً إنما تنتقد الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، ثم هم يغفلون بها عن الآخرة فلا يعلمون عنها أي شيء، أما من يعلم الآخرة علماً قطعياً، ويعلم واقع الحياة - كما في القسم الأول من الآيات - عن يقظة وشعور، فلا بأس عليه أيضاً.

والإمام علي (عليه السلام) أيضاً يتبع نفس هذا الأسلوب القرآني في نهج البلاغة:

فنرى أن كلماته (عليه السلام) بهذا الصدد تنقسم أيضاً إلى نفس القسمين:

قسم شرح فيه الإمام: فناء الدنيا وزوالها وتغيرها وانتقالها، بأوصاف دقيقة وتشبيهات وكنايات واستعارات بليغة.

وفي القسم الثاني: يستنتج نفس النتيجة القرآنية السالفة:

ففي الخطبة ٢٣ يقسم الإمام الناس إلى قسمين، أبناء الدنيا وأبناء الآخرة. ثم يرجع إلى أبناء الدنيا فيصنفهم على أربعة أصناف.

يقول (عليه السلام): . . فالناس على أربعة أصناف:

أ) منهم من لا يمنعه من الفساد إلا مهانة نفسه وكلالة حده ونضيض وفره.

ب) ومنهم المصلت سيفه والمعلن بشرّه، والمجلب بخيله ورجله، قد أشرط نفسه وأوبق دينه، لحطام ينتهزه أو مقنب يقوده أو منبر يفرعه.

ج) ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه وقارب من خطوه، وشمّر من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية.

د) ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه، وانقطاع سببه،

---

(١) سورة الروم: ٧.

فقصّرته الحال عن حاله، فتحلى باسم القناعة، وتزين بلباس أهل الزهادة. وليس من ذلك في مراح ولا مغدى)[١].

فالإمام (عليه السلام) يعد هؤلاء الأصناف الأربعة - على رغم اختلاف وجهات نظرهم في الحياة - فرقة واحدة، هم من أهل الدنيا. وذلك، لأنهم يشتركون في وجهة واحدة هي ما عبر عنها بقوله: (.. ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً، وعما لك عند الله عوضاً).

وقد كتب (عليه السلام) في وصيته لولده الإمام الحسن (عليه السلام) أو محمد بن الحنفية - كما في تحف العقول وابن ميثم البحراني - يقول: (أكرم نفسك عن كل دنية، فإنك لن تعتاض بما تبذل من نفسك ثمناً)[٢].

وفي (تحف العقول) عن الإمام علي بن الحسين (عليهما السلام) أنه سئل: من أعظم الناس خطراً؟ فقال (عليه السلام): (من لم ير الدنيا خطراً لنفسه)[٣].

ويتضح لنا من هذه النظرة الفاحصة في القرآن ونهج البلاغة، أن الإسلام لم يبخس من قيمة الدنيا شيئاً، بل إنما استهدف من ذلك إحياء القيم والمثل الإنسانية السامية، وإن تكون الحياة في خدمة الإنسان لا الإنسان في خدمة الحياة، وبالتالي ما أراده الله إذ قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[٤].

فوائد الزهد:

ومن أهم فوائد الزهد راحة القلب والبدن، كما جاء في حديث الرسول صلّى الله عليه وآله قال: «الرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن، والزهد في الدنيا يريح القلب والبدن»[٥]، ومنها حصول العلم والهداية، ففي الحديث المروي عنه صلّى الله عليه وآله: «ومن زهد في الدنيا وقصر أمله فيها أعطاه الله علماً بغير تعلم وهدىً بغير هداية»، وما ورد في حديث أبي عبدالله عليه السلام حيث

---

(١) الخطبة ٣٢.
(٢) تحف العقول، ص ٢٠٠.
(٣) تحف العقول، ص ٢٠٠.
(٤) سورة الإسراء: ٧٠.
(٥) البحار، ج ٧٠، ص ٩١.

قال: «ومن زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، وبصَّره عيوب الدنيا داءها ودواءها وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام»[١]، وما ورد في الحديث المروي عن الإمام الرضا عليه السلام، قال: «ازهد في الدنيا يبصرك الله عيوبها».

وأما حب الدنيا فهو مبغوض عند أهل البيت عليهم السلام ومذموم، وأوجز حديث في ذم الدنيا ما ورد عن الرسول صلّى الله عليه وآله، حيث قال - كما يروى -: «حب الدنيا راس كل خطيئة»، وهذا الحديث على وجازته قد أشار إلى كل شرور الدنيا ومفاسدها، فإن الدنيا تقوم على حب الجاه وحب المال وحب الطعام والشراب وحب الجنس، وكل واحد من هذه المجموعة قد يؤدي إلى أعظم المفاسد وأشدها، فإن من يحب الجاه قد يبلغ به الحال أن يتكبر على غيره، وقد يبلغ به الحال أن يسيء إلى الغير فيستغيبه أو يذمه، وقد يعتدي عليه، وقد يبلغ به الحال أن يتعدى إلى القتل، كل ذلك للمحافظة على الجاه، ومن يحب المال قد يبلغ به حب المال إلى السرقة، ويتعدى على الغير وقد يتعدى الحال به إلى القتل، كل ذلك في سبيل تحصيل المال والمحافظة عليه، ومن يحب الطعام والشراب إلى حد لا يكتفي بالقليل منهما الذي تقضى به الحاجة إليهما، بل يطلب ما هو الأجود وقد يبلغ به الحال أن يسرق، وقد يبلغ به الحال أن يعتدي أو يقتل، ومن يحب الجنس قد يبلغ به الحال أن يزني أو يلوط أو يغتصب وقد يقتل، فحب الدنيا - كما يقول - صلّى الله عليه وآله رأس لكل هذه الخطايا، وقال في حديثه الآخر المروي عنه صلّى الله عليه وآله: «من أحب دنياه أضر بآخرته»[٢]، وجاء في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «من تعلق قلبه بالدنيا تعلق فيها بثلاث خصال: هم لا يفنى، وأمل لا يدرك، ورجاء لا ينال».

وقد تبرأ الرسول صلّى الله عليه وآله من الدنيا، فقال في حديثه المروي: «مالي وللدنيا ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل بظل شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها»[٣].

---

(١) البحار، ج ٦٧، ص ٣١٣..
(٢) البحار، ج ٧٠، ص ٨١.
(٣) البحار، ج ٧٠، ص ١١٩.

وتبرأ منها أمير المؤمنين عليه السلام وطردها وطلقها، فقال: «يا دنيا إليك عني يا دنيا غري غيري أبي تعرضت أم إليّ تشوقت، هيهات باينتك ثلاثاً لا رجعة لي فيها، فعمرك قصير وخطرك حقير».

والأحاديث في ذم الدنيا كثيرة، ولكن ما هي الدنيا المذمومة؟.

كما جاء في الحديث المروي عن الإمام زين العابدين عليه السلام حيث قال: «الدنيا دنييان: دنيا بلاغ ودنيا ملعونة.

ونفهم من حديث الإمام زين العابدين عليه السلام هذا أن الدنيا المطلوبة والتي لا غنى عنها هي عبارة عما يستوفي فيها المرء حاجاته التي تقوم عليها حياته، ولا يستغني عنها، وهي كما عبر الإمام عنها: «دنيا بلاغ»، وأما غيرها فهي الدنيا المذمومة، وهي التي تتمثل في جمع المال فوق ما يحتاجه لأمر معاشه، وحبسه في أرصدة مجمدة من غير أن يستعمله في وجوه الخير في مساعدة إخوانه المؤمنين، أو ينفقه في القيام بشؤون دينه أو مجتمعه، واتخاذه من الدور فوق حاجته، وبناء القصور والعمارات، كل ذلك محافظة على مظهر الغنى الدنيوي وتفاخراً بالمال وتكاثراً به ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الحياة الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ﴾[1]، وتعشقاً للمال وحبه وأخذه زينة، كما تقول الآية: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَئَابِ﴾[2]..

فالدنيا المذمومة هي دنيا الجمع للمال والتفاخر به، وجعله في أرصدة مجمدة مع توفر الوجوه التي تقضي الحاجة بلزوم صرفه فيها، أما التكسب لطلب المعيشة وللتعفف وستر الحال أو جمع المال لغرض إنفاقه في وجوه الخير والبر طلباً لمرضاة الله، فليس ذلك من حب الدنيا، وليس هو بمذموم، بل المذموم أن يجلس في بيته ويجعل نفسه كَلاً على غيره، ويأتي فيه الحديث المتقدم: «ليس منا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه».

وبالجملة لابد للسالك أن يقتصر في دنياه على ما تدعو له الحاجة

---

(١) سورة الحديد، آية ٢٠. (٢) سورة آل عمران، آية ٤١.

وتقتضيه الضرورة، ويعرض عمّا سوى ذلك انقطاعاً إلى الله وإعراضاً عن غيره حتى يجد حلاوة حب الله، ففي الحديث المروي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إذا تخلّى المؤمن من الدنيا سما ووجد حلاوة حب الله»[١] وفي حديثه المروي عنه أيضاً قال: «حرام على قلوبكم أن تعرف حلاوة الإيمان حتى تزهد في الدنيا»[٢].

ثم إنه بعد أن اتضح أن الزهد هو الصفة التي ينبغي أن يتصف بها السالك، والنهج الذي ينبغي أن يتخذه السالك في تعامله مع متع الحياة الدنيا، نقول:

إن السالك يجب أن يقتصر في الزهد على نفسه، ولا ينبغي أن يفرض زهده على عائلته، وأضيافه، فيجري لعائلته من النفقة الأقل مما يحتاجون إليه، فإن ذلك يعد تقتيراً، وهو مناف لما ورد من استحباب التوسعة على العيال، ففي الحديث الوارد عن أبي الحسن عليه السلام قال: «إن عيال الرجل أسراؤه فمن أنعم عليه الله بنعمة، فليوسع على أسرائه، فإن لم يفعل أوشك أن تزول النعمة»، وهكذا الحال بالنسبة إلى الأضياف، فإن التقليل فيما يقدمه إليهم يعد بخلاً وهو مذموم.

بقي هنا شيء هو أنه هل يجري الزهد في النكاح، كما يجري في بقية متع الحياة، فلا يتزوج أصلاً؟ أو يتزوج واحدة فقط؟ الصحيح أنه لا يجري الزهد في النكاح لا في أصل النكاح، ولا في التعدد، أما بالنسبة إلى أصل التزويج فقد دلت الروايات الكثيرة على حسن النكاح، وأنه من السنة، كما في الحديث المروي عن الرسول صلّى الله عليه وآله: «النكاح من سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني»، والحديث الثاني المروي عنه صلّى الله عليه وآله: «تنكاحوا تناسلوا لأباهي بكم الأمم» وقوله صلّى الله عليه وآله في حديث ثالث مروي عنه: «من سره أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليلقه بزوجة».

فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا

---

(١) البحار، ج ٧٠.
(٢) البحار، ج ٧٠، ص ٤٩.
(٣) سورة براءة، آية ١٠٥..

صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[1].

وتدعو بعض الآيات إلى العمل بلسان بيان الجزاء كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ)[3] وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[6].

ومن الروايات ما روي عن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: بادر بأربع قبل أربع: بشبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك»[7].

وقد جاء في وصية الإمام الحسن عليه السلام لجنادة - كما يروى - قوله: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

هذا مضافاً إلى أنا سنواجه موقفاً للحساب، وسوف نسأل فيه عن العمل، ونسأل عن العمر فيم كان فناؤه، فقد جاء عنه صلّى الله عليه وآله - كما روي عن رقية بنت اسحاق بن موسى بن جعفر، عن أبيها عن آبائه عليهم السلام أنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت»[8].

هذا مع أنه لا يخفى ما للعمل من تأثير في حصول الصفاء النفسي ورقي النفس إلى أعلى مراتب الروحانية التي هي أمل السالك، وحاجته المحببة إليه،

---

(١) سورة المؤمنون، آية ٥١.
(٢) سورة الأنبياء، آية ٩٤.
(٣) سورة العنكبوت، آية ٩.
(٤) سورة النحل، آية ٩٧.
(٥) سورة العنكبوت، آية ٧.
(٦) سورة الشورى، آية ٢٢.
(٧) البحار، ج ٦٨، ص١٨٠.
(٨) البحار، ج٦٨، ص ١٨٠.

ففي الحديث المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «خلق الإنسان ذا نفس ناطقة، إن زكاها بالعلم والعمل فقد شابهت جواهر أوائل عللها، وإذا اعتدل مزاجها وفارقت الأضداد، فقد شارك بها السبع الشداد»(١)، بل إن للعمل والعبادة أكبر التأثير في حصول هبات الله وألطافه، وبها يعطي الله العبد فوق أمانيه، ففي الحديث المروي عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: «من عَبَدَ الله حق عبادته آتاه الله فوق أمانيه وكفايته»(٢)..

وما روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أما والله إنكم لعلى دين الله ودين ملائكته فأعينونا بورع واجتهاد، عليكم بالصلاة والعبادة عليكم بالورع»(٣)، وقال عليه السلام في حديثه الآخر المروي عنه: «المغبون من غبن عمره ساعة بعد ساعة»(٤).

زهد فاطمة الزهراء (سلام الله عليها):

وقد يظن السالك في طريق الاستقامة أن الالتفات للدنيا مذموم على كل حال.. فينتقد من يشتغل بالتجارة أو الكسب أو من يتمنى من الله تعالى الرزق الوافر الرغيد في هذه الدنيا.

وقد تضيق النظرة أيضاً وتزداد المجانبة عندما يفضل العزلة والوحدة على الإطلاق لجميع الناس باعتبار أنها أصلح للقلب وأقرب لإتقان عبادة الرب جل وعلا.

بل قد يلوم من يحرص على وجود النسل وعلى التمتع بزينة الحياة الدنيا.

ومثل هذه النظرة لا تقتصر على أنها انحراف في فكر صاحبها وضيق في نظرته للإسلام، وقصور في فهم الدين والنظرة إلى الحياة الدنيا وموقف الإسلام منها.

قال جابر بن عبد الله الأنصاري: خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) يريد فاطمة (عليها السلام) وأنا معه، فلمّا انتهينا إلى الباب وضع يده عليه فدفعه، ثمّ قال: السلام عليكم.

---

(١) البحار، ج ٤٠، ص ١٦٥.
(٢) البحار، ج٦٨، ص ١٨٤.
(٣) البحار، ج ٦٨، ص ١٧٥.
(٤) البحار، ج ٦٨، ص ١٧٧.

فقالت فاطمة (عليها السلام): عليك السلام يارسول الله! قال: أأدخل؟ قالت: ادخل يارسول الله، قال: أدخل أنا ومَن معي؟ فقالت: يا رسول الله ليس عليّ قِناع.

فقال: يافاطمة خذي فضل ملحفتك فقنّعي به رأسك. ففعلتْ.

ثمّ قال: السلام عليكم. فقالت: وعليك السلام يارسول الله! قال: أأدخل.

قالت: نعم، ادخل يارسول الله! قال: أنا ومن معي؟ قالت: أنت ومن معك.

قال جابر: فدخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) ودخلت أنا، وإذا وجه فاطمة أصفر كأنّه بطن جرادة، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): مالي أرى وجهك أصفر؟ قالت: يارسول الله الجوع... الخبر. فقال (صلى الله عليه وآله): اللهمَّ مشبع الجوعة ورافع الضيّعة اشبع فاطمة بنت محمد فقال جابر: فوالله فنظرت إلى الدم يتحدر من مصاصها حتى عاد وجهها أحمر، فما جاعت بعد ذلك اليوم [1].

نعم، هكذا كانت الزهراء (عليها السلام)، وكيف لا تتصف بالزهد وهي ابنة خير الزاهدين، وزوج مَن خاطب الدنيا قائلاً: «طلقتك ثلاثاً»، فهي نشأت وتربّت في بيت يسوده الزهد والحياة البسيطة، وانتقلت بعد زواجها إلى بيت ساده الزهد والقناعة، فحياتها الاجتماعيّة تتطلب منها أن تكون زاهدة، إذ هي أولى الناس بالسير على منهاج أبيها (صلى الله عليه وآله) وبعلها (عليه السلام).

روي عن أسماء بنت عميس أنّها قالت: كنت عند فاطمة (عليها السلام) إذ دخل عليها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وفي عنقها قلادة من ذهب كان اشتراها لها عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) من فيء.

فقال لها رسول الله: يا فاطمة لا يقول الناس: إنّ فاطمة بنت محمّد تلبس لباس الجبابرة! فقطعتها وباعتها واشترت بها رقبة، فأعتقتها، فسرّ بذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله)[2].

---

(١) بحار الأنوار ٤٣ : ٦٢، ح ٥٣.

(٢) بحار الأنوار ٤٣ : ٨١، ح٢؛ العوالم ١١ : ٢٦٩.

أيّ شيء خير للنساء؟

ممّا لا شكّ فيه أنّ العَفاف زينة المرأة، ويصعب تحقّقه مع اختلاطها بالأجانب، ولذلك حرص الشارع المقدّس على تضييق دائرة الإختلاط إلاّ في المجالات الضرورية. وهذا ما دأبت عليه سيّدة نساء العالمين (عليها السلام).

روي عن أنس أنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ما خير للنساء؟ فلم نَدر ما نقول. فسار عليّ (عليه السلام) إلى فاطمة (عليها السلام) فأخبرها بذلك. فقالت: فهلاّ قلت: خير لهنّ أن لايرين الرجال ولا يرونهنّ. فرجع فأخبره بذلك.

فقال له: من علّمك هذا؟ قال: فاطمة (عليها السلام)، قال: إنّها بضعة منّي [(١)].

وجاء عن مولانا الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال عليّ (عليه السلام): «استأذن أعمى على فاطمة (عليها السلام) فحجبته، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لها: لمَ حجبتيه وهو لا يراك؟ فقالت (عليها السلام): إن لم يكن يراني فإنّي اراه، وهو يشمّ الريح. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أشهد أنّك بضعة منّي»[(٢)].

الزهدالطريق إلى الله:

الزهد من أهم الصفات التي ينبغي أن يتصف بها السالك إلى الله تعالى، فإن السلوك إلى الله بمعناه الحقيقي هو التوجه إلى الله بعبادته والانقطاع إليه والإعراض عما سواه، والزهد هو الصفة الموافقة للانقطاع إلى الله، وهو الذي يتحقق به الإعراض عن الدنيا ومتعها إلاّ ما يحتاج إليه من مقومات حياته ولا يستغني عنها.

وقد ورد في تعريف الزهد في الدنيا جملة من الأحاديث، ففي الحديث المروي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قيل لأمير المؤمنين عليه السلام ما

---

(١) حلية الأولياء ٢: ٤١ – ٤٢.

(٢) بحار الأنوار ٤٣: ٩١، ح ١٦؛ العوالم ١١: ٢٢٣.

الزهد في الدنيا؟ قال: «تنكب الحرام»[١]، وفي حديث أبي الطفيل قال سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «الزهد في الدنيا قصر الأمل»[٢]، وفي الحديث المروي عن أبي جعفر عليه السلام أن رجلاً سأله عن الزهد فقال: «الزهد عشرة أشياء، وأعلى درجات الزهد أدنى درجات الورع، وأعلى درجات الورع أدنى درجات اليقين، وأعلى درجات اليقين أدنى درجات الرضا، ألا وإن الزهد في كتاب الله عز وجل ﴿لِّكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ﴾[٣]، وفي الحديث المروي عن أبي جعفر الجواد عليه السلام عن أبيه عن جده عليهم السلام قال: سئل الصادق عليه السلام عن الزاهد في الدنيا قال: «الذي يترك حلالها مخافة حسابه، ويترك حرامها مخافة عذابه»[٤].

وهذه الأحاديث وإن اختلف لسانها وبيانها في تعريف الزهد وبيان حقيقته إلا أنه يمكن إرجاعها إلى معنى واحد، هو الميل بالنفس والرغبة بها عن متع الدنيا وزخارفها ابتغاءً لما عند الله، ولما أوعد به عباده المؤمنين من نعيمه الباقي، ويكون كل واحد من هذه الأحاديث ناظراً إلى قسم من أقسام الزهد وفرد من أفراده وقاصداً بيان تعريفه، فالزهد إنما يكون بالميل عن الدنيا ومتعلقاتها من حب المال وحب الجاه وحب الاستمتاع بملاّذ الحياة من الطعام والشراب والجنس، ويقابل الزهد في الدنيا حب الدنيا والميل إليها والرغبة فيها وفي زخارفها ومتعها، والزهد محبوب، بل به صلاح الأمة، ففي الحديث المروي عن الرسول صلّى الله عليه وآله: «إن صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخرها بالشح والأمل»[٥]، وقد مدح أمير المؤمنين عليه السلام الزهد في حديثه، فقال: «الزهد ثروة والورع جنة»[٦].

الزهد في «نهج البلاغة»:

والذي يبدو أنّ عليّاً (عليه السلام) كان يعرف قدرالدنيا بمفهومها اللّغويّ الدقيق الدالّ على تتبّع دنيّ الأمور وصغيرها وخسيسِها[٧]، وأنّ استصغار

(١) البحار، ج ٦٧، ص ٣١٠.
(٢) البحار، ج ٦٧، ص ٣١٠..
(٣) سورة الحديد، آية ٢٣.
(٤) البحار، ج ٦٧، ص ٣١٠.
(٥) البحار، ج ٦٧، ص ٣١١.
(٦) البحار، ج ٦٧، ص ٣١٦..
(٧) الزهد وصفة الزاهدين ١/ ٢٦.

الدنيا[١]، ومحو آثارها من القلب[٢]، الذي صار تعريفاً لمصطلح الزهد لاحقاً، كان منهجاً قائماً في ممارسة عليّ (عليه السلام)وفي تطبيقاته، فأدرك أنّ «من هوان الدنيا على الله أنّه لا يُعصى إلاّ فيها، ولا يُنال ما عنده إلاّ بتركها»[٣].

لقد جُبل عليّ (عليه السلام) على الورع والعلم والتقوى من دون مؤثّرات خارجيّة، بارزة الملامح، في ما عدا القرآن والتّلمذة النبوية حتّى عدّه جابر ابن حيّان (ت ١٩٨ هـ) مصدر العلم اللدنيّ بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)[٤].

«إنّ الغايةَ أمامكم، وإنّ وراءكم الساعة تحدوكم، تخفّفوا تلحقوا، فإنّما تنتظر بأوّلكم آخركم»[٥].

«إنّ أخْوفَ ما أخاف عليكم اتّباع الهوى، وطول الأمل، فتزوّدوا من الدنيا ما تحرِزون به أنفسكم غداً»[٦].

«فلتكُنِ الدنيا في أعيُنِكم أصغر من حُثالةِ القَرَظ، وقُراضةِ الجَلَم، واتّعظوا بمَن كان قبلكم، قبل أن يتّعِظ بكم مَن بعدكم، وارفضوها ذميمةً؛ فإنّها قد رفضت مَن كانَ أشغَفَ بها منكم»[٧].

«ألا وإنّ هذه الدنيا التي أصبحتم تتمنّونها وترغبون فيها، وأصبحت تُغْضِبُكم وتُرضيكم، ليست بداركم، ولا منزلكم الذي خُلِقتم له، ولا الذي دُعيتم إليه.

---

(١) كتاب الزهد الكبير ١/ ٤٣.

(٢) لسان العرب، مادّة «د ن و»؛ ونكتفي بالإشارة هنا إلى أنّ شرح الكلمات في هوامش البحث اللاحقة كلّها مأخوذة من المصدر نفسه.

(٣) شرح نهج البلاغة – مجموع ما اختاره الشريف الرضيّ (ت ٤٠٤ هـ) من كلام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) – لابن أبي الحديد، ١٩/ ٣٢٦.

(٤) حلية الأولياء ١٠/ ٧٨؛ نقلاً عن الفلسفة الصوفية في الإسلام: ١٦٠.

(٥) شرح نهج البلاغة – لمحمّد عبده – ١/ ٤٥.

(٦) شرح نهج البلاغة – لمحمّد عبده – ١/ ٦٨ تحرزون أنفسكم: تحفظونها من الهلاك الأبدي.

(٧) شرح نهج البلاغة – لمحمّد عبده – ١/ ٧٥.

ألا وإنّها ليست بباقية لكم، ولا تبقون عليها، وهي وإن غرّتكم منها، فقد حذّرتكم شرّها؛ فَدَعوا غرورَها لتحذيرها، وأطماعَها لتخويفها، وسابقوا فيها إلى الدار التي دُعِيتم إليها، وانصرفوا بقلوبكم عنها.

واستتمّوا نعمة الله عليكم بالصبر على طاعة الله، والمحافظة على ما استحفظكم من كتابه.

ألا وإنّه لا يضرّكم تضييعُ شيء من دنياكم بعد حفظكم قائمة دينكم.

ألا وإنّه لا ينفعُكم بعد تضييع دينكم شيءٌ حافظتم عليه من أمر دنياكم»[١].

وللزهدِ في النهج اتّجاه آخر يتّخذ الوعظَ أُسلوباً أدائيّاً يدعو الأفراد للقيام بعملية استبطان نفوسهم، ومعرفة نزعاتها.

«عبادَ الله! زِنُوا أنفسَكم من قبل أن توزَنوا، وحاسبوها قبل أن تُحاسبوا»[٢]. . وتحليل طباعها.

«واعلموا أنّه مَن لم يُعَنْ على نفسه حتّى يكون له منها واعظ وزاجر، لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ»[٣].

كي يعرف كلُّ فرد حقّ نفسه عليه، ويحيط برغباتها المشروعة، ويقف حائلاً دون انغماسها بالشبهات.

«واعلموا عبادَ الله، أنّ عليكم رصداً من أنفسكم، وعيوناً من جوارحكم، وحفّاظ صدق يحفظون أعمالكم، وعدد أنفاسكم، لا تستركم منهم ظُلمةُ ليل داج، ولا يكنّكم منهم بابٌ ذو رِتاج»[٤].

ويقوم بمهمّة الرقيب الداخلي، القادر على الحزم والنهي.

«. . . امرؤ أَلْجَمَ نفسَه بلجامها، وزمّها بزمامِها؛ فأمسكها بلجامِها عن معاصي الله، وقادها بزمامها إلى طاعة الله»[٥].

---

(١) شرح نهج البلاغة - لمحمّد عبده - ٢ / ١٠٦.
(٢) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ٦/ ٣٩٥.
(٣) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ٦/ ٣٩٥.
(٤) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ٩/ ٢١٠.
(٥) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ١٣/ ٣٠٧.

فإن تحقّقت هذه المسؤوليّة الفرديّة في النفوس، وأُحيطت النفس بعوامل المنع الداخلي المسند بالموعظة، تحقّق للأفراد الحفظ الإلهي بتجاوز الزلل والخطايا.

«مَن كان له من نفسه واعظ، عليه من الله حافظ»[1].

وتشغل دعوات الاستعداد للموت، والتذكير به، ووصف حال أهل القبور، حيّزاً كبيراً في النهج، عسى أن يكون من شأن ذلك دفع الناس إلى الزهادة في الحياة، والتقلّل من مباهجها، والميل إلى العيش البسيط، والفرار من مغريات الغنى والثروة والجاه والتسلّط.

«استعدّوا للموت فقد أظلّكم»[2].

فقال للرجل: يا أخا كلب! ليس هو بعلم غيب، وإنّما هو تعلّم من ذي علم. وإنّما علم الغيب علمُ الساعة، وما عدّده الله سبحانه بقوله: ﴿إنّ الله عنده علمُ الساعة وينزّل الغيثَ ويعلمُ ما في الأرحام وما تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وما تدري نفسٌ بأيِّ أرض تموت...﴾[3]، فيعلم الله سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أُنثى، وقبيح أو جميل، وسخيّ أو بخيل، وشقيّ أو سعيد، ومَن يكونُ للنار حَطَباً، أو في الجنان للنبيّين مُرافِقاً، فهذا عِلْمُ الغيب الذي لا يعلمه أحدٌ إلاّ الله، وما سوى ذلك فعِلْمٌ علّمه الله نبيّه (صلى الله عليه وآله وسلم) فعلّمَنِيهِ، ودعا لي بأن يَعِيَه صدري، وتَضْطمّ عليه جوانحي[4].

لذلك كثيراً ما كان ينادي:

«أيُّها الناس! سَلوني قبل أن تفقدوني، فَلأنا بطرُقِ السماء أعْلَمُ منّي بطُرُقِ الأرض؛ قبل أن تَشْغَرَ برجلها فتنةٌ تَطأُ في خِطامها، وتذهب بأحلامِ قومها»[5].

---

(١) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ١٨/ ٢٤٢.
(٢) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ٥/ ١٤٥.
(٣) سورة لقمان ٣١/ ٣٤.
(٤) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ٨/ ٢١٥.
(٥) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ١٣/ ١٠١.

زِدْ على تلك المناحي منحى التذكير بما أصاب الجبابرة الأسلاف الّذين طَغَوا، والأُمم التي عتت.

«إنّ الله لم يقصِم جبّاري دهر قطّ إلاّ بعد تمهيل ورخاء، ولم يجبرْ عَظْمَ أحد من الأُمم إلاّ بعد أزل وبلاء. . .»[1].

وما آلَ إليه مصيرُها.

«عبادَ الله! أين الّذين عُمِّروا فَنعِموا، وعُلّموا ففهموا، وأُنظِروا فلَهوا، وسُلّموا فَنسوا؟! أُمهلوا طويلاً، ومُنِحوا جميلا، وحُذّروا أليماً، ووعِدوا جسيماً»[2].

ثمّ عطاؤه جلّ وعلا في تفضيل أنبيائه، وفي اختيار رسله، والتركيز على حالة التقشّف والزهد والفقر التي كان يحياها الرسل، ثمّ المكانة العليّة التي تبوّؤوها.

«لقد كان في رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كاف لك في الأُسْوة، ودليل لكَ على ذمِّ الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها؛ إذ جاع فيها مع خاصتّه، وزُوِيَتْ عنه زخارفُها مع عظيم زُلْفَتِهِ.

فلينظر ناظر بعقله: أكرمَ اللهُ محمّداً بذلك أم أهانَه؟ فإن قال: أهانه، فقد كذِب - والله العظيم - بالإفك العظيم، وإن قال: أكرمه فليعلم أنّ الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له، وزواها عن أقرب الناس منه. .

فإنّ الله جعلَ محمّداً (صلى الله عليه وآله وسلم) علماً للساعة ومبشّراً بالجنّة، ومُنذِراً بالعقوبة. خرج من الدنيا خميصاً، وورد الآخرة سليماً، لم يضع حجراً على حجر، حتّى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربّه، فما أعظم منّةَ الله عندنا حين أنعم علينا به سلفاً نتّبعه، وقائداً نطأُ عَقِبَه.

وإن شِئْتَ ثنَّيْتُ بموسى كليم الله (عليه السلام)؛ حيث يقول: ﴿ربّ إنّي لِما أنْزَلْتَ إليّ من خير فقيرٌ﴾[3]، والله! ما سأله إلاّ خُبزاً يأكُلُهُ، لأنّه كان يأكلُ

(١) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ٦/ ٣٨٤.
(٢) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ٦/ ٢٧٥.
(٣) سورة القصص ٢٨ : ٢٤.

بقلة الأرض، ولقد كانت خُضرةُ البقلِ تُرى من شَفيفِ صِفاق بطنهِ؛ لِهُزَالِهِ وتَشَذُّبِ لحمهِ.

وإن شِئتَ ثَلَّثْتُ بداودَ (عليه السلام)، صاحبِ المزامير وقارئ أهل الجنّةِ؛ فلقد كان يعملُ سَفائِفَ الخوصِ بيدِه، ويقول لجلسائِه: أيُّكم يكفيني بيعَها؟ ويأكلُ قُرْصَ الشعير من ثمنها.

وإن شئتَ قلتُ في عيسى بن مريم (عليه السلام)؛ فلقد كان يَتَوسّدُ الحجَر، ويلبس الخَشِن، ويأكل الجَشِبَ، وكان إدامه الجوع، وسراجُه بالليلِ القمرَ، وظلالُه في الشتاءِ مشارِقَ الأرضِ ومغاربَها، وفاكهتُه ورَيحانهُ ما تُنبِتُ الأرضُ للبهائم، ولم تكن له زوجةٌ تَفْتِنُه، ولا ولد يَحزُنُه، ولا مال يَلْفُته، ولا طَمَعٌ يُذِلُّهُ، دابَّتُهُ رِجْلاه، وخادِمُهُ يداه»[1].

«عبادَ الله! لا تركنوا إلى جهالِتكم، ولا تنقادوا إلى أهوائكم؛ فإنّ النازل بهذا المنزل نازل بشفا جُرُف هار، ينقل الردى على ظهره من موضع إلى موضع؛ لرأي يُحْدِثُهُ بعد رأي، يريد أن يُلصِق ما لا يلتصقُ، ويُقرِّب ما لا يتقارب!.

فالله اللهَ أن تَشْكوا إلى مَن لا يُشكِي شَجْوَكم، ولا ينقُضُ برأيه ما قد أبْرَمَ لكم، إنّه ليس على الإمام إلاّ ما حُمِّل من أمر ربّه: الإبلاغ في الموعظة، والاجتهاد في النصيحة، والإحياء للسُنّة، وإقامةُ الحدود على مستحقّيها.

فبادروا العلم من قبل تصويحِ نَبْتِهِ، ومن قبل أن تُشغَلوا بأنفسكم عن مستثار العلم من عند أهله، وانهوا عن المنكر وتناهوا عنه؛ فإنّما أُمِرْتُم بالنهي بعد التناهي!»[2].

ففي هذين المقامين تفيض الخطابة الزهديّة المباشرة بعبارات الإشفاق، وبمعاني التعاطف مع الأفراد، على الرغم من كثرة رمي اللوم عليهم في مواضع قوليّة أخرى. وظهر الإمام عليّ (عليه السلام) يحمل صفة حكيم الزهادة ومعلِّمها، الذي يثير في نفوس تلامذته الرغبة الدائمة في معرفة العلم الذي يلامس مصيرهم، ويتعلّق بجوهر عقيدتهم.

---

(١) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ٩/ ٢٢٩- ٢٣٣.
(٢) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ٧/ ١٦٧.

إنّ استقراء الدعوات الزهديّة في نهج البلاغة يوحي إلى حياة الغُربة الدنيويّة التي كان يحياها الإمام عليّ (عليه السلام)، والتي كان مبعثها في نفسه فقدُ الأحبَّة: الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وفاطمة الزهراء (عليها السلام)، وأصحابه المخلصين، ثمّ في المعاناة الفائقة التي لازمته بعد تولّيه الخلافة، والناتجة عن صعوبة قيادة الناس إلى الحقّ والتقوى والصلاح، وتردّدهم في الجهاد، وميلهم إلى التقاعس وحبّ الحياة، مع كبير معرفتهم بصواب منهجه، وصدق دعواته.

«أين إخواني الّذين ركبوا الطريقَ، ومضوا على الحقّ؟!

أين عمّار؟! وأين ابن التيِهان؟! وأين ذو الشهادتين؟!

وأين نظراؤهم من إخوانهم الّذين تعاقدوا على المنيّة، وأُبْرِدَ برؤوسهم إلى الفَجَرة؟!

أوهِ على إخواني الّذين قرؤوا القرآن فأحكَمُوه، وتدبّروا الفرضَ فأقاموه! أحْيَوا السنّةَ وأماتوا البِدعَة، دُعُوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتَّبَعوه»[1].

ويدخل الزهد في تفاصيل التقوى وطريقته، وفي عرض صفات الإنسان التقي ومسيرته، وهو وصف يؤكّد للدارس أنّ صفات التقي في نهج البلاغة هي صفات الزاهد نفسها، وبالتالي فإنّ التُقى يعادل الزهد.

«اتّقوا اللهَ عبادَ الله! تقيَّةَ ذي لبّ شغل التفكّر قلبَه، وأنْصَبَ الخوفُ بدنَه، وأسهر التهجّد غِرارَ نومه، وأظمأ الرَجاءُ هواجرَ يومه، وظَلَفَ الزهدُ شهواته، وأوجَفَ الذكر بلسانِهِ، وقدَّم الخوفَ لأمانهِ.

ولم تفتِلْه فاتِلاتُ الغُرور، ولم تَعْمَ عليه مُشْتبهاتُ الأُمور، ظافراً بفرحة البشرى، وراحةِ النعمى، في أنْعَمِ نومه، وآمنِ يومه. قد عبر مَعْبَر العاجلة حميداً، وقَدَّم زادَ الآجلةِ سعيداً، وبادر من وَجَل، وأكْمَشَ في مَهَل، ورغِبَ في طَلَب، وذهب عن هَرَب، وراقبَ في يومه غَدَه، ونظر قُدُماً أمامه؛ فكفى بالجنّةِ ثواباً ونوالاً، وكفى بالنارِ عقاباً ووبالا!...»[2].

---

(١) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ١٠/ ٩٩.
(٢) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ٦ / ٢٦٣.

والعبادة التي يجهر بها نهج البلاغة، ويريدها منهجاً للمؤمنين، تشتمل على الحثّ الدائم على إمكانية نيل أفضل درجات التقرّب إلى الله، وبالتالي فهي لا تخرج من دائرة الزهد نفسِها التي يطلّق فيها الزاهد حبَّ المالِ، وحبّ الأولاد، ووجاهة الدنيا، ونعيمها. . . ويرضى بما عند الله، ويقنع به، وأن يخافه - جلّ شأنه - خوفَ مَن يراه، ويرهب سطوته، رهبةَ عالم بها، ويعمل لنيل ثوابه في اليوم الآخر.

فالعبادة هنا، عبادة زاهدة، فيها من الإخلاص والتوجّه المطلق، والانشغال بها، ما يبعدها عن أن تكون أداءً لطقوس يومية، أو فرائض شهرية واجبة حسب.

«فوالله! لو حَنَنْتُم حنينَ الولَّهِ العِجَال، ودَعَوْتُم بِهَديلِ الحَمام، وجَأَرْتُم جُؤارَ متبتّلي الرُهْبان، وخرجتُمْ إلى الله من الأموال والأولاد؛ التماسَ القُرْبَةِ إليه في ارتفاعِ درجة عنده، أو غفرانِ سيّئة أحصتها كُتُبُه، وحَفِظَتها رسلُه، لكان قليلاً في ما أَرجو لكم من ثوابه، وأخافُ عليكم من عقابه»[1].

وأنا مؤمن تمام الإيمان بأنّ هذه المهمّة قد وضعت لعليّ (عليه السلام) وضعاً ربّانيّاً، جعلته يحمل يقيناً مطلقاً بثراء ما وهبه الله للإنسان من نِعَم في الحياة، وبأفضليّة ما ينتظره من ثواب بعد الموت، وكأنّه يرى تلك الحقائق رؤية العين، ويلمسها لمس اليد.

«وتا للهِ! لو انماثَتْ قلوبُكم انمياثاً، وسالت عيونكم - من رغبة إليهِ أو رهبة منه - دماً، ثمّ عُمِّرْتُم في الدنيا - ما الدنيا باقيةٌ - ما جزت أعمالكم - ولو لم تُبْقوا شيئاً من جُهْدِكم - أَنْعُمَهُ عليكم العِظامَ، وهُداه إيّاكم للإيمان»[2].

وصارت أخبار الأوّلين، وأحداث التاريخ القريب منها والبعيد، باعثاً لاستنتاج العِبَر، وطرح المواعظ، ووُظِّفَت - في نهج البلاغة - بأساليب خطابيّة ذات مضامين زهديّة، لامست الحسّ الديني لدى الأفراد، وكان أمير المؤمنين يُدرك أنّ العباد بحاجة إلى التذكير الدائم، وأنّ مهمّته الدينيّة تستدعي الإلحاح المستمرّ، وإلقاء الحجج على البشر في بيان فضل الله، وفي أُصول

(١) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ٣/ ٣٣٢.
(٢) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ٣ / ٣٣٢.

الإسلام، وفي قيمة حياة ما بعد الموت، والمقارنة، والترغيب، والترهيب.

«أوَ ليس لكم في آثار الأوّلين مزْدَجرٌ، وفي آبائِكم الأوّلين تبصِرةٌ ومُعْتَبر؛ إن كنتم تعقِلون؟!.

أوَ لم تَروا إلى الماضين منكم لا يرجعون، وإلى الخَلَفِ الباقين لا يبقون؟!.

أَوَلَسْتُم تَرَون أهلَ الدنيا يُمسون ويُصبحون على أحوال شتّى: فميّتٌ يُبْكى، وآخَرُ يُعَزَّى، وصريعٌ مُبتلى، وعائد يعود، وآخرُ بنفسه يجود، وطالبٌ للدنيا والموتُ يطلبُه، وغافلٌ وليس بمغفول عنه؛ وعلى أثر الماضي ما يمضي الباقي!»[١].

وليس هذا فحسب، بل إنّه كثيراً ما يسترفد العِبرةَ، ويبثّ الحكمة، ويستخلص النصيحة، بالاعتماد على تجربة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مع أعمامه وعشيرته الأقربين، وعلى الصراع غير المتكافئ بين الإسلام والشرك، والقوّة القليلة التي غلبت فئةً كثيرة بإذن الله، كي يتّخذ من هذا كلّه، وذاك كلّه، برهاناً على صدق التجربة الزهديّة المأخوذة من صميم الإسلام، والتي ينادي بها ويسعى لتحقيقها.

«لقد كنّا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا، ما يزيدُنا ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً، ومُضيّاً على اللَقَمِ، وصبراً على مَضَضِ الألم، وجدّاً في جهاد العدوّ.

ولقد كان الرَجل منّا والآخرُ من عدوّنا يتصاوَلانِ تصاوُلَ الفَحْلين، يتخالسانِ أنفسهَما، أيُّهما يسقي صاحبَه كأسَ المنون، فمرّةً لنا من عدوّنا، ومرّة لعدوّنا منّا، فلمّا رأى الله صِدْقَنا أنزل بعدوّنا الكَبْتَ، وأنزلَ علينا النصر، حتّى استقرّ الإسلام مُلقِياً جِرانَه، ومتبوّئاً أوطانه»[٢].

---

(١) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ٧ / ٨٠.
(٢) شرح نهج البلاغة - لابن أبي الحديد - ٤ / ٣٣.

مضامين وحدانيّة الله عزّ وجلّ في نهج البلاغة:

يأتي بعضها مخصصاً لهذا الغرض، في مثل: «ززز سبق ا،وقات كونه، والعدم وجوده، والابتداء أوله. بتشعيره المشاعر عپرِف أن لا مشعر له، وبمضادّته بين الأمور عُرف أن لا ضدّ له، وبمقارنته بين الأشياء عُرف أن لا قرين له. ضادّ النور بالظلمة، والوضوح بالبُهْمة، والجمود بالبلل، الحرور بالصَرْدِ..

لا يُشمل بحدّ، ولا يُحسب بعدّ، وإنما اتّحد الأدوات أنفسها، وتشير الآلات إلى نظائرها. منعتها «منذُ» القِدْمة، وحمئها «قد» الأزلية، وجنّبتها «التكملة، بها تجلّى صانعها للعقول، وبها امتنع عن نظر العيون....»[1].

من ذلك: «الحمدُ لله المتجلي لخلقه بخلقه، والظاهر لقلوبهم بحجّته من غير رويَّة؛ إ= كانت الرويّات لا تليقُ إلا بذوي الضمائر، وليس بذي ضمير في نفسه. حَرَقَ عِلمه باطن غيبِ السُتُراتِ، وأحاط بغموض عقائد السريرات..»[2].

وبعد هذا التقديم، يتجه النص إلى بثّ المضمون الزهدي الواعظ:

«... أين تذهبُ بكم المذاهب، وتتيهُ بكم الغياهب، وتخدعكم الكواذب؟! ومن أين تُئْتَون، وأنّى تُؤفكون؟! فلكل أجل كتاب، ولكلِّ غيبة إياب، فاستمعوا من ربّانِيكم...»[3].

الزهد في كلام الإمام علي(ع):

* الزَّهادةُ: قِصرُ الأمل، والشكر عند النِّعم، والتورُّع عند المحارم. (نهج البلاغة: الخطبة ٨١.
* الزُّهدُ أساس اليقين (غرر الحكم: ٣٢).
* الزُّهدُ أصلُ الدِّين (عيون الحكم ٥: ٢٨٤).

---

(١) شرح نهج البلاغة - لابن أبي حديد - ١٣/ ٦٩ - ٧٦.
(٢) شرح نهج البلاغة - لابن أبي حديد -٧/ ١٨١.
(٣) شرح نهج البلاغة - لابن أبي حديد - ٧/ ١٨٩.

* الزُّهدُ أفضلُ الراحتين (شرح غرر الحكم ٢ : ٢١).
* الزُّهدُ أقلُّ ما يوجد، وأجلُّ ما يُعهد، يمدحه الكل، ويتركه الجُل﴾ (غرر الحكم: ٥٢).
* الزُّهدُ ثروة (نهج البلاغة: الحكمة ٤).
* الزُّهدُ ثمرةُ الدِّين (غرر الحكم: ٣١).
* الزُّهدُ ثمرةُ اليقين (عيون الحكم ٥ : ٢٧١).
* الزُّهدُ سجيّةُ المُخلِصين (شرح غرر الحكم ١/ ١٧٦. السَّجيّة: الطبيعة والخُلق).
* الزُّهدُ شيمةُ المتّقين، وسجيّة الأوّابين (غرر الحكم: ٣٩).
* الزُّهدُ في الدنيا الراحةُ العظمى (عيون الحكم ٥ : ٣٠٠).
* الزُّهدُ أن لا تطلب المفقود، حتى يُعدم الموجود (شرح غرر الحكم ١/ ٣٣٠).
* الزُّهدُ تقصير الآمال، وإخلاص الأعمال (غرر الحكم: ٤٣).
* الزُّهدُ في الدنيا قِصرُ الأمل، وشكر كل نعمة، والورع عن كل ما حرّم الله (تحف العقول: ٢٢٠).
* الزُّهدُ قُربة (قانون دستور معالم الحِكَم: ٢٥).
* الزُّهدُ مَتْجَرٌ رابح (عيون الحكم ٥ : ٢٦٨، غرر الحكم ٢١).
* زُهدُ الرَّجل فيما يفنى، على قدْرِ يقينه بما يبقى (غرر الحكم ١٨٩).
* زهدُ العالِم رحمة، وزهدُ العاميّ مفضلّة (نثر الآلئ ٩).
* الزُّهدُ مفتاح صلاح (شرح غرر الحكم ١ : ١٩٣).
* الزُّهدُ في الدنيا، كلما ازدادت له تجلّياً، ازداج عنها تولّياً (بحار الأنوار ٧٧ : ٤١٩).
* الزّاهدُ في الدنيا مَن لم يغلب الحرام صبره، ولم يشغَلِ الحلال شُكره (تحف العقول ٢٠٠).

* الزّاهدُ في الدينار والدرهم، أعزُّ من الدينار والدرهم (شرح نهج البلاغة ٢٠:٣٠١).
* الزّاهدُ لا يُعظِّم ما آتاه الله فرحاً به، ولا يُكثر على ما فاته أسفاً (قانون دستور معالم الحكم ١٨٣).
* بالزُّهد تُثمر الحكمة (غرر الحكم ١٤٦).

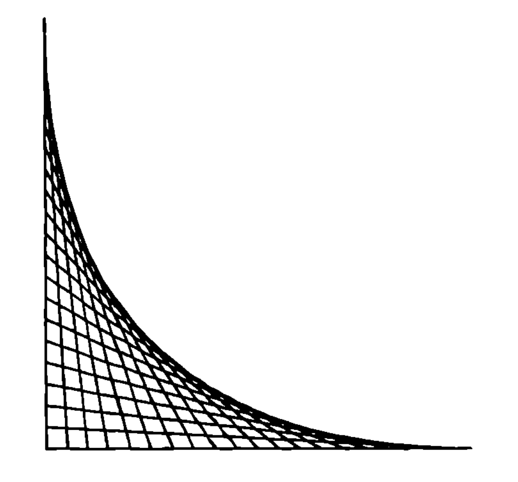
المبحث السادس:

الأخلاق الاجتماعية

طرق وموانع تهذيب النفس

والأمور المساعدة على تهذيبها

وخطوات تهذيب النّفس



من الأخلاق الاجتماعية

إن الأخلاق الحسنة كثيرة وعديدة، وينبغي للسالك أن يهتمّ بها كلها، لأن لكل منها أثره وثماره، وعدم الاهتمام بها سيؤدّي إلى الحرمان من فوائدها، وسنبيّن بعض تلك الأمور الأخلاقية التي تعدّ ضرورية في حياتنا الاجتماعية، لأن العبادة لا تقتصر في الإسلام على الصلاة، والصيام، والحجّ والزيارة، والذكر، والدعاء، ولا تنحصر بالمساجد والمعابد والمزارات، بل يعتبر القيام بالمسؤوليات الاجتماعية والإحسان وخدمة عباد الله اذا كان مع قصد القربة من أفضل العبادات، حيث يمكن أن يكون وسيلة لبناء وإكمال النفس والتقرّب من الله. فالسير والسلوك في الإسلام لا يستلزم الانزواء، بل يمكن أن يكون من خلال قبول المسؤوليات الاجتماعية وفي وسط المجتمع، والتعاون في الخير والإحسان، والسعي في حوائج المؤمنين، وإدخال السرور إلى قلوبهم، والدفاع عن المحرومين والمستضعفين، والاهتمام بأمور المسلمين، وقضاء حاجاتهم، وحلّ مشاكلهم، ومساعدة عباد الله؛ وكل هذه الأمور تعتبر في الإسلام من العبادات الكبيرة، وثوابها أكبر من عشرات الحجج المقبولة المبرورة.

١ - لين الجانب:

إنّ هذه الصفة عظيمة، وهي تعبّر عن وصول الرحمة إلى قلب الإنسان، وقد وصف الله سبحانه بها رسوله الكريم: ﴿فبمَا رحمةَ مِّنَ الله لِنتَ لهُمْ ولوْ كنتَ فظّاً غليظ القلب لانفضُّوا من حولِك﴾[1].

---

(١) آل عمران: ص ١٥٩.

٢ - إدخال السرور على المؤمن:

وهو من الأهمية بحيث أن أهل البيت عليهم السلام قرنوا بين إدخال السرور على قلب المؤمن وبين سرورهم، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «لا يرى أحدكم إذا أدخل على مؤمن سروراً أنه أدخله عليه فقط، بل والله علينا، بل والله على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[١].

ومن أروع ما نجده في هذا المجال، وصيّة الإمام الصادق عليه السلام للنجاشي حيث يقول فيها: «يا عبد الله إيّاك أن تخيف مؤمناً، فإن أبي حدَّثني عن أبيه عن جده، من نظر إلى مؤمن نظرة ليخيفه بها أخافه الله، يا عبد الله وحدّثني أبي عن آبائه عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «نزل جبرئيل عليه السلام، فقال: من أدخل على أخيه المؤمن سروراً فقد أدخل على أهل بيت نبيه عليهم السلام سروراً، ومن أدخل على أهل بيته سروراً فقد أدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سروراً، ومن أدخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سروراً فقد سرّ الله، ومن سرَّ الله فحقيق على الله أن يدخله مدخله. . . »[٢].

٣ - الرفق والمداراة:

وقد وردت الروايات في الحث عليها، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مداراة الناس نصف الإيمان، والرفق بهم نصف العيش»[٣].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «رأس العقل بعد الإيمان بالله عزّ وجلّ التحبّب إلى الناس».

وعن الصادق عليه السلام: جاء جبرئيل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «يا محمد ربُّك يقرئك السلام ويقول لك: دار خلقي»[٤].

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم،

---

(١) المشكيني، مسلكنا، ص ٣٧٢.
(٢) الشيخ الأنصاري، المكاسب المحرمة، ج ١، ص ١٨١- ١٨٣.
(٣) مسلكنا، ص ٣٩٢.
(٤) مسلكنا، ص ٣٩٤.

فسعوهم بطلاقة الوجه وحسن اللقاء»[١].

وعنه عليه السلام: «دار الناس تستمتع بإدخالهم، وألقهم بالبشر تمت أضغانهم»[٢].

٤ - الصفح عن الآخرين:

وهو من أعظم المكارم، فقد خاطب الإمام الصادق عليه السلام أحد أصحابه بقوله: «ألا أحدّثك بمكارم الأخلاق؟ الصفح عن الناس، ومواساة الرجل أخاه في ماله، وذكر الله كثيراً»[٣][٤].

٥ - قضاء حاجة المؤمن:

وقد وصفتها الروايات بالرحمة وأنها تفرّج الهمّ يوم القيامة، وتيسرّ الحوائج في الدنيا، وعن الصادق عليه السلام: «نّ العبد ليمشي في حاجة أخيه المؤمن فيوكّل الله عزّ وجل به مَلَكَين، واحداً عن يمينه وآخر عن شماله يستغفران له ربّه ويدعوان بقضاء حاجته...»[٥].

وعنه عليه السلام: «أيُّما مؤمن قصده أخوه في حاجة، أو مستجيراً به في بعض أحواله، فلم يعنه ولم يجره، وهو يقدر على ذلك، فقد قطع ولاية الله، وأيُّما مؤمن منع مؤمناً شيئاً مما يحتاج إليه، وهو يقدر عليه من عنده أو من عند غيره أقامه الله يوم القيامة مسودّاً وجهه، مزرقّة عيناه، مغلولة يداه إلى عنقه، ويقال له: هذا الخائن الذي خان الله ورسوله، ثم يؤمر به إلى النار»[٦].

وقد وردت في هذا الخصوص مئات الأحاديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار عليهم السلام.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «قال الله عزّ وجلّ: الخلقعيالي فأحبّهم

---

(١) المجلسي - بحار الأنوار - مؤسسة الوفاء - بيروت لبنان - الطبعة الثانية المصححة - ج ٦٨، ص ٣٨٣.
(٢) الريشهري محمد - ميزان الحكمة - دار الحديث الطبعة الأولى - ج ٢، ص ٨٦٥.
(٣) الحر العاملي - وسائل الشيعة - مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث - الطبعة الثانية - ج ١٥، ص ٢٠٠.
(٤) الريشهري محمد - ميزان الحكمة - دار الحديث الطبعة الأولى - ج ٣، ص ١٤٨.
(٥) الكليني - الكافي - دار الكتب الإسلامية - الطبعة الثانية - ج ٢، ص ١٩٤.
(٦) الكليني - الكافي - دار الكتب الإسلامية - الطبعة الثالثة - ج ٢، ص ٣٦٧.

إليّ ألطفهم بهم وأسعاهم في حوائجهم»[١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الخلق عيال الله فأحبّ الخلق إلى الله مَن نفع عيال الله وأدخل على أهل بيت سروراً»[٢].

عن الإمام أبي جعفر عليه السلام قال: «تبسُّم الرجل في وجه أخيه حسنة، وصرف الأذى عنه حسنة، وما عبد الله بشيء أحبّ إلى الله من إدخال السرور على المؤمن»[٣].

وقال الصادق عليه السلام: «مَن سرّ مؤمناً فقد سرَّني، ومَن سرَّني فقد سرَّ رسول الله، ومَن سرَّ رسول الله فقد سرَّ الله، ومَن سرَّ الله أدخله جنّته»[٤].

وعنه عليه السلام: «لَقَضاء حاجة امرىء مؤمن أحبّ إلى الله من عشرين حجّة، كلّ حجّة ينفق فيها صاحبها مائة ألف»[٥].

وعنه عليه السلام: «مشي المسلم في حاجة المسلم خير من سبعين طوافاً بالبيت الحرام»[٦].

وعنه عليه السلام: «إنَّ لله عباداً من خلقه يفزع العباد إليهم من حوائجهم، أوّلئك هم الآمنون يوم القيامة»[٧].

وعن معاوية بن وهب قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام كيف ينبغي أن نصنع فيما بينا وبين قومنا، وفيما بيننا وبين خلطائنا من الناس ممّن ليسوا على أمرنا؟ قال عليه السلام: «تنظرون إلى أئمّتكم الذين تقتدون بهم

---

(١) الكليني - الكافي - دار الكتب الإسلامية، آخوندي - الطبعة الثالثة/ ابن بابويه - علي - نقه الرضا - مؤسسة أهل البيت، ج ٢، ص ١٩٩.

(٢) ن.م. ج ٢، ص ١٦٤.

(٣) الكليني - الكافي - دار الكتب الإسلامية، آخوندي - الطبعة الثالثة - ج ٢، ص ١٨٨.

(٤) المجلسيّ-محمّد باقر -بحار الأنوار- مؤسسة الوفاء .الطبعة الثانية المصححة -ج ٧٤ ص ٤١٣.

(٥) الكليني-الكافي- دار الكتب الإسلاميّة .آخوندي-الطبعة الثالثة، ج٢ ص ١٩٣.

(٦) المجلسيّ-محمّد باقر -بحار الأنوار- مؤسسة الوفاء .الطبعة الثانية المصححة -ج ٧٤،ص ٣١١.

(٧) ن.م. ج ٧٤، ص ٣١٨.

فتصنعون ما يصنعون، فوالله إنَّهم ليعودون مرضاهم، ويشهدون جنائزهم، ويقيمون الشهادة لهم وعليهم، ويؤدّون الأمانة إليهم»[١].

الإمام الخميني قدس سره وخدمة الناس:

يعتبر الإمام الخميني قدس سره: «أنَّ خدمة الناس والسعيّ في قضاء حاجاتهم، والعمل على رفع الحرمان عنهم، أحد أهمّ الوظائف التي ينبغي للمؤمنين أن يقوموا بها، بل إنَّه يعتبر خدمتهم خدمة للحق المطلق سبحانه وتعالى».

وحيث إنَّ النفس الإنسانيّة تنزع إلى الشعور بالفضل والامتياز حينما تقوم بالإحسان وخدمة الناس، أو قد تنطلق في هذا العمل بهدف الحصول على مكاسب ذاتيَّة، كالشهرة، والسمعة، وكسب ودّ الناس، فإنّه رحمه الله يحذّر بشدّة من هذا وذاك ويعتبر أنَّ الناس هم الذين ينبغي أن يكونوا في موقع المنَّة، لأنَّهم وفَّروا للآخرين وسيلة للتقرُّب إلى الله ونيل رضاه سبحانه.

يقول قدس سره في رسالته لابنه:

«ما دمنا عاجزين عن شكره تعالى ونعمائه التي لا نهاية لها، فحبذا أن لا نغفل عن خدمة عباده، فخدمتهم خدمة للحقِّ تعالى، ولو أنَّ الجميع منه.

لا ترى لنفسك أبداً فضلاً على خلق الله حين تخدمهم، فهم الذين يمنُّون علينا حقَّاً بفضل كونهم وسيلة إلى الله جلّ وعلا، ولا تسعى لكسب الشهرة والمحبوبيَّة عن طريق الخدمة، فهذا بحدِّ ذاته حيلة من حبائل الشيطان الذي يوقعنا في شباكه.

واختر في خدمة عباد الله ما هو أكثر نفعاً لهم لا لك، ولا لأصدقائك، فهذا الاختيار علامة الصدق في الحضرة المقدَّسة لله جلَ وعلا».

ويقول في موضع آخر: «أيُّها المستضعفون، نحن مرتهنون لإحسانكم وإذا كنا نليق فنحن خدَّامكم».

---

(١) الكليني-الكافي- دار الكتب الإسلاميّة .آخوندي-الطبعة الثالثة، ج٢ ص ٤٦٤.

طرق تهذيب النفس:

إذا أراد الإنسان أن يهذب نفسه، فلا بدّ من أن يلتفت إلى الطرق التي يمكن استخدامها للقيام بهذا الأمر، وهذه الطرق هي:

أ - الوقاية: وهي بمعنى التوقِّي من أول الأمر بالحيطة والحذر، وتجنب ما يؤدي إلى الوقوع في المعاصي والأخلاق السيئة، وهي أفضل وأسهل وسيلة لتهذيب النفس، لأن النفس قبل إصابتها وتلوثها تكون أكثر استعداداً للتخلق بأخلاق الله وعمل الخير، وتكون أقدر على مواجهة إغراء الدنيا ووسوسة الشيطان، ولذا فإن ترك المعاصي أيسر من الحصول على التوبة.

يقول الإمام علي عليه السلام: «ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة، وكم من شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً»[١].

ولذلك فإن عمر الشباب هو عمر مناسب جداً لهذا الأمر، حيث ينبغي ألا يكون قد حصل التلوث بحبِّ الدنيا في هذا العمر.

ب - الترك المباشر: لو فرضنا أن الوقاية لم تنجح بشكل كامل، وابتلى الإنسان بالمعاصي وسوء الخلق، فإن أفضل وسيلة لعلاج ذلك هو الترك المباشر والدفعي للمعاصي، والتوبة مباشرة بتصميم قاطع، وإرادة قوية، والتغلب على الشيطان والنفس الأمارة بالسوء دفعة واحدة، وربما يحصل هذا الأمر نتيجة سماع آية أو حصول حادثة أو غير ذلك، ويمكن أن نلحظ هنا ذلك التحول الكبيروالسريع الذي حصل في حياة بشر الحافي، ولم يكن هذا التحول إلا نتيجة كلمة قالها الإمام الكاظم عليه السلام وهي: «. . لو كان (بشر) عبداً لخاف من مولاه».

وبالترك المباشر والدفعي للسيئات، نقطع الطريق على إبليس وأعوانه، ونتخلص من هذه الأمراض كما تخلص منها بشر الحافي.

ج- الترك التدريجي: إذا لم نستطع تهذيب أنفسنا دفعة واحدة، فيمكن أن نقوم بذلك بشكل تدريجي، بأن نقوم بترك ذنب أو مجموعة ذنوب، وبذلك نكون قد بدلنا نقطة سوداء في قلوبنا إلى نقطة بيضاء، ومن ثم نقوم بترك ذنب

---

(١) الكليني-الكافي- دار الكتب الإسلاميّة .آخوندي-الطبعة الثالثة، ج ٢، ص ٤٥١.

آخر، وهكذا إلى أن نكون بعد فترة قد ابتعدنا تماماً عن الذنوب، وأخرجنا الصفات السيئة من أنفسنا، وسددنا ضربة موجعة للشيطان، تضعفه عن محاولة إضلالنا وإسقاطنا في وادي الهلاك.

الأمور المساعدة على تهذيب النفس:

وأما الأمور التي يمكن لها أن تساعدنا على تهذيبنا لأنفسنا، فهي:

أ- التفكر: إن الإنسان إذا انشغل بأموره الدنيوية، وغفل عن الآخرة وآثار أعماله فيها، فإنه لن يندفع لتهذيب نفسه، وهنا ما الحل؟

الحل في التفكر، التفكر في العاقبة، وفي نتائج أعماله في الآخرة، وفيما سيحصل له في عالم القبر ويوم القيامة. إن هذا التفكر سيلجم الإنسان عن ارتكاب ما يؤدي إلى سوء العاقبة.

يقول الإمام علي عليه السلام: «من عمر قلبه بدوام الفكر حسنت أفعاله في السر والجهر»[١].

ب - التأديب والمجازاة: يمكن للمرء أن يتوعد نفسه بالعقاب فيما لو ارتكبت المعصية، فإن فعلت عاقبها بأحد هذه الأمور: إما بالصوم يوماً، أو بدفع مبلغ مالي، أو بحرمان النفس من وجبة طعام، أو مما تشتهيه وهكذا.. وإن أقلعت يكون قد كبح جماحها، فلا يتهاون معها ولا ينساق مع العادات السيئة التي تحكمت بها.

يقول الإمام علي عليه السلام: «تولوْا من أنفسكم تأديبها واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها»[٢].

ويقول عليه السلام: «نعم العون على أسر النفس وكسر عادتها الجوع»[٣].

ج - الإلتفات إلى قيم الذات وتقوية القيم الإنسانية:

إن نفس الإنسان جوهرة ثمينة، جاءت إلى الوجود من عالم الكمال

---

(١) غرر الحكم، ص ٣٥٣، حكمة ١٠٥٠.
(٢) م. ن. صفحة ١٧٨، حكمة ١٢٩.
(٣) غرر الحكم، ص ٧٧٣.

والجمال، فإذا أدرك الإنسان ذلك فإنه سوف ينأى بنفسه عن ارتكاب ما لا ينسجم مع مقامه كخليفة لله ومحلٍ لتكريمه، لأن تلك النفس خلقت لتترفع عن الدنس والخطايا، ولترتقي في عالم القرب إلى الله، وهذا ما يدفع نحو تهذيب النفس.

فعلى السالك عندها أن يقوم بأمرين:

الأول: أن لا يستجيب لتلك الصفة السيئة في نفسه.

الثاني: أن يعمل على تقوية تلك الصفة الحسنة المقابلة لها، ويفرض على نفسه العمل بها حتى يعتاد عليها تدريجياً، لتتحول إلى ملكة وصفة راسخة في نفسه، وفي ذلك يقول الإمام علي عليه السلام «عود نفسك فعل المكارم، وتحمل أعباء المغارم، تشرف نفسك، وتعمر آخرتك، ويكثر حامدوك»[١].

موانع تهذيب النفس:

كما ينبغي على الانسان أن يهتم بطرق التهذيب، عليه أيضاً أن يزيل الموانع التي تحول دون تهذيب نفسه.

وذلك بالكف عن أمرين:

أ- ترك معاشرة أهل السوء:

إن الإنسان يتأثر بأقرانه، سواءً من حيث يشعر أو لا يشعر، ولذا إن كان لا بد من صحبة فيجب أن يكون الأصحاب من الأخيار، الذين يُقرِّبُون من الجنة ويُبعِّدون عن النار، من هنا أكدت الروايات كثيراً على اتخاذ الأصحاب من المؤمنين الصالحين، وضرورة الابتعاد عن قُرنَاء السوء، لما لذلك من أثر طيب على المرء في اخلاقه وأعماله، بل وفي دينه، يقول الإمام علي عليه السلام: «احذر مجالسة قرين السوء فإنه يهلك مقارنه ويردي مصاحبه»[٢].

ب - الابتعاد عن الموارد التي يحتمل أن يضعف فيها:

بما أن الإنسان يتأثر بالأمور التي تحيط به، فإنه من الممكن أن يضعف في بعض المواطن، أو الحالات التي تتهيأ فيها أجواء المعصية، كمجالس الفسق والفجور ومراكز السوء، والخلوة بالمرأة الأجنبية والمزاح معها، والنظر

---

(١) م. ن. صفحة ٢٦١، حكمة ٢٦١.

(٢) م. ن. صفحة ٩١، حكمة ١٩.

إلى المشاهد المثيرة للغرائز والشهوات، من هنا كان عليه أن يبتعد عن تلك الموارد التي يقوى فيها الشيطان عليه، حتى لا يقع في المعصية، يقول الإمام علي عليه السلام: «إذا أبصرتِ العينُ الشهوة، عمي القلب عن العاقبة»[1].

إن الإنسان الذي يعنى بتهذيب نفسه لا بد أن يقدم على كل ما من شأنه أن يوصله إلى هدفه السامي، لكي يحث السير ويسرع في الوصول قبل فوات الأوان.

ج - حب الدنيا:

والمراد بها حب الدنيا المذمومة بالنظرة الاسلامية ويأتي الحديث عن هذا الأمر لأهميته في درس مستقل.

قصة بشر الحافي[2]:

في عصر الإمام الكاظم عليه السلام كان يعيش في بغداد رجل معروف يقال له بشر. وكان ممن يشار إليه بالبنان، وحدث يوماً أن كان الإمام الكاظم عليه السلام ماراً من أمام بيت بشر، وكانت أصوات اللهو والطرب تملأ المكان، فصادف أن فتحت جارية باب الدار لإلقاء بعض الفضلات، وحين رمت بها في الطريق سألها الإمام عليه السلام قائلاً: «يا جارية! هل صاحب هذه الدار حر أم عبد»؟!

فأجابته الجارية وهي مستغربة سؤاله هذا وبشر رجل معروف بين الناس، وقالت: بل هو حر!! فقال الإمام عليه السلام: «صدقت، لو كان عبداً لخاف من مولاه».

الإمام عليه السلام قال هذه الكلمة وانصرف. فعادت الجارية إلى الدار وكان بشر جالساً إلى مائدة الخمر، فسألها: ما الذي أبطأك؟ فنقلت له ما دار بينها وبين الإمام عليه السلام، وعندما سمع ما نقلته من قول الإمام عليه السلام: «صدقت، لو كان عبداً لخاف من مولاه» اهتز هزاً عنيفاً أيقظه من غفلته، وأيقظه من نومته، نومة الغفلة عن الله. ثم سأل بشر الجارية عن الوجهة

(١) م. ن. صفحة ١٥٥، حكمة ٤.
(٢) العلامة الحلي-محتاج الكرامة-ص ٥٩ (بتصرف).

التي توجه إليها الإمام، فأخبرته فانطلق يعدو خلفه، حتى أنه نسي أن ينتعل حذاءه. وكان في الطريق يحدث نفسه بأن هذا الرجل هو الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وفعلاً ذهب إلى منزل الإمام فتاب على يده، واعتذر وبكى، ثم هوى على يدي الإمام يقبلها وهو يقول: سيدي أريد من هذه الساعة أن أصبح عبداً ولكن عبداً لله، لا أريد هذه الحرية المذلة التي تأسر الإنسانيّة فِي، وتطلق العنان للشهوة الحيوانية. لا أريد حرية السعي وراء الجاه والمنصب، لا أريد حرية الخوض في مستنقع الذنوب وأغدو أسيراً لها، لا أريد أن تؤسر فِي الفطرة السليمة والعقل السليم. من هذه الساعة أريد أن أصبح عبداً لله ولله وحده، حُراً تجاه غيره.

وتاب بشر على يد الإمام الكاظم عليه السلام، ومنذ تلك اللحظة هجر الذنوب ونأى عنها وأتلف كل وسائل الحرام، وأقبل على الطاعة والعبادة. بشر هذا هو مهاجر أيضاً لأن »المهاجر من هجر السيئات«.

أسس تهذيب النفس (العلاقة مع الله):

إن الإنسان ما دام حياً في هذه الدنيا تتوفر لديه فرصة الإرتقاء في مدارج الكمال، فإن كان مبتلى بعيوب فعليه أن يتخلص منها ويصلح نفسه، وإن كان موفقاً بالتَّحلي بصفات نفس جيدة وأعمال جوارح حسنة، فعليه أن يسعى نحو الأحسن، ولكن الإصلاح وتهذيب النفس لا يأتي صدفة، وإنما هو نتيجة سعي الإنسان؟وَأَن لَّيسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ (النجم: ٩٣)، فما هو البرنامج الذي يساعده على ذلك؟

السؤال المطروح هنا: ما هي الخطوات المتّبعة لتهذيب النفس؟

خطوات تهذيب النّفس:

أولاً: يشارط نفسه على ما تفعله وتتركه.

ثانياً: يراقبها دائما وأبداً وفي جميع الحالات ليمنعها من أي انحراف محتمل.

ثالثاً: يحاسبها ليرى مدى التزامها بما اشترطه عليها.

رابعاً: يعاتبها لو تبين له عدم التزامها بما اشترطه عليها.

خامساً: له أن يعاقبها بعد إدانتها، فيمنعها من تحقيق شهواتها سيما في موارد تقصيرها.

هذه الخطوات الخمس هي البرنامج اليومي الذي يجب أن يلتزم به الإنسان.

هذا على نحو الإجمال وسنتحدث عن هذه المراحل بشيء من التفصيل.

المشارطة:

فالمشارطة هي أن يشارط الانسان نفسه في أول يومه على أن لا يرتكب اليوم أي عمل يخالف أوامر الله تعالى، ويتخذ قرارا بذلك ويعزم عليه، وأما العزم فيكون عند كل شخص بحسبه فمن كان تاركا لبعض الواجبات فعليه أن يعزم على أن لا يترك واجباً، ومن كان فاعلا للمحرمات والعياذ بالله فعليه أن يعزم على تركها، وأما من كان قد ترفّع عن هذين الأمرين بحيث كان يفعل الواجب ويترك المحرم فعليه أن يعزم على الثبات، وواضح أن ترك ما يخالف أوامر الله تعالى ليوم واحد أمر يسير للغاية، ويمكن للإنسان بكل سهولة أن يلتزم به، وإن اختلفت درجات يسره من شخص لآخر إلا أنه في النهاية أمر يسير، فاعزم وشارط نفسك وجرب، وأنظر كيف أن الأمر سهل يسير، فإن الله تعالى إذا رأى من العبد سعياً للتقرب إليه أخذ بيده ويسر له أمره ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ (الليل: ٧)، ومن الممكن أن يصور لك إبليس اللعين وجنده أن الأمر صعب وعسير. فاعلم أن هذه هي من تلبيسات هذا اللعين، فالعنه قلباً وعملاً، وأخرج الأوهام الباطلة من قلبك، وجرب ليوم واحد، فعند ذلك ستصدق هذا الأمر.

وينبغي الالتفات هنا أن لا يثقل الإنسان على نفسه كما ورد في الرواية عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله عز وجل وضع الإيمان على سبعة أسهم على البر والصدق واليقين والرضا والوفاء والعلم والحلم، ثم قسم ذلك بين الناس، فمن جعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كامل، محتمل، وقسم لبعض الناس السهم ولبعض السهمين ولبعض الثلاثة حتى انتهوا إلى سبعة، ثم قال: لا تحملوا على صاحب السهم سهمين ولا على صاحب السهمين ثلاثة فتبهضوهم...»[١].

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص ٤٢.

المراقبة:

وبعد هذه المشارطة عليك أن تنتقل إلى »المراقبة«، وهي أن تنتبه طوال اليوم إلى عملك، وإذا حصل لا سمح الله حديث لنفسك بأن ترتكب عملاً مخالفاً لأمر الله وهذا أمر ممكن الحصول لأن الشيطان وجنده لن يدعوك تهزمهم بهذه السهولة، فهم يريدونك أن تتراجع عمّا اشترطته على نفسك، فالعنهم واستعذ بالله من شرهم، واخرج تلك الوساوس الباطلة من قلبك، وقل للشيطان: «إني اشترطت على نفسي أن لا أقوم في هذا اليوم وهو يوم واحد بأي عمل يخالف أمر الله تعالى، وهو ولي نعمتي طول عمري، فقد أنعم وتلطّف عليّ بالصحة والسلامة والأمن وألطاف أخرى، ولو أني بقيت في خدمته إلى الأبد لما أديت حق واحدة منها، وعليه فليس من اللائق أن لا أفي بشرط بسيط كهذا»، والمراقبة لا تتعارض مع أي من أعمالك كالكسب والسفر والدراسة، فكن على هذه الحال إلى الليل ريثما يحين وقت المحاسبة١.

المحاسبة:

وأما »المحاسبة« فهي أن تحاسب نفسك لترى هل أدّيت ما اشترطت على نفسك مع الله، ولم تخن ولي نعمتك في هذه المعاملة الصغيرة؟ وقد ورد عن أمير المؤمنين: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ووازنوها قبل أن توازنوا، حاسبوا أنفسكم بأعمالها وطالبوها بأداء المفروض عليها والأخذ من فنائها لبقائها»[1] وعنه: «ما أحق الإنسان أن تكون له ساعة لا يشغله شاغل، يحاسب فيها نفسه فينظر فيما اكتسب له وعليها، في ليلها ونهارها»[2]، وإذا كنت قد وفيت حقاً فاشكر الله على هذا التوفيق، وإن شاء الله ييسر لك سبحانه التقدم في أمور دنياك وآخرتك، وسيكون عمل الغد أيسر عليك من سابقه، لأن النفس مطواعة لعقل الإنسان كالشمع في يديه لا كالحديد إذ من الصعب أن يلوى، فعلى الإنسان أن يطوع نفسه على الأمور الحسنة ولو كانت للشر أميل منها للخير فالإنسان نفسه هو الذي أوصلها لهذه الحالة، كما أن النفس في صغر

---

(١) الأربعون حديثاً للإمام الخميني قدس سره الحديث الأول بتلخيص وتصرف.
(٢) مستدرك الوسائل، ج ١٢، صفحة ١٥٣..

العمر أسهل إصلاحاً من الكبر، ولذا اشتهر القول «العلم في الصغر كالنقش في الحجر»، فعلى الإنسان المهتم بإصلاح النفس أن يجهد في شبابه لاقتلاع الملكات الرديئة التي يصعب قلعها في الكبر، وهذا ما حثت عليه الروايات منها قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لأبي ذر الغفاري رضوان الله تعالى عليه: «يا أبا ذر، اغتنم خمسا قبل خمس، شبابك قبل هرمك...»[١].

المعاتبة والمعاقبة:

بعد أن يشترط الإنسان على نفسه ويراقبها ويحاسبها فإن تبين له أنها ارتكبت ما يخاف الشرط الذي اشترطه عليها، فلا بد أن يعاتبها ثم يعاقبها من أجل أن تتم صفقته ويجني ثمارها، وإلا فلم يجد إلا أنه قد أهدر عمره وقد خسر رأس ماله في صفقة خاسرة لم يتدارك الخسارة فيها من أولها، وفي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «حق على كل مسلم يعرفنا أن يعرف عمله في كل يوم وليلة على نفسه، فيكون محاسب نفسه، فإن رأى حسنة استزاد منها وإن رأى سيئة استغفر منها، لئلا يخزى يوم القيامة»[٢] يقول الفيض الكاشاني: والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم خرج أمرهم من يدك وبغوا عليك، ثم تهمل نفسك وهي أعظم عداوة لك وضراوة، وأشد طغيانا عليك، وضررك من طغيانها أعظم من طغيان أهلك، فإن غرضهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة، وأن نعيم الجنة هو النعيم المقيم الذي لا آخر له، ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة فهي أولى بالمعاقبة من غيرها[٣].

العقوبة على قدر المخالفة:

كان علماؤنا العظام قدس الله تعالى أسرارهم يشارطون ويعاهدون الله تعالى على فعل ما أو ترك أمر ما وينذرون الصيام لأوقات محددة لو خالفوا ما

---

(١) مستدرك الوسائل، ج ١٢، صفحة ١٥٤..
(٢) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج١، ص ١١٤.
(٣) مستدرك الوسائل، ج ١٢، صفحة ١٥٣.

شرطوه على أنفسهم، وبذلك يكون مثل هذا النذر مانعاً لهم عن مخالفة الشرط لأن ثقل العقاب يشكل رادعا عن ارتكاب الجريمة.

ومن المناسب أن يلتفت الإنسان إلى أن العقوبة يحسن أن تكون من صنف الخيانة التي قام بها الإنسان لشرطه، فلو كانت الخيانة مرتبطة بالطعام والشراب فليكن العقاب بالمنع عنهما كالصوم، ولو كانت من صنف شهوة النساء فيكون العقاب للنفس بمنعها عن هذه الشهوة لمدة يحصل بها الغرض من العقاب، ولو كانت بسبب كثرة الكلام، فليعاقب نفسه بالصمت لفترة وهكذا.

العقاب ضمن الموازين الشرعية:

إن إيجابية أن يعاقب الإنسان نفسه لا تعني أن يعاقبها بأي عقاب، كما قد يفعل بعض الناس كأن يعذبون أنفسهم بشكل مؤذٍ وخطير، والإنسان المؤمن بالله واليوم الآخر عليه أن يلتفت إلى حدود الشريعة في هذا المورد كما في سائر الموارد وكما هو معروف «لا يطاع الله من حيث يعصى»، ولعل الصوم من أفضل الأمور التي يستعان بها على النفس لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ...﴾ (البقرة: ٥٤) والمقصود من الصبر الصيام، كما تؤكد الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام[١)(٢].

(١) المحجة البيضاء، الفيض الكاشاني قدس سره، ج٨، ص ١٦٩.
(٢) الكافي، ج٤، ص ٣٦.

المبحث السابع:

في الإيمـــــان

(علامات وأوصاف المؤمن

حقيقة الإيمان

عوامل زيادة وزوال الإيمان

مراتب وأنواع الإيمان

وأثر الإيمان والكفر على الفرد

والمجتمع)

الإيمان وعلامات المؤمن

معنى الإيمان ومسمّاه:

أصل الإيمان: الاذعان إلى الحقّ على سبيل التصديق له واليقين. ولكنه صار اسما لشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم[1].

واختلفوا في مسمى الإيمان في العرف الشرعي:

فقد ذهب المعتزلة والخوارج والزيدية وأهل الحديث إلى أنّ الإيمان اسم لأفعال القلوب والجوارح مع الاقرار باللسان. وأنّ الإيمان يتناول طاعة اللّه ومعرفته مع ما جعل اللّه تعالى عليه دليلاً عقليا أو نقليا في الكتاب والسُنّة المطهّرة. وأنّ الاخلال بواحد من هذه الأُمور كفرٌ.

وذهب أبو حنيفة والأشعري إلى أنّ الإيمان يحصل بالقلب واللسان معا.

وهناك فريق ثالث يرى أنّ الإيمان عبارة عن الاعتقاد بالقلب فقط. وتبلور عنه اتجاه يحصر الإيمان في نطاق ضيق هو معرفة اللّه بالقلب حتى أنّ من عرف اللّه ثم جحد بلسانه ومات قبل أن يقرّ به فهو مؤمن كامل الإيمان. وبالمقابل برز فريق رابع يرى أنّ الإيمان - حصرا - هو الإقرار باللسان فقط.

وتبلور عنه اتجاه يرى أنّ الإيمان هو إقرار باللسان ولكن بشرط حصول المعرفة في القلب[2].

---

(١) جهاد النفس، إعداد ونشر جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، ط١، حزيران ٢٠٠٥ م، ص ١٣٣- ١٤١.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الاصفهاني: ١٠٠ مكتبة الكليات الازهرية - مصر ١٣٩٣ هـ ط ١.

ولكن التدبر في آيات القرآن الكريم يكشف حقيقة أُخرى للإيمان بعيدة عن كلِّ ما تقدم، وهي أنّ الإيمان ليس مجرد العلم بالشيء والجزم بكونه حقاً، لأنَّ الذين تبين لهم الهدى لم يردعهم ذلك عن الارتداد على أدبارهم ولم يمنعهم من الكفر والصد عن سبيل اللّه ومشاقة الرسول كما في قوله تعالى: ﴿إنَّ الَّذين ارتَدُّوا على ادبارِهم مِنْ بَعدِ ما تَبينَ لهَمُ الهُدى. . . إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللّه وشَاقُّوا الرسُولَ مِن بَعدِ ما تَبَيَنَ لهُم الهُدى﴾[١][٢].

ومن هنا يظهر بطلان ما قيل: أنّ الإيمان هو العمل، وذلك لأنّ العمل يجامع النفاق، فالمنافق له عمل، وربما كان ممن ظهر له الحق ظهورا علميا، ولا إيمان له على أي حال[٣].

وفي هذا الخصوص، وردت أحاديث كثيرة عن أهل البيت عليهمالسلام تعكس التصور الإيماني الصحيح وفق نظرة شمولية ترى أنّ الإيمان هو عقد بالقلب وقول باللِّسان وعمل بالاركان.

سُئل أمير المؤمنين عليه السلام عن الإيمان، فقال: «الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان[٤].

وقال الإمام الباقر عليه السلام في معرض تفريقه بين الإسلام والإيمان: «الإيمان إقرار وعمل والإسلام إقرار بلا عمل»[٥].

ويؤكد الإمام الصادق عليه السلام على قاعدة التلازم بين القول والعمل في تحقق مفهوم الإيمان، فيقول: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن الإيمان ما خلص في القلوب وصدّقته الأعمال»[٦]. وعن سلام الجعفي قال: سألت أبا عبداللّه عليه السلام عن الإيمان فقال: «الإيمان أن يطاع اللّه فلا يعصى»[٧].

---

(١) التفسير الكبير، للفخر الرازي ١: ٢٣، ٢٥ الجزء الثاني.
(٢) سورة محمد ٤٧: ٢٥ و٣٢.
(٣) تفسير الميزان، للعلاّمة الطباطبائي ١٨: ٢٥٩ مؤسسة الأعلمي - بيروت ١٣٩٣ هـ ط ٢.
(٤) نهج البلاغة، صبحي الصالح: ٥٠٨/ حكم ٢٢٧.
(٥) تحف العقول: ٣٧٠. (٦) تحف العقول: ٣٧٠.
(٧) أُصول الكافي ٢: ٣/٣٣ كتاب الإيمان والكفر.

اوصاف المؤمن:

سأل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن صفة المؤمن، فقال: «عشرون خصلة في المؤمن، فإن لم تكمل فيه لم يكمل إيمانه:

إنّ من أخلاق المؤمنين يا عليّ: الحاضرون الصّلاة، والمسارعون إلى الزّكاة، والمطعمون للمساكين، الماسحون لرأس اليتيم، المطهّرون أطمارهم، المتّزرون على أوساطهم، الّذين إن حدّثوا لم يكذبوا، وإن وعدوا لم يخلفوا، وإن ائتمنوا لم يخونوا، وإن تكلّموا صدقوا[١].

رهبان في اللّيل، اسد بالنّهار، صائمون النّهار، قائمون اللّيل، لا يؤذون جارا ولا يتأذّى منهم جار، الّذين مشيتهم على الأرض هون وخطاهم على بيوت الأرامل، وعلى أثر الجنائز»[٢].

علامات للمؤمن ولغيره:

من وصايا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم للإمام عليه السلام:

«يا عليّ، إنّ للمؤمن ثلاث علامات:

الصّيام والصّلاة والزّكاة.

وإنّ للمتكلّف من الرّجال ثلاث علامات:

يتملّق إذا شهد، ويغتاب إذا غاب، ويشمت بالمصيبة.

وللظّالم ثلاث علامات:

يقهر من دونه بالغلبة، ومن فوقه بالمعصية، ويظاهر الظّلمة.

وللمرائي ثلاث علامات:

ينشط إذا كان عند النّاس، ويكسل إذا كان وحده، ويحبّ أن يحمد في جميع الامور.

وللمنافق ثلاث علامات:

---

(١) فروع الكافي ١: ٣٤٢.
(٢) بحار الأنوار ٦٠: ٢٧٦.

إن حدّث كذب، وإن اؤتمن خان، وإن وعد أخلف.

وللكسلان ثلاث علامات:

يتوانى حتّى يفرّط، ويفرّط حتّى يضيّع، ويضيّع حتّى يأثم.

وليس ينبغي للعاقل أن يكون شاخصا إلاّ في ثلاث: مرمّة لمعاش، أو خطوة لمعاد، أو لذّة في غير محرّم»[١].

حقيقة الإيمان:

إنَّ حقيقة الإيمان في هذا الوجود هي أكبر وأكرم الحقائق. لم تدركها النفوس عن طريق دائرة الحس الضيقة، فليست هي بحقيقة مادية تُدرك بالحواس المعروفة ولكن هي حقيقة معنوية علوية تدركها القلوب السليمة، فتأخذ النفوس من أقطارها، وتظهر ثمارها الطيبة نظافة في الشعور ورفعةً في الأخلاق واستقامة في السلوك.

تلك الحقيقة التي تتجسد في نفوس المؤمنين من خلال مظاهر عديدة.

يمكن الاشارة إلى أبرزها اهتداءً بقبس من نور النبوة وحماة منهجها، وهي:

أولاً: التسليم للّه تعالى والرِّضا بقضائه: يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ لكلِّ شيء حقيقةً وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه»[٢].

روى الصدوق رحمهالله بسنده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه لقي في بعض أسفاره ركب فقال: «ما أنتم؟ قالوا: نحن مؤمنون، قال: فما حقيقة إيمانكم؟ قالوا: الرّضا بقضاء اللّه والتسليم لأمر اللّه والتفويض إلى اللّه تعالى فقال: علماء حكماء كادوا أن يكونوا من الحكمة أنبياء، فإن كنتم صادقين فلا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تجمعوا ما لا تأكلون واتّقوا اللّه الذي إليه ترجعون»[٣].

ثانيا: الحب في اللّه والبغض في اللّه: وهو من أبرز المظاهر العاطفية

---

(١) بحار الأنوار ٧٤: ٦٤. (٢) كنز العمال ١: ٢٥/ ١٢.

(٣) معاني الاخبار، للصدوق: ١٨٧ باب معنى الإسلام والإيمان.

التي تعكس حقيقة الإيمان، فحينما يؤثر الإنسان - على ما يحبه ويهواه - ما يحبه اللّه تعالى ويرضاه، وحينما يكون غضبه للّه لا لمصلحته الخاصة، فلا شك أنّ هذا الشعور العاطفي العالي يكون مصداقا جليا على عمق إيمانه ومصداقيته. ولذا ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يجد العبد حقيقة الإيمان حتى يغضب للّه، ويرضى للّه، فإذا فعل ذلك فقد استحق حقيقة الإيمان»[1]. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب أبعد الخلق منه في اللّه، ويبغض أقرب الخلق منه في اللّه»[2].

ثالثا: التمسك المطلق بالحق: يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ من حقيقة الإيمان أن تؤثر الحقّ وإن ضرّك على الباطل وإن نفعك»[3].

إنَّ ترجيح كفة الحق الضار على كفة الباطل النافع ما هي إلاّ مظهرا من مظاهر قوة الإيمان الراسخ في أعماق النفس المؤمنة.

رابعا: حب أهل البيت عليهم السلام هو أحد الحقائق الهامة التي تميز الإيمان الصادق عن الزائف، عن زر بن حبيش قال: رأيت أمير المؤمنين عليه السلام على المنبر فسمعته يقول: «والذي فلق الحبة وبرء النسمة، أنه لعهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلي أنه لا يحبك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق»[4].

وعن جابر بن عبداللّه بن حزام الأنصاري قال كنا عند رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم جماعة من الأنصار فقال لنا: «يا معشر الأنصار بوروا أولادكم بحب علي بن أبي طالب فمن أحبه فاعلموا أنه لرشدة ومن أبغضه فاعلموا أنه لغية»[5].

خامسا: التدبر والنظرة الواعية: قد تظهر حقيقة إيمان الإنسان من خلال نظرته الفاحصة الواعية لمن حوله، فحينما يرى الناس منهمكين في إعمار دنياهم وتخريب دينهم، فيؤثرون الفاني على الباقي، يدرك - حينئذٍ أنّ هؤلاء

(١) كنز العمال ١: ٤٢/٩٩. (٢) تحف العقول: ٣٦٩.
(٣) الخصال، للشيخ الصدوق: ٥٣.
(٤) الإرشاد، للشيخ المفيد: ٢٥.
(٥) الإرشاد، للمفيد: ٢٧. وبوروا بمعنى: اختبروا.

عقلاء في دنياهم حمقاء في دينهم. فهذه النظرة وذلك الإدراك يكشفان عن وصول الإنسان لحقيقة الإيمان الواعي. ومن هنا قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر الغفاري رحمهالله: «يا أبا ذرّ لا تصيب حقيقة الإيمان حتى ترى الناس كلّهم حمقاء في دينهم، عقلاء في دنياهم»[١]. وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام ما يشير إلى ذلك بقوله: «لن تكونوا مؤمنين حتى تعدّوا البلاء نعمة والرَّخاء مصيبة»[٢].

سادسا: السلوك العبادي السوي: قد تبرز حقيقة الإيمان في سلوك عبادي سويّ، من خلال العمل بأوامر اللّه واجتناب نواهيه والنصيحة لأهل بيت رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وفي هذا الصدد قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «من أسبغ وضوءه وأحسن صلاته وأدى زكاة ماله وخزن لسانه وكفَّ غضبه واستغفر لذنبه وأدّى النصيحة لأهل بيت رسوله فقد استكمل حقائق الإيمان وأبواب الجنة مفتحة له»[٣]. وقد تظهر حقيقة إيمان العبد في ضبطه لجوارحه وخاصة لسانه، فقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «لا يعرف عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يخزن من لسانه»[٤].

سابعا: حالة الخوف والرجاء: قد تتمثل حقيقة الإيمان في الجانب النفسي عندما يكون المؤمن في حالة نفسية بين الخوف والرجاء عاملاً وفق مقتضياتهما. قال أبو عبداللّه الصادق عليه السلام: «لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون خائفا راجيا، ولا يكون خائفا راجيا حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»[٥].

عوامل زيادة الإيمان:

هناك عوامل رئيسية تسهم في إيصال الإنسان إلى أعلى درجات الإيمان، يمكن الإشارة إليها بالنقاط التالية:

(١) مكارم الأخلاق، للطبرسي: ٤٦٥.
(٢) تحف العقول: ٣٧٧.
(٣) أمالي الصدوق: ٢٧٣.
(٤) أصول الكافي ٢: ٧/١١٤ كتاب الإيمان والكفر.
(٥) أصول الكافي ٢: ٧١.

أولاً: العلم والمعرفة: لما كان العلم رأس الفضائل صار أمل المؤمن، لكونه المرتقى الذي يتجه به صعودا إلى الدرجات الرفيعة، قال تعالى: ﴿يَرفَعِ اللّه الَّذينَ آمنُوا مِنكُم والّذينَ أوتُوا العلمَ دَرجَاتٍ. .﴾[١].

فالعلم هو الذي يكسب صاحبه الشرف والسؤدد، قال أمير المؤمنين عليه السلام: . . لا شرف كالعلم»[٢].

ثانيا: العمل الصالح: وهو العنصر الثاني الذي يقترن بالإيمان ويسهم في إيصال المؤمن إلى أعلى الدرجات، قال تعالى: ﴿ومَن يأتِهِ مؤمِنًا قد عَمِلَ الصَّالِحاتِ فأُولئِكَ لهُمُ الدَّرجاتُ العُلى﴾[٣].

وإذا كان الإيمان يمنح الشخصية الإيمانية الرؤية الصحيحة وسلامة التصور ونقاء الاعتقاد فإنّ العمل الذي هو شعار المؤمن يفجّر طاقتها الابداعية، فتنطلق في آفاق أرحب وتحيى حياة طيبة، يقول عزَّ من قائل: ﴿مَن عَمِلَ صالِحا من ذَكرٍ أو أُنثى وهوَ مؤمِنٌ فلنُحِيينَّهُ حياةً طيّبةً ولنُجزينَّهُم أجرَهُم بأحسنِ ما كانُوا يعملُونَ﴾[٤].

ثالثا: الإيثار: وهو خصلة كريمة ترفع الإنسان إلى أعلى مراتب الإيمان، فحينما يرتفع الإنسان فوق (الأنا) ويضع مصلحة الآخرين فوق مصلحته الخاصة، فلا شك أنه قد قطع شوطا إيمانيا يستحق بموجبه الدَّرجات الرَّفيعة. وقد مدح تعالى أولئك الذين يخرجون من دائرة (الأنا) الضيقة على الرغم من ضيق ذات اليد إلى دائرة أسمى هي دائرة الإنسانية، فقال عزَّ من قائل: ﴿. . ويُؤثِرُونَ على أنفُسِهِم ولو كانَ بهِم خَصاصةٌ. .﴾[٥].

وقد كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم من أشد الخلق حرصا على تلك الفضيلة السامية، حتى ورد في الخبر أنه صلى الله عليه وآله وسلم ما شبع ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا، ولو شاء لشبع ولكنه كان يؤثر على نفسه[٦].

---

(١) سورة المجادلة ٥٨ : ١١.
(٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح: ٤٨٨/ حكم ١١٣.
(٣) سورة طه ٢٠: ٧٥.
(٤) سورة النحل ١٦ : ٩٧.
(٥) سورة الحشر ٥٩ : ٩.
(٦) تنبيه الخواطر ١ : ١٧٢.

رابعا: الخُلق الحسن: وهو عنوان صحيفة المؤمن[١]، وأن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنّه لضعيف العبادة كما يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم[٢].

وقد ورد عن الإمام أبي جعفر عليه السلام: «إنَّ أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خُلقا»[٣]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام موصيا: «روضوا أنفسكم على الأخلاق الحسنة فإنَّ العبد المؤمن يبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم»[٤].

عوامل زوال الإيمان:

أولاً: الغلو: وهو من العوامل الأساسية التي تسهم في خروج الإنسان عن حضيرة الإيمان، عن سعيد بن جبير قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما غلا أحد من القدرية إلاّ خرج عن الإيمان»[٥]. وعن بريد العجليّ، قال: قلتُ لأبي عبداللّه عليه السلام ما أدنى ما يصير به العبد كافرا؟ قال: فأخذ حصاة من الأرض، فقال عليه السلام: «أن يقول لهذه الحصاة إنّها نواة ويبرء ممّن خالفه على ذلك ويدين اللّه بالبراءة ممّن قال بغير قوله، فهذا ناصب قد أشرك باللّه وكفر من حيث لا يعلم»[٦].

ثانياً: العصبية: الإيمان يعني إلتزام الحق ولا يجتمع مع العصبية التي ضمن ما تعنيه من إيثار مصالح القرابة والقوم على قواعد الحق والعدالة عند التعارض بينهما وعليه فمن تعصّب فقد انقلب على عقبيه عن الإيمان وصُنّف مع أعراب الجاهلية، قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «من كان في قلبه حبّة من خردل من عصبية بعثه اللّه يوم القيامة مع أعراب الجاهلية»[٧]، كما

---

(١) أنظر تحف العقول: ٢٠٠.
(٢) المحجة البيضاء ٥: ٩٣ كتاب رياضة النفس.
(٣) أصول الكافي ٢: ١/٩٩ كتاب الإيمان والكفر.
(٤) تحف العقول: ١١١.
(٥) ثواب الأعمال وعقاب الاعمال، للصدوق: ٢٥٤.
(٦) معاني الاخبار: ٣٩٣.
(٧) أصول الكافي ٢: ٣/٣٠٨ كتاب الإيمان والكفر.

جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «من تعصّب أو تُعصّب له فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه»[١].

ثالثاً: ضرب القرآن بعضه ببعض: المعروف أنّ البعض يتلاعب بمعاني القرآن حسب أهواءه ومصالحه فيضرب بعضه ببعض ليثبت حجته ويسكت خصمه تجنيا على الحق والحقيقة، وتشويها لمعاني ومفاهيم القرآن الصافية، وهذا هو عين الجحود والكفر باللّه تعالى، عن القاسم بن سليمان عن أبي عبداللّه عليه السلام: «ما ضرب رجل القرآن بعضه ببعض إلاّ كفر»، وسألت محمد بن الحسن رحمهالله عن معنى هذا الحديث فقال: هو أن تجيب الرجل في تفسير آية بتفسير آية أُخرى[٢]، بمعنى التمويه على الآخرين بلا دليل أو برهان.

خامسا: الطمع: وهو أحد العوامل النفسية التي تسهم في إخراج الإنسان من بوتقة الإيمان، قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: «ما ثبات الإيمان؟» قال عليه السلام: «الورع، قيل: فما زواله؟ قال: الطمع»[٣].

رابعاً: عدم معرفة الأئمة: لمّا كان الأئمة عليهمالسلام هم السبيل إلى اللّه تعالى، والمسلك إلى رضوانه وحججه على عباده لذا وجبت معرفتهم ومحبتهم، ويؤيد ذلك ما في آية المودة والحديث المتواتر: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتةً جاهلية»[٤]

ومن هنا قال الإمام الباقر أو الصادق عليهماالسلام:

«لا يكون العبد مؤمنا حتى يعرف اللّه ورسوله والأئمة كلّهم وإمام زمانه ويرد إليه ويسلم له»[٥]. وقال الإمام الباقر عليه السلام في بيان قوله تعالى: (كَمَنْ مَثَلُهُ في الظُّلماتِ ليسَ بِخَارِجٍ مِنها) «الذي لا يعرف الإمام»[٦].

(١) المصدر السابق: ١/٣٠٧.
(٢) معاني الأخبار ١٩٠.
(٣) الاختصاص: ٣١.
(٤) أُصول الكافي ١: ٥/٣٠٣، وكمال الدين ٢: ٤١٢ - ٤١٣/ ١٠ و١١ و١٢ و١٥ باب.
(٥) أُصول الكافي ١: ٢/١٨٠.
(٦) المصدر السابق ١: ١٣/١٨٥.

ما يخرج عن الإيمان:

المؤمن هو الذي يسير بخطى ثابتة على درب الإيمان الواضح المعالم ولكن قد يتعرض لعواصف هوجاء من الأهواء والشبهات فتخرجه عن جادّة الصواب، وتسقطه من قمة جبل الإيمان إلى وادي الكفر السحيق، وعندئذٍ يصبح فقيرا من الناحية المعنوية بعد أن كان غنيا بإيمانه، سأل زيد بن صوحان العبدي أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: . . فأيُ فقر أشدّ؟» قال عليه السلام: «الكفر بعد الإيمان»[١].

وسقوط الإنسان في حضيض الكفر بعد الايمان إنّما يتم على مراحل وخطوات، لا سيّما وأنّ الشيطان يتّبع مع الإنسان سياسة: الخطوة خطوة! لذلك حذر تعالى المؤمنين من إتّباع خطواته قائلاً: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيطانِ. .﴾[٢]، وقال أيضا: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا ادخُلُوا في السّلمِ كافةً ولا تتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيطانِ إنَّهُ لكُم عَدوٌّ مّبينٌ﴾[٣].

مراتب الإيمان:

إذا كان الإيمان هو العلم بالشيء مع الالتزام به بحيث تترتب عليه آثاره العملية، وكان كل من العلم والالتزام مما يزداد وينقص ويشتد ويضعف.

ورد في أحاديث أئمة أهل البيت عليهمالسلام الدالة على أنّ الإيمان ذو مراتب[٤]:

كالذي رواه عبدالعزيز القراطيسي قال: قال لي أبو عبداللّه عليه السلام: «يا عبدالعزيز أنّ الإيمان عشر درجات بمنزلة السلَّم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة فلا يقولنَّ صاحب الاثنين لصاحب الواحد لست على شيء حتى ينتهي إلى العاشر»[٥].

---

(١) معاني الاخبار: ١٩٨.
(٢) سورة النور ٢٤ : ٢١. (٣) سورة البقرة ٢ : ٢٠٨.
(٤) تفسير الميزان ١٨ : ٢٥٩. والآية من سورة الفتح ٤٨ : ٤.
(٥) أصول الكافي ٢ : ٤٥/٢ كتاب الإيمان والكفر باب آخر من درجات الإيمان.

علامات المؤمن:

العلامات الأساسية التي يتميز بها المؤمن عن غيره، هي:

أولاً: علائم عبادية:

العبادة هي التجسيد الحقيقي للإيمان وتحتل مركز الصدارة في الكشف عن حقيقة إيمان الإنسان، فمن آمن بالله تعالى حقا عليه أن يتقرب إليه بطقوس عبادية تكشف عن عبوديته، وتعبر عن شكره وحمده لخالقه، وخير كاشف عن مصداقية الإيمان هو أداء الإنسان لما افترضه الله عليه من صلاة وصيام وحج البيت الحرام وما إلى ذلك من فرائض عبادية. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: .. لا عبادة كأداء الفرائض»[1]، وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «نزل جبرئيل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمد.. ما تقرب إليَّ عبدي المؤمن بمثل أداء الفرائض، وإنّه ليتنفل لي حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها..»[2].

ثانيا: علائم نفسية:

يتميز المؤمن عن غيره بعدة علائم نفسية، يمكن الإشارة إلى أبرزها بالنقاط التالية:

١ - البشر وانشراح الصدر: من العلائم الأُخرى للمؤمن أنّ البشر يطفح على وجهه أما حزنه فيدفنه في أعماق قلبه كما إنّه يمتاز بسعة الصدر وإنشراحه، قال أمير المؤمنين عليه السلام محددا أبرز علامات المؤمن: «المؤمن بشره في وجهه وحزنه في قلبه، أوسع شيء صدرا، وأذل شيء نفسا، يكره الرفعة، ويشنأ السمعة، طويل غمه، بعيدٌ همهُ، كثيرٌ صمته، مشغول وقتُه. شكورٌ صبور، مغمور بفكرته، ضنين بخلَّته، سهلُ الخليقة، ليِّن العريكة! نفسه أصلب من الصلد وهو أذل من العبد»[3]. وعن أبي عبدالله عليه السلام قال:

---

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح: ٨٨٤/ حكم ١١٣.

(٢) المؤمن، للشيخ الثقة الحسين بن سعيد الكوفي: ٣٢/ ٦١.

(٣) نهج البلاغة، صبحي الصالح: ٣٥٥/ حكم ٣٣٣.

«ما من مؤمن إلاّ وفيه دُعابة، قلتُ: ما الدعابة؟ قال: المزاح»[(١)].

٢ - الصلابة والثبات: فالمؤمن يكون ثابتا كالطود الشامخ لم تزعزعه الحوادث ويستسهل كل صعب بقلب مطمئن بقضاء اللّه وقدره، ويتمسك بعروة الصبر في مواطن الخطر، وقور لا يخرج عن طوره، شاكرا لربه قانعا برزقه، يؤثر راحة الآخرين على راحته كالشجرة العظيمة في الصحراء المحرقة تُظلل الناس بوارف ظلها، وهي تصطلي حرَّ الهاجرة وأوارها. روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثمان خصال: وقورٌ عند الهزائز، صبور عند البلاء، شكور عند الرخاء، قانع بما رزقه اللّه، لا يظلم الأعداء، ولا يتحامل للأصدقاء، بدنه منه في تعب، والناس منه في راحة»[(٢)].

ولا بدَّ من إلفات النظر إلى أنّ المؤمن وعلى الرغم من صلابته الإيمانية فهو يتصف بالمرونة مثل العشب الناعم ينحني أمام النسيم ولكن لا ينكسر للعاصفة، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «المؤمن له قوّة في دين، وحزم في لين، وإيمان في يقين»[(٣)].

٣ - إلتزام الحق عند الرّضا والغضب: المؤمن لا يندفع بغريزته إلى آفاق تبعده عن ساحة الحق، كما أنه يقاوم بلا هوادة نزعة الغضب الكامنة في نفسه حتى لا تجره إلى مهاوي الباطل، وفي حالة امتلاكه القوة أو القدرة يتجنب الظلم والعدوان كأمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يرى أن سلب جُلب شعيرة من نملة ظلم وعصيان للّه وابتعاد عن الحق، وفي ذلك يقول: «واللّه لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي اللّه في نملة أسلبها جُلب شعيرة ما فعلته..»[(٤)].

٤ - قوة الإرادة: وهي من علامات المؤمن الرئيسية التي يتمكن من خلالها من كبح شهواته والسيطرة على غرائزه، فالإنسان بلا إرادة كالسفينة بلا

---

(١) معاني الأخبار: ١٦٤.
(٢) أُصول الكافي ٢: ١/٤٧ كتاب الإيمان والكفر.
(٣) أُصول الكافي ٢: ٤/٢٣١ كتاب الإيمان والكفر.
(٤) نهج البلاغة، صبحي الصالح: ٣٤٧/ خطبة ٢٢٤.

بوصلة سرعان ما تنحرف عن المسير فالإرادة هي الخيط المتين الذي يكبح جموح النفس ويمكّنها من السيطرة على رغباتها. فمن يفتقد الإرادة - إذن - يكون حاله كقارب تمزقت حبال مرساته في بحر هائج مائج!

وهنا يبدو من الضروري بمكان الإشارة الاجمالية إلى علائم نفسية أُخرى تميز المؤمن عن غيره قد تنكشف لنا من خلال نظرته الواعية لمن حوله وما حوله، كما قد تظهر أيضا في طبيعة صمته وذكره أو سرعة رضاه وعفوه عمن أساء إليه، كما قد ننتهي إليها من نيته وما يضمره من الخير للغير، ويجمع هذه الأُمور ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ المؤمن إذا نظر اعتبر، وإذا سكت تذكّر، وإذا تكلّم ذكر، وإذا استغنى شكر. وإذا أصابته شدّة صبر، فهو ربيب الرضى بعيد السخط، يرضيه عن اللّه اليسير، ولا يسخطه الكثير ولا يبلغ بنّيته إرادته في الخير، ينوي كثيرا في الخير ويعمل بطائفةٍ منه ويتلهف على ما فاته من الخير كيف لم يعمل به»[١].

ثالثا: علائم اخلاقية:

لا يخفى أنّ هناك علاقة وطيدة بين الإيمان والأخلاق، كلّما سما المؤمن في إيمانه كلّما حسنت أخلاقه وعليه فالمؤمن المتسلح بإيمان عميق نجد أنه يتصف بخلق رفيع. والأخلاق - بدورها - هي السور الواقي الذي يصون المؤمن من التردي في مهاوي الضلال والرَّذيلة. ومما يكشف لنا عن عمق نظرة الإمام الصادق عليه السلام أنه يحثّ أصحابه على عدم الانخداع بالمظاهر العبادية للرجل التي قد لا تكلفه شيئا وقد تنجم عن الألفة والعادة، ولكن يجب النظر إلى مظاهره الأخلاقية: كالصدق، والأمانة، فمن خلال إلتزامه الدائم بها يظهر إيمانه على حقيقته، يقول عليه السلام:

«لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده فإنَّ ذلك شيء قد اعتاده فلو تركه استوحش لذلك ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته»[٢].

---

(١) تحف العقول: ٢١٢.
(٢) أُصول الكافي ٢: ١٠٥/ ١٢ كتاب الإيمان والكفر.

وقال عليه السلام أيضا: «المؤمن لا يُخلق على الكذب ولا على الخيانة»[(١)].

ويذهب أهل البيت عليهماالسلام في تعاليمهم الأخلاقية إلى أقصى حد، فعن أبي حمزة الثمالي قال: «سمعتُ سيد الساجدين علي بن الحسين عليهماالسلام يقول لشيعته: «عليكم بأداء الأمانة، فو الذي بعث محمدا بالحق نبيا لو أنّ قاتل أبي الحسين بن علي بن أبي طالب عليهماالسلام ائتمنني على السيف الذي قتله به لأديته إليه[(٢)]».

رابعا: علائم اجتماعية:

من الأُمور الهامة التي تكشف عن مدى إيمان الفرد شعوره نحو أبناء جنسه وعلاقته معهم. فالمؤمن الواقعي لا يدفن رأسه في رمال اللامبالاة بل يتحسس معاناة الناس ويمد يد العون لهم، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «المؤمن حسن المعونة خفيف المؤونة..»[(٣)].

وكان أئمة أهل البيت عليهماالسلام نموذجا فريدا للإيمان الكامل يقدّمون العون للفقراء والمعوزين - كما أشرنا سابقا - ويحرصون على عدم الكشف عن شخصياتهم، توخيا للثواب الجزيل على صدقة السر، وبُعدا عن الرياء فكانوا في إعانة الملهوف كالبنفسج المختبىء بين لفائف الأدغال ينشق الناس طيبه ويحمدون عرفه وإن لم يعرفوا مكانه. وفي الخصال بسنده عن الباقر عليه السلام: «كان علي بن الحسين عليهماالسلام يخرج في الليلة الظلماء فيحمل الجراب على ظهره وفيه الصرر من الدنانير والدراهم، وربما حمل على ظهره الطعام أو الحطب حتى يأتي بابا بابا فيقرعه ثم يناول من يخرج إليه، وكان يغطي وجهه إذا ناول فقيرا لئلا يعرفه فلما توفى فقدوا ذلك فعلموا أنه كان علي بن الحسين، ولقد خرج ذات يوم وعليه مطرف خز فتعرض له سائل فتعلق بالمطرف فمضى وتركه»[(٤)].

---

(١) تحف العقول: ٣٦٧.
(٢) أمالي الصدوق: ٢٠٤.
(٣) أصول الكافي ٢: ٢٤١/٣٨ كتاب الإيمان والكفر.
(٤) في رحاب أئمة أهل البيت عليهماالسلام، للسيد محسن الأمين ٣: ١٩٤.

انواع الإيمان:

يمكن تقسيم الإيمان بالنظر إلى رسوخه وثباته أو عدمه إلى ثلاثة أقسام هي:

أولاً: الإيمان الفطري:

كإيمان الأنبياء والأوصياء عليهمالسلام، الذين لا تخالجهم الشكوك، ولا يكونون نهبا للوساوس، لأنّ اللّه تعالى فطرهم على الإيمان به واليقين بما أخبرهم عنه من مكنون غيبه.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ اللّه جبل النبيين على نبوتهم، فلا يرتدون أبدا، وجبل الأوصياء على وصاياهم فلا يرتدون أبدا، وجبل بعض المؤمنين على الإيمان فلا يرتدون أبدا، ومنهم من أعير الإيمان عارية، فإذا هو دعا وألحَّ في الدعاء مات على الإيمان»[١].

ثانيا: الإيمان المستودع:

هو الإيمان الصوري غير المستقر الذي سرعان ما تزعزعه عواصف الشبهات ووساوس الشيطان ويُعبر عنه - أيضا - بالإيمان المعار كأنما يستعير صاحبه الإيمان ثم يلبسه ولكن سرعان ما ينزعه ويتخلى عنه، ويذهب بعيدا مع أهوائه ومصالحه. عن الفضل بن يونس عن أبي الحسن عليه السلام قال: «أكثر من أن تقول: اللّهمَّ لا تجعلني من المعارين ولا تخرجني من التقصير..»[٢].

وفي قوله تعالى: (وهو الَّذي أنشأكُم مِن نفسٍ واحدةٍ فمُستقرٌ ومُستودعٌ..)[٣] إشارة إلى هذين القسمين من الإيمان: الثابت والمتزلزل. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فمن الإيمان ما يكون ثابتا مستقرا في القلوب، ومنه ما يكون عواري بين القلوب والصدور إلى أجل معلوم..»[٤].

---

(١) أُصول الكافي ٢: ٤١٩/ ٥ كتاب الإيمان والكفر.
(٢) أُصول الكافي ٢: ٧٣/ ٤ كتاب الايمان والكفر.
(٣) سورة الانعام ٦: ٩٨.
(٤) نهج البلاغة، صبحي الصالح: ٢٧٩/ خطبة ١٨٩.

ثالثا: الإيمان الكسبي:

هو الإيمان الفطري الطفيف الذي نمّاه صاحبه واستزاد رصيده حتى تكامل وسمى إلى مستوى رفيع، وله درجات ومراتب[١].

ويمكن تنمية هذا النوع من الإيمان وترصينه حتى يصل إلى مرتبة الإيمان المستقر، ولذلك ورد في نصائح أمير المؤمنين عليه السلام لكميل قوله: «يا كميل إنّه مستقر ومستودع، فاحذر أن تكون من المستودعين، وإنّما يستحقُّ أن تكون مستقرا إذا لزمت الجادَّة الواضحة التي لا تُخرجك إلى عوجٍ ولا تزيلُك عن منهج»[٢].

وتجدر الإشارة إلى أنّ للإيمان أربعة أركان يستقر عليها، فمن اتّصف بها كان إيمانه مستقرا، وحول هذه المسألة قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الإيمان له أركان أربعة: التوكل على اللّه، وتفويض الأمر إلى اللّه، والرّضا بقضاء اللّه، والتسليم لأمر اللّه عزَّ وجل»[٣].

أثر الإيمان والكفر على الفرد والمجتمع:

إنَّ الإيمان باللّه تعالى هو منبع الفضائل، كما أنّ الكفر به هو مصدر الرذائل كلّها.

ألف) أثر الإيمان والكفر على الفرد:

أولاً: أثره العلمي:

فإنّ الحضارة الإسلامية التي دانت لها أوربا قرونا عديدة إنّما نشأت بفعل الإيمان بهذا الدين وما أوجبه من السعي المتواصل نحو المعرفة والتي ترجمها في أحداثه التاريخية الأُولى بضرورة القضاء على الأُمّية - كما في فداء أسرى بدر - بصفتها وباء الأُمم ومعول هدمها، ومن هنا جاء الحث على أهل العلم أن يعلّموا الناس ما يجهلون، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ما

---

(١) أخلاق أهل البيت عليهم السلام، للسيد مهدي الصدر: ١٠٠.
(٢) تحف العقول: ١٧٤.
(٣) أصول الكافي ٢: ٤٧/ ٢ كتاب الإيمان والكفر.

أخذ اللّه على أهل الجهل أن يتعلّموا حتى أخذ على أهل العلم أن يُعلّموا»[١].

كما حثَّ الإسلام مريديه على الاستزادة من العلم النافع الذي يقرّب الانسان من اللّه تعالى، يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أُتي عليَّ يوم لا أزداد فيه علما يقرّبني إلى اللّه تعالى فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم»[٢].

ثانيا: أثره العملي:

ويظهر هذا الأثر واضحا على أخلاق المؤمن وسلوكه، فبينما يتّبع الكافر سلوكا إنتهازيا لا يؤمن بنظافة الوسيلة ولا شرف الغاية، والملاحظ أنّه كلما كمل إيمان الفرد كلّما حسنت أخلاقه وتكاملت فضيلته، وفي الحديث الشريف:

.. وأكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا..»[٣]. ونظرا لوجود هذه العلاقة بين الإيمان والأخلاق نجد التوجهات الأخلاقية تحتل حيزا كبيرا من التعاليم الدينية.

لذلك نجد أنّ الافراد الذين يعيشون في مجتمعات بعيدة عن نور الإيمان تغلب عليهم سمة الانحطاط الخلقي، ذلك لأنَّ الحياء فرع الإيمان، بل في التعبير النبوي «الحياء والايمان في قرن واحد، فإذا سلب أحدهما تبعه الآخر»[٤].

ثالثا: أثره النفسي:

عندما يذكر المؤمن ربّه ويتصل بالقوة العظمى الإلهية، يتبدد خوفه ويتغلب على ضعفه ويطمئن قلبه، قال تعالى: ﴿الَّذينَ آمنُوا وتَطمئنُّ قلُوبُهُم بذكرِ اللّه ألا بذكرِ اللّه تَطمَئنُّ القُلُوبُ﴾[٥]، وقال أيضا: ﴿الَّذينَ آمنُوا ولم يَلبِسُوا إيمانَهُم بِظُلمٍ أولئك لهُمُ الأمنُ وهُم مُهتدُونَ﴾[٦].

---

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح: ٥٥٩/ حكم ٤٧٨.
(٢) كنز العمال ١٠: ١٣٦/ح٢٨٦٨٧.
(٣) كنز العمال ١: ٣٨/ ح ٧٧.
(٤) كنز العمال ١: ١٢٠/ ح ٥٧٦٦.
(٥) سورة الرعد ١٣: ٢٨.
(٦) سورة الانعام ٦: ٨٢.

رابعا: أثره في تكوين شخصية المؤمن:

الإيمان يشكّل محطة إنطلاق أمام الإنسان إلى ذرى المجد والرفعة لكونه يزوده بالقيم والمثل، ويساعده على ضبط نفسه وجوارحه ويجعله يقبض بإحكام على الدَّفة الموجهة لمساره، فيسير بخطى ثابتة حتى يبلغ قمة الرُّقي والرِّفعة: «قيل للقمان عليه السلام: ألست عبد آل فلان؟ قال: بلى، قيل: فما بلغ بك ما نرى؟ قال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني، وغض بصري، وكف لساني، وعفة طعمتي، فمن نقص عن هذا فهو دوني، ومن زاد عليه فهو فوقي، ومن عمله فهو مثلي»[1].

ثم أنّ الإيمان يوفر للفرد العزّة والمكانة والكرامة، قال تعالى: ﴿وللّه العِزَّةُ ولِرسُولِهِ وللمُؤمِنينَ ولكنَّ المُنافِقينَ لا يَعلَمُونَ﴾[2].

فالمؤمن عزيز مكرّم، لم يدع للذل إليه سبيلاً، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ اللّه فوّض إلى المؤمن أمره كلّه، ولم يفوّض إليه أن يكون ذليلاً»[3].

فالعبودية للّه تعالى هي مبعث العزّة والكرامة ومصدر الفخر والرفعة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا شرف أعلى من الإسلام ولا عزّ أعزّ من التقوى»[4].

ومن مناجاته عليه السلام: «إلهي كفى بي عزّا أن أكون لك عبدا، وكفى بي فخرا أن تكون لي ربّا»[5].

ب) أثر الإيمان والكفر على المجتمع:

الأول: إدخال السرور على قلب المؤمن:

هو من أحب الاعمال إلى اللّه تعالى بدليل قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أحب الأعمال إلى اللّه تعالى إدخال السرور على

---

(١) تنبيه الخواطر، للأمير ورّام ٢: ٢٣٠.
(٢) سورة المنافقون ٦٣: ٨.
(٣) التهذيب، للطوسي ٦: ١٧٩. وبحار الانوار ١٠٠/ ٩٣.
(٤) نهج البلاغة، ضبط صبحي الصالح: ٥٤٠/ حكم ٣٧١.
(٥) الخصال، للصدوق: ٤٢٠/ باب التسعة.

المؤمنين»[١]. وهذا العمل لا شك أنه يوجب الثواب الكبير، قال أبو عبدالله عليه السلام: «من سرَّ أمرءا مؤمنا سرَّه اللّه يوم القيامة، وقيل له: تمنَّ على ربّك ما أحببت فقد كنت تحب أن تسرَّ أولياءه في دار الدّنيا، فيُعطى ما تمنى ويزيده اللّه من عنده مالم يخطر على قلبه من نعم الجنة»[٢].

الثاني: الاخاء والاحترام والنصيحة:

يمثل الإيمان نقطة إنطلاق كبرى في العلاقات البشرية فهو ينقل الناس من حالة العداء والبغضاء إلى حالة الود والاخاء، قال تعالى: ﴿إنَّما المُؤمِنُونَ إخوةٌ فأصلِحُوا بين أخَويكُم..﴾[٣].

وقد ذكّر تعالى المؤمنين بنعمة الاخاء التي قلبت حياتهم الاجتماعية رأسا على عقب ونقلتهم من حالة الكفر والعداء إلى حالة الإيمان والاخاء، قال عزَّ من قائل: ﴿واعتصمُوا بحبلِ اللّه جَميعا ولا تَفرَّقُوا واذْكرُوا نِعمتَ اللّه عليكُم إذ كُنتُم أعدآءَ فألّفَ بينَ قُلوبِكُم فأصبَحتُم بِنعمَتِهِ إخوانا وكُنتُم على شَفا حُفرةٍ مّن النَّار فأنقذكُم مِنها..﴾[٤].

الثالث: قضاء حوائجه:

الإيمان يدفع الفرد إلى خدمة إخوانه بما يعود عليهم بالنفع والفائدة، قال الإمام الصادق عليه السلام: «المؤمنون خدم بعضهم لبعض - ولما قيل له - وكيف يكونون خدما بعضهم لبعض؟ قال عليه السلام: يفيد بعضهم بعضا...»[٥].

الرابع: الإيمان يمنح البركة والقوّة:

الإيمان يدفع الأفراد نحو التقدم المطرِّد، والسير إلى الأمام وعدم الانكفاء إلى الوراء، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من اعتدل يوماه فهو مغبون، ومن كان غده شرا من يومه فهو ملعون، ومن لم يتفقد النقصان من

(١) أُصول الكافي ٢: ١٨٩.
(٢) ثواب الأعمال، للصدوق: ١٨١.
(٣) سورة الحجرات ٤٩: ١٠.
(٤) سورة آل عمران ٣: ١٠٣.
(٥) المصدر السابق: ١٦٧/٩.

نفسه فهو في نقصان، ومن كان في نقصان فالموت خيرٌ له[١]. وعن علي بن الحسين عليه السلام قال: «بينما أمير المؤمنين ذات يوم جالس مع أصحابه يعبيهم للحرب إذ أتاه شيخ عليه شحبة السفر.. فقال: إنّي أتيتك من ناحية الشام وأنا شيخ كبير وقد سمعتُ فيك من الفضل ما لا أحصيه وإنّي أظنّك ستُغتال! فعلمني ما علمّك اللّه قال: نعم يا شيخ من اعتدل يوماه فهو مغبون.. ومن كان في نقص فالموت خير له[٢].

(١) تنبيه الخواطر ٢ : ٢٩.
(٢) تنبيه الخواطر ٢ : ١٧٣.

المبحث الثامن:

طرق الوصول إلى مقام القرب الإلهي

موانع الوصول إلى مقام القرب الإلهي

من الأمور المساعدة على الوصول

ووسائل اكتساب مكارم الأخلاق

ومقام العافين عن الناس عند اللّه

طرق الوصول إلى مقام القرب الإلهي

أ) التفكر والبرهان:

إنَّ التفكر في البراهين التي أقيمت على وجود الله تعالى، يمكن أن تكون عاملاً مساعداً للقرب من الله تعالى، فإنَّ البراهين التي حفلت بها كتب الحكمة والعرفان والكلام، تثبت أنَّ كل ظواهر الكون ممكنة وفقيرة في وجودها لواجب الوجود، الذي هو منتهى الكمال والغني بالذات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[١]..

ب) التفكر في الآيات الإلهية:

يرى القرآن الكريم أنَّ كل ظاهرة من ظواهر الكون، تنطوي على آيات تدل على الله تعالى وتعرفنا به، ولذلك دعانا القرآن الكريم للتفكر في الآيات الكونية، من باب أنَّ التفكر فيها يساعدنا على الاندفاع والسير في طريق التكامل. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٢].

ج) العبادة والعمل الصالح:

إنَّ العبادة توأم الإيمان والمعرفة، والعبادة والأعمال الصالحة تجعل الإيمان أكثر كمالاً، وكلما أصبح أكثر كمالاً كلما دنا من مقام القرب أكثر،

---

(١) فاطر: ١٥. (٢) آل عمران: ١٩١.

فالعمل الصالح يرتقي بالإيمان عالياً حتى ينال مقام القرب الإلهي.

يقول تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(١).

د) الأذكار والأدعية:

إنَّ الذكر والأدعية من العبادة، وقد ورد التأكيد عليها كثيراً في الآيات والروايات، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما أُسري بي إلى السماء دخلت الجنة، فرأيت ملائكة يبنون لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وربما أمسكوا، فقلت لهم: ما لكم ربما بنيتم وربما أمسكتم؟

فقالوا: متى تجيئنا النفقة؟ فقلت لهم: وما نفقتكم؟.

فقالوا: قول المؤمن في الدنيا: سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر، فإذا قال بنينا وإذا أمسك أمسكنا»(٢).وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «من قال سبحان الله غرس الله بها شجرة في الجنة. فقال رجل من قريش: يا رسول الله، إنَّ شجرنا في الجنة لكثير، قال: نعم، ولكن إيَّاكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها، وذلك أنَّ الله عزَّ وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾(٣).

إنَّ كل كلام يكون مفهومه تمجيداً وتحميداً وتسبيحاً لله تعالى يكون ذكراً، وإن كانت الأحاديث قد صرَّحت بأذكار خاصة، كما أنَّه يوجد تأكيد على أذكار بعينها، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سيد القول لا إله إلاَّ الله»(٤).

من الأمور المساعدة على الوصول:

ويوصي بعض أهل المعرفة بأمورٍ تساعد أيضاً على اجتياز الطريق وهي قسمين أفعال وتروك:

---

(١) فاطر: ١٠.

(٢) المجلسي-محمد باقر -بحار الأنوار- مؤسسة الوفاء .الطبعة الثانية المصححة - ج٩٣ ص ١٦٩.

(٣) محمد: ٣٣.

(٤) المجلسي-بحار الانوار - مؤسسة الوفاء- الطبعة الثانية المصححة- ج ٩٠ - ص ٢٠٤.

أولاً: غسل التوبة: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(١).

ثانياً: أن يسعى ليرى نفسه في محضر الله تعالى، وأن يذكر الله في كل حال فلا يغفل عنه أبداً. ﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(٢).

ثالثاً: أن يبقى دائم الوضوء ويصلي صلاة الليل، ويكرر ذكر: «يا حي يا قيوم يا من لا إله إلَّا أنت».

رابعاً: أن يقرأ يومياً مقداراً من القرآن مع حضور القلب ويتفكر ويتدبر في معاني الآيات.

خامساً: أن يسجد كل يوم سجدة طويلة يكرر فيها: «لا إله إلَّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

سادساً: ترك الكلام الذي لا فائدة منه.

سابعاً: ترك ما زاد عن حده الطبيعي المعتدل من المأكل والمشرب ونحوه.

ثامناً: ترك معاشرة أهل السوء وكل من لا يقرب من الله سبحانه.

تاسعاً: ترك كثرة النوم، ومحاولة الإستفادة من الوقت بما يرضي الله سبحانه.

ويمكنه أن يكرر هذه الأمور لمدة أربعين يوماً، لعلَّه تساعده على اجتياز الطريق بشكل أسرع وأفضل ليصل إلى درجة القرب من الله.

موانع الوصول إلى مقام القرب الإلهي:

ثمَّة موانع في الطريق، وعلى السالك أن يجاهد نفسه لإزالتها، وإلَّا فلن يصل إلى هدفه نذكر منها:

المانع الأول:

عدم قابلية القلب: فالقلب الملوَّث بالمعاصي والذنوب لا يمكن أن تدخله ملائكة الرحمة، وبالمعصية تسير النفس وتتحرك بعكس السير المطلوب، فلا بد من تطهير النفس من الذنوب والآثام بالتوبة منها، حتى تصبح هذه النفس

(١) البقرة: ٢٢٢. (٢) البقرة: ٧٧.

قابلة للسير إلى الله تعالى بتلقي الفيوضات والإشراقات الإلهية.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أذنب الرجل خرج من قلبه نكتة سوداء فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً»[١].

المانع الثاني:

التعلقات الدنيوية المادية: كالمال والثروة والبيت والجاه وسائر وسائل الحياة.

وهذه التعلقات بالمعنى المتقدم في حب الدنيا تكون رأس كل خطيئة، إن أنستنا، أنستنا ذكر الله ويوم الوقفة بين يدي الله تعالى للحساب.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أول ما عُصي الله تبارك وتعالى بست خصال: حبُّ الدنيا، وحبُّ الرياسة، وحبُّ النساء، وحبُّ الطعام، وحبُّ النوم، وحبُّ الراحة»[٢].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يجد المؤمن حلاوة الإيمان في قلبه حتى لا يبالي من أكل الدنيا».

المانع الثالث:

إتباع هوى النفس وميولها وشهواتها: إنَّ من يسعى ليلاً نهاراً لإرضاء غرائزه وشهواته لا يستطيع أن يحلق نحو مقام القدس الإلهي.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٣].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أشجع الناس من غلب هواه»[٤].

المانع الرابع:

الامتلاء بالأكل: لأنَّ هذا يمنع من العبادة والدعاء والتوسل والتضرُّع.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا أراد الله صلاح عبده، ألهمَه قلة

---

(١) الكليني- الكافي- دار الكتب الاسلامية-الطبعة الثانية- ج٢- ص ٢٧٢

(٢) المجلسي-بحار الانوار-مؤسسة الوفاء- الطبعة الثانية المصححة- ج٧-ص ٩٤.

(٣) ص: ٢٦.

(٤) المجلسي-محمد باقر -بحار الأنوار- مؤسسة الوفاء .الطبعة الثانية المصححة – ج ٧ ص ٧٦.

الكلام وقلة الطعام وقلة المنام»[١].

وعن ابي عبد الله عليه السلام: «إنَّ الله يبغض كثرة الأكل»[٢].

المانع الخامس:

الكلام غير الضروري: وغير المفيد.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإنَّ كثرة الكلام بغير ذكر الله تقسي القلب، إنَّ أبعد الناس من الله القلب القاسي»[٣]

قال الإمام الرضا عليه السلام: «من علامات الفقه: الحلم والعلم والصمت، إنَّ الصمت باب من أبواب الحكمة. إنَّ الصمت يكسب المحبة، إنَّه دليل على كل خير»[٤]..

المانع السادس:

حبُّ الذات: على السالك إلى الله أن يبدِّل حبَّ ذاته بحب الله، وأن يؤدي كل أعماله بداعي الرضا الإلهي، فيأكل لأنَّ الله سمح له بدوام الحياة كما يصلي لأنَّ الله أمر بذلك... وهكذا.

المانع السابع:

ضعف الإرادة: وعدم القدرة على التصميم، وهذا يمنع من البدء بالعمل، والشيطان يعمل جادّاً لإضعاف إرادتنا فيصور عبر الوهم أنَّ العبادة صعبة، أو أنَّ السلوك إلى الله غير مطلوب، أو أنَّ المهم هو العبادة الصوريَّة الخالية من المضمون.

والحل هو بتقوية الارادة التي تحتاج إلى جهاد وتضحية كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٥].

---

(١) الميرزا النوري- مستدرك الوسائل- مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث-الطبعة المحققة الاولى - ج ١٦- ص٢١٣.

(٢) الحر العاملي- وسائل الشيعة- مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث-الطبعة الثانية- ج ٢٤- ص٢٤.

(٣) م.ن -ج ٨ - ص ٥٣٦.

(٤) الكليني الكافي- دار الكتب الاسلامية- الطبعة الثانية- ج٢ - ص ١١٣.

(٥) العنكبوت: ٦٩.

وسائل اكتساب مكارم الأخلاق، من هذه الوسائل:

الأول: التدريب العملي والرياضة النفسية: إن التدريب العملي والممارسة

التطبيقية لفضائل الأخلاق ومجاهدة النفس فيها، مما يكسب الإنسان مكارم الأخلاق؛ ولذا اعتمد الإسلام على المجاهدة في تربية المسلمين في بعض المواقف، فرغب في بعض الأعمال التي تبدو شاقة لتهذيب النفس وتطهيرها ونفر من بعضها. يقول سبحانه ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

الثاني: اللزوم على العبادات والمحافظة عليها:

إن اللزوم على العبادات والمواظبة عليها مما يهذب النفس وينقيها ويبعد عنها الرذائل، ويرسخ فيها العقائد ويربيها وينميها، وبدون اللزوم على العبادات يكون آثار العقائد ضعيفة.

الثالث: سلامة العقيدة: إن العقيدة السليمة لها أثر كبير في تهذيب النفس وتقويم اعوجاجها وقلع كل ما فيها من الرذائل وتوجيهها إلى نهج السلوك القويم، حتى يصبح ديدنة في الإنسان. إذا الإيمان القوي النابع من العقيدة السليمة تثبت الأخلاق الفاضلة وتغرسها في نفس الإنسان.

فالمواظبة على الصلاة مثلا وأدائها في وقتها وفي الجماعة بخشوع وتدبر مما يربي ني الإنسان الأخلاق الفاضلة وينميها ويبعدها عن ارتكاب المعاصي يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ كما أن المواظبة على الصيام مما يهذب النفس ويقوم السلوك، وينشئ الأخلاق الفاضلة في الإنسان من رحمة وبر وصلة وانضباط. كما أنه يقوي الأمانة والعزيمة والإرادة ويعلو الهمة، ويؤدي إلى التقوى الذي يحتاج إليه المسلم في كل أحواله.

الرابع: قراءة القرآن

بتدبر وتعقل وإدامة النظر فيه مما يهدي الإنسان إلى الحق وإلى الطريق

---

(١) العنكبرت أية ٦٩.

المستقيم والتحلي بمكارم الأخلاق ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

الخامس: الامتثال بالأوامرواجتناب النواهي مما يكسب الإنسان الخلق الحسن ويرسخ في قلبه الأخلاق الفاضلة.

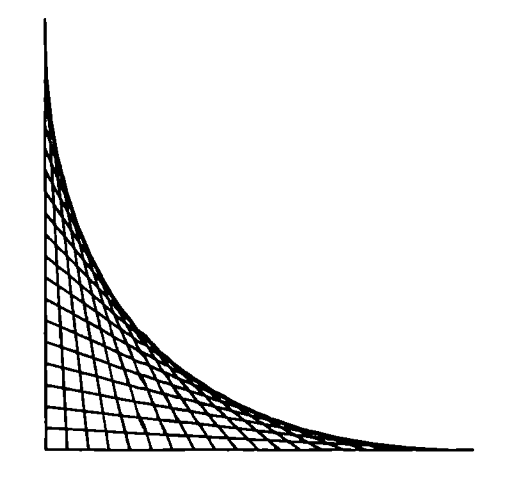
المبحث التاسع:

في العفو والمغفرة

مقام العافين عن الناس عند اللّه

فضيلة الإحسان

مقام المحسن عند الله والإخلاص



العفو والمغفرة

إنّ الله جلّ جلاله واسع الرحمة والمغفرة، كما وصف ذاته المقدّسة في محكم كتابه الكريم: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[١].

من دعاء أبي حمزة الثماليّ:

«. . . اللهمّ إنّك أنزلت في كتابك العفو، وأمرتنا أن نعفو عمّن ظلمنا، وقد ظلمنا أنفسنا، فاعف عنّا، فإنّك أولى بذلك منّا، وأمرتنا أن لا نردّ سائلاً عن أبوابنا، وقد جئتك سائلاً فلا تردّني إلا بقضاء حاجتي، وأمرتنا بالإحسان إلى ما ملكت أيماننا، ونحن أرقّاؤك فاعتق رقابنا من النار».

ونحن عبيده التائهين في ظلمات الدنيا لسنا بغنى عن عفوه ومغفرته الواسعة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام - في كتابه للأشتر لما ولّاه مصر -: «ولا تنصبنّ نفسك لحرب الله، فإنّه لا يدلّك بنقمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته»[٢]..

وعنه عليه السلام - في المناجاة -: «إلهي أفكّر في عفوك فتهون عليّ خطيئتي، ثم أذكر العظيم من أخذك فتعظم عليّ بليّتي»[٣]..

ولكن نحن عبيده المتجرّئون على معصيته في حضرة قدسه، نرى خيره إلينا نازلاً وشرّنا إليه صاعداً، فهو يُقبل علينا بالعفو والمغفرة، ونحن نعصيه بل نزداد عصياناً، وكأنّنا لا نعلم بأنّ المغفرة الإلهيّة تتنزّل على من اجتنب الذنوب

(١) النساء: ٤٣.
(٢) نهج البلاغة: الكتاب ٢٧ و٥٣.
(٣) أمالي الصدوق، ص ٧٣، ح ٩.

والمعاصي، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «من تنزّه عن حُرمات الله سارع إليه عفو الله»[١]، وعنه عليه السلام: «وكن لله مطيعاً، وبذكره آنساً، وتمثّل في حال تولّيك عنه إقباله عليك، يدعوك إلى عفوه، ويتغمّدك بفضله، وأنت متولٍّ عنه إلى غيره!»[٢]..

فحقاً يا إلهيّ وسيّدي ومولاي.. أنت كما وصفك أمير البلاغة عليه السلام: «فإن عفوت فمن أولى منك بذلك؟ وإن عذّبت فمن أعدل منك في الحُكم؟»[٣]..

لذا دعونا نرفع أكفّنا ونتوجّه بقلب خاشع خائف مُنكسر مُتذلّل، وبعين باكية راجية رحمة الله ومغفرته، وبلسان صدق يُردِّد مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام: «إلهي جودك بسط أملي، وعفوك أفضل من عملي... إلهي إن أخذتني بجرمي أخذتك بعفوك، وإن أخذتني بذنوبي أخذتك بمغفرتك... فلا تجعلني ممّن صرفت عنه وجهك، وحجبه سهوه عن عفوك»[٤]..

الصفح الجميل:

أن تتّصف بصفات الله جلّ جلاله وبأخلاق بيت النبوّة عليه السلام، فهو الجميل بعينه، والله تبارك وتعالى قد حثّنا على أن نكون من أهل الصفح الجميل عمّن ظلمنا وأساء إلينا، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[٥].

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام - في قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ...﴾ -: «العفو من غير عتاب»[٦]، وورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّا أهل بيت مروّتنا العفو عمّن ظلمنا»[٧].

---

(١) بحار الأنوار، العلّامة المجلسيّ، ج ٧٥، ص ٩٠، ح ٩٥.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٣.
(٣) البلد الأمين، ٣١٢، ٣١٦.
(٤) بحار الأنوار، العلّامة المجلسيّ، ج ٩١، ص ٩٧، ح ١٣.
(٥) الحجر: ٨٥.
(٦) أمالي الصدوق، ص ٢٧٦، ح ١٤.
(٧) أمالي الصدوق، ص ٢٣٨، ح ٧.

وهذا أمير المؤمنين عليه السلام يوصينا قائلاً: «كن جميل العفو إذا قدرت، عاملاً بالعدل إذا ملكت»[١]، وكذلك يوصينا الإمام الصادق عليه السلام: «اعف عمّن ظلمك كما إنّك تُحبّ أن يُعفى عنك، فاعتبر بعفو الله عنك»[٢].

إذاً تُعتبر صفة العفو والصفح الجميل من أجمل مكارم الأخلاق الّتي يتخلّق بها المؤمن في الدنيا والآخرة، بل هي تاج المكارم كما يُعبِّر الإمام عليّ عليه السلام: «العفو تاج المكارم»[٣]، وعن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «ثلاث من مكارم الدنيا والآخرة: تعفو عمّن ظلمك، وتصل من قطعك، وتحلُم إذا جُهِل عليك»[٤].

مقام العافين عن الناس عند اللّه:

أن نكون من أهل العفو يعني أنّنا قد اتّصفنا بصفة أحبّها الله تعالى كما يقول رسول الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله عفوّ يُحبُّ العفو»[٥].

إضافة إلى أنّنا سنكون من المحسنين الّذين أيضاً أحبّهم الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٦]، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «رأيت ليلة أُسري بي قصوراً مستوية مُشرفة على الجنة.

فقلت: يا جبرائيل لمن هذا؟.

فقال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يُحبُّ المحسنين»[٧].

فهنيئاً لمن فاز بهذا المقام، وهنيئاً لمن سيفوز بأجر الله تعالى الّذي وعد به في محكم كتابه العزيز: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ

---

(١) ميزان الحكمة، الريشهري، ج ٣، ص ٢٠١٤.
(٢) تحف العقول، ص ٣٠٥.
(٣) ميزان الحكمة، الريشهري، ج ١، ص ٨٠٥، ح ١١١٢.
(٤) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ١٠٧، ح٣.
(٥) كنز العمال، ح ٧٠٠٣.
(٦) آل عمران: ١٣٤.
(٧) كنز العمال، ح ٧٠٠٣.

عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[١].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أُوقِف العباد نادى منادٍ: ليقم من أجرُه على الله وليدخل الجنة، قيل: من ذا الذي أجرُه على الله؟ قال: العافون عن الناس»[٢].

وعن الإمام عليّ عليه السلام قال: «شيئان لا يوزن ثوابهما: العفو والعدل»[٣].

كما إنّ من آثار وبركات التخلُّق بصفة العفو، أمور عدّة منها:

١ - إنّ عفو الناس بعضهم عن بعض يُزيل الضغائن والأحقاد فيما بينهم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تعافوا تسقط الضغائن بينكم»[٤].

٢ - إنّ اتّصاف المؤمن بصفة العفو يزيده عزّاً كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «عليكم بالعفو، فإنّ العفو لا يزيد العبد إلا عزّاً، فتعافوا يُعزّكم الله»[٥]. ولا تحسبوا أن العفو عن الآخرين فيه ذلٌّ لكم.

٣ - إنّ كثرة العفو والصفح الجميل عمَّن ظلمنا يزيد في العمر، قال نبيُّ الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم: «من كثُر عفوه مُدّ في عمره»[٦].

في المقابل قد حذّرنا أهل البيت من عقبات عدم اتّصافنا بصفة العفو، فعن الأمير عليه السلام: «قلّة العفو أقبح العيوب، والتسرُّع إلى الانتقام أعظم الذنوب»[٧].

وعنه عليه السلام: «شرُّ الناس من لا يعفو عن الزلّة، ولا يستر العورة»[٨].

نعم، هناك أناس لا ينبغي أن نعفو عنهم، وهم الّذين يزيدهم العفو سوءاً

---

(١) الشورى: ٤٠.
(٢) كنز العمال، ح ٧٠٠٩.
(٣) ميزان الحكمة، الريشهري، ج ٣، ص ٢٠١٣.
(٤) كنز العمال، ٧٠٠٣.
(٥) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ١٠٨، ح٥.
(٦) أعلام الدين، ٣١٥.
(٧) ميزان الحكمة، الريشهري، ج٣، ص ٢٠١٣.
(٨) ن. م، ص ٢٠١٣.

وتكبّراً. وقد أشارت روايات أهل البيت عليه السلام إلى نماذج من هؤلاء، فعن الإمام عليّ عليه السلام قال: «العفو يُفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم»[(١)].

وعنه عليه السلام: «جازِ بالحسنة وتجاوز عن السيّئة ما لم يكن ثلماً في الدين أو وهناً في سلطان الإسلام»[(٢)].

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «حقُّ من أساءك أن تعفو عنه، وإن علمت أنّ العفو عنه يضرّ انتصرت، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلَ﴾»[(٣)].

فضيلة الإحسان:

لقد أمرنا المولى عزَّ وجلَّ أن نكون من المحسنين ومن أهل الإحسان، وهو القائل: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[(٤)] والقائل: ﴿.. وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[(٥)].

كما إنّ أهل البيت عليه السلام قد حضّوا شيعتهم ومحبّيهم على التخلُّق بصفة الإحسان إلى من أساء إليهم وظلمهم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أُخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة؟.

العفو عمّن ظلمك.

وتصل من قطعك.

والإحسان إلى من أساء إليك.

وإعطاء من حرمك»[(٦)].

وعن الإمام عليّ عليه السلام: «لا منقبة أفضل من الإحسان»[(٧)]..

---

(١) كنز الفوائد للكراجكي، ج ٢، ص ١٨٢.
(٢) ميزان الحكمة، الريشهري، ج ٣، ص ٢٠١٥.
(٣) الخصال، ص ٥٧٠، ح١.
(٤) النحل: ٩٠. (٥) القصص: ٧٧.
(٦) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ١٠٧، ح١.
(٧) ميزان الحكمة، الريشهري، ج٣، ص ٢٤٣٤.

وعنه عليه السلام: «من كمال الإيمان مكافأة المسيء بالإحسان»[١]..

وعنه عليه السلام: «لو رأيتم الإحسان شخصاً لرأيتموه شكلاً جميلاً يفوق العالمين»[٢].

ولذا فإنّ من يمنع الإحسان فعاقبته وخيمة، قال الإمام عليّ عليه السلام: «من كتم الإحسان عوقب بالحرمان»[٣]، إضافة إلى النهي عن المنّ على من نُحسن إليهم، قال الإمام عليّ عليه السلام: «جمال الإحسان ترك الامتنان»[٤]، بل كمال الإحسان وجماله ترك المنّ به كما يقول الإمام عليّ عليه السلام: «تمام الإحسان ترك المنّ به»[٥].

إذا كان كلُّ هذا الترغيب والترهيب حول فضيلة الإحسان، فإنّه لما فيه من أجر عظيم عند الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٦]، وعن الإمام عليّ عليه السلام قال: «عليك بالإحسان، فإنّه أفضل زراعة، وأربح بضاعة»[٧]، وعنه عليه السلام: «نِعَم زاد المعاد الإحسان إلى العباد»[٨].

هذا فضلاً عن أثر المنفعة للمؤمنين فيما بينهم وصلاح شؤونهم، وإشاعة المحبّة وروح الأخوّة بفضل إحسان بعضنا إلى بعض طبقاً لما أوصانا به المحسن جلَّ جلاله وأهل بيت الإحسان عليه السلام.

قال أمير الإحسان والمحسنين الإمام عليّ عليه السلام: «الإحسان محبّة»[٩]، وعنه عليه السلام: «من كثُر إحسانه أحبّه إخوانه»[١٠].

بل بالإحسان نملك قلوب المؤمنين كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «بالإحسان تملك القلوب»[١١]، لذا فإنّ المحسن هو حيٌّ ولو نُقل إلى عالم الأموات، قال ابن أبي طالب عليه السلام: «المحسن حيٌّ وإن نُقِل إلى منازل

(١) م. ن، ص ٣٧٢٢.
(٢) م. ن، ج ١، ص ٦٤٠.
(٣) م. ن، ص ٦٤٣.
(٤) م. ن، ص ٤١٦.
(٥) م. ن، ص ٦٤٤.
(٦) هود ١١٥.
(٧) ميزان الحكمة، الريشهري، ج١، ص ٦٤٠.
(٨) م. ن، ص ٦٤٠.
(٩) ميزان الحكمة، الريشهري، ج١، ص ٦٤٠.
(١٠) م. ن.
(١١) م. ن.

الأموات»[١]. هذا وإنّ من عظمة الإسلام العزيز أنّ رحمته لم تقتصر على المؤمنين بالله جلَّ جلاله فقط، بل نعمة الإحسان وبركاتها تشمل حتّى المشركين بالله تعالى كبرياؤه، وتسري إلى أعقاب أعقابه.

روي عن سلمان بن عامر الضبّيّ: قلت: «يا رسول الله! إنّ أبي كان يُقري الضيف، ويُكرم الجار، ويفي بالذّمة، ويُعطي في النائبة، فما ينفعه ذلك؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: مات مُشركاً؟.

قلت: نعم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: أما إنّها لا تنفعه، ولكنّها تكون في عقبه إنّهم لن يُخزوا أبداً، ولن يُذلّوا أبداً، ولن يفتقروا أبداً»[٢].

وهذا ما أشار إليه الإمام الكاظم عليه السلام - في قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ -: «جرت في المؤمن والكافر والبِرّ والفاجر، من صنع إليه معروف فعليه أن يُكافئ به، وليست المكافأة أن تصنع كما صنع حتى ترى فضلك، فإن صنعت كما صنع فله الفضل بالابتداء»[٣].

هل قابلنا إحسان اللّه بالإحسان؟

إنّ من أسماء المولى عزَّ وجلَّ (المحسن)، وإحسانه يشمل مخلوقاته جميعاً لا سيّما أشرفهم وأكرمهم في الخليقة وهم البشر، حيث أنعم عليهم بالخير والبركات وجعل كلَّ الكائنات في خدمتهم.

ولكن نحن عبيده هل قابلنا هذا الإحسان بالإحسان كما أمرنا الله تعالى في محكم كتابه: ﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[٤]، أم إنّنا قابلناه بالذنوب والمعاصي والسيّئات؟! ألا نستحي من أنفسنا أن نُكافئ المحسن بجزيل النعم بالإساءة وبالإعمال القبيحة الصادرة عنّا؟

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «عادة اللئام المكافأة بالقبيح عن

---

(١) م. ن.
(٢) كنز العمال، ح ١٦٤٩٥.
(٣) بحار الأنوار، العلّامة المجلسيّ، ج١، ص ١٥٢.
(٤) الرحمن: ٦٠.

الإحسان»[١]، وعنه عليه السلام: «شرُّ الناس من كافأ على الجميل بالقبيح»[٢]..

هل نحن من اللئام..؟! وهل نحن من شرّ الناس..؟!

فلنقف مع أنفسنا ولو قليلاً ونُحاسبها ونسألها إلى أين نحن ذاهبون؟! وكيف لنا أن نردَّ الجميل ونُقابل الإحسان بالإحسان؟

لكي نعرف الجواب الصائب ونسلك الطريق الصحيح، علينا أن نعود إلى منبع الحكمة والهدى.

روى عمر بن يزيد قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «إذا أحسن المؤمن عمله ضاعف الله عمله بكلِّ حسنة سبعمائة..

فقلت له: وما الإحسان؟.

قال: فقال عليه السلام: إذا صلّيت فأحسن ركوعك وسجودك، وإذا صمت فتوقَّ كلَّ ما فيه فساد صومك... وكلّ عمل تعمله لله فليكن نقيّاً من الدنس»[٣]..

وروي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سُئل عن الإحسان، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»[٤].

إذاً، لكي نكون من المحسنين لا بُدَّ أن نأتي بأعمالنا على وجه حسن، أي الإخلاص لله وحده وطاعته، قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٥].

وبالنتيجة: إنّ الله سبحانه في غنىً عنّا ونحن الفقراء إليه، أليس هو القائل: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا..﴾[٦]، ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[٧]؟!.

ويقول أمير المحسنين الإمام عليّ عليه السلام: «إنّك إن أحسنت فنفسك

---

(١) ميزان الحكمة، الريشهري، ج٣، ص ٢١٩٢.
(٢) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص ٢٩٥.
(٣) بحار الأنوار، العلّامة المجلسيّ، ج ٨٦، ص ٢٤٧.
(٤) م. ن، ج ٦٧، ص ٢١٩.
(٥) البقرة: ١١٢.
(٦) الإسراء: ٧.
(٧) العنكبوت: ٦.

تُكرم، وإليها تُحسن، إنّك إن أسأت فنفسك تمتهن وإياها تغبن»[١]؟!.

مقام المحسن عند الله:

إنّ الله سبحانه يُحبُّ المحسنين: ﴿.. وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢]، بل ﴿.. إِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣]، وإنّ رحمته قريبة منهم: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٤].

أمّا جزاء المحسنين فالله تبارك وتعالى قد تكفّل به: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾[٥]، ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٦].

من قصص تلامذة مدرسة أهل العفو والإحسان عليهم السلام[٧]:

كان مالك الأشتر(رضوان الله عليه) مارّاً في سوق الكوفة وعليه قميص خام وعمامة من خام أيضاً.. فرآه شخص عليه الطيش، فاحتقره لثيابه العادية هذه.. ورماه ببندقة من طين فلم يلتفت إليه الأشتر ومضى.

فقيل له: هل تعرف من رميت؟

قال: لا.

قيل: هذا مالك الأشتر صاحب أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد كان حديث مالك بين الناس على كلِّ شفة ولسان.

فارتعد الرجل.. وتبع الأشتر ليعتذر إليه.. فوجده قد دخل مسجداً.. وهو قائم يُصلِّي. فلمّا فرغ من صلاته وقع الرجل على قدميه يُقبِّلهما.

فقال الأشتر: ما هذا؟

قال الرجل: أعتذر إليك ممّا صنعت.

---

(١) ميزان الحكمة، الريشهري، ج١، ص ٦٤٣.

(٢) البقرة: ١٩٥.

(٣) العنكبوت: ٩٦.

(٤) الأعراف: ٥٦.

(٥) النحل: ٣٠.

(٦) الزمر: ١٠. س.

(٧) (القصص العجيبة للشهيد دستغيب).

قال الأشتر: لا بأس عليك فوالله ما دخلت المسجد إلّا لأستغفر لك.

العمل الصالح وخير الأعمال:

ممّا يساعد الإنسان على نيل مقام القُرب الإلهيّ، العمل الصالح، وهو يدفع بالنفس الإنسانيّة في طريق التكامل، يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وقد أكد القرآن الكريم كثيراً على العمل الصالح، وأنه الوسيلة الوحيدة لسعادة الإنسان وتكامله، وهذا العمل إما واجب أو مستحب، وقد حددت الواجبات كما حدّدت المستحبّات في الشرع الحنيف، ومن الواضح أن الأهمّ هو القيام بالواجبات، فإذا فرغ من الواجبات ينتقل إلى المستحبات، فلا يمكن لشخص أن ينال مقام القرب إذا قصر في الواجبات حتى لو بذل جهوداً مضاعفة في المستحبات، ومن هنا سوف نبدأ بالحديث عن الواجبات، ونشير إلى بعضٍ منها، ثم نتحدث بعد ذلك عن بعض المستحبّات، لكن بما أن الإخلاص في العمل مشترك بينهما، ويعد شرطاً أساسياً للقرب، فسنتعرّض له ولمراتب العبادة أوّلاً.

الإخلاص:

إن مقام الإخلاص من أرفع المقامات، وله آثار جليلة جداً ذكرتها الروايات بالتفصيل، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أخلص عبد أربعين صباحاً إلا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[2].

وتلك القلوب المخلصة تصبح مواضع لنظر الله تعالى، يقول الإمام عليّ عليه السلام: «أين الذين أخلصوا أعمالهم لله، وطهروا قلوبهم لمواضع نظر الله»[3].

---

(١) النحل: ٩٧.

(٢) المجلسيّ-محمّد باقر -بحار الأنوار- مؤسسة الوفاء .الطبعة الثانية المصححة -ج ٧٠ ص ٢٤٢

(٣) غرر الحكم ص ١٠٢ ح ١٧.

وللإخلاص مراتب عديدة، أدناها أن يخلص المرء عباداته من الشرك والرياء والعجب، وأن يؤدّيها لله تعالى فقط، وهذا المستوى هو شرط لصحّة العبادة، فلا تكون العبادة صحيحة من دونه، ولا شك أن نيّة المرء تؤثّر في مصيره يوم القيامة، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا عملت عملاً فاعمل لله خالصاً، فإنه لا يقبل من عباده الأعمال إلا ما كان خالصاً»[١]، ويقول الإمام الصادقَ عليه السلام: «إن الله يحشر الناس على نياتهم يوم القيامة»[٢].

(١) المجلسي- بحار الانوار- مؤسسة الوفاء- بيروت - لبنان - الطبة الثانية المصححة.
(٢) المجلسيّ-محمّد باقر -بحار الأنوار- مؤسسة الوفاء .الطبعة الثانية المصححة -ج ٧ ص ٢١٩.

المبحث العاشر:

في الذكر والصلاة

(مراتب وآثار الذكر

حضور القلب في الصلاة والعوامل المؤثِّرة

في حضور القلب

النوافل وصلاة الليل وآثارها

كتمان السرّ وفوائد كتمان السرّ)

ذِكرُ اللَّه

ذكرُ الله هو أحد الوسائل لتكميل النفس، ولسيرها نحو القرب من الله سبحانه، فإنَّ السير والسلوك إلى الله ينطلق من ذكره تعالى، وإنَّ أكثر ما يساعد السالك على طيّ المسافات، هو المداومة على ذكره تعالى، ولذلك أكَّد القرآن الكريم على حقيقة الذكر، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام في رسالة لأصحابه: «وأكثروا ذكر الله ما استطعتم في كلِّ ساعة من ساعات الليل والنهار، فإنَّ الله أمر بكثرة الذكر، والله ذاكر لمن ذكره من المؤمنين، واعلموا أنَّ الله لم يذكره أحد من عباده المؤمنين إلَّا ذكره بخير»[2].

ولهذه الأهميّة قمنا بجعل درسٍ مستقلّ للذكر، بعد أن كان أحد أهمّ العوامل المساعدة على الوصول.

ما المقصود من الذكر؟

لا بدّ أن نعرف ما هو الذكر، وما هي حقيقته؟ فهل هو مجرَّد الذكر اللفظيّ أم ماذا؟

كان فيما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإمام علي عليه السلام: «يا علي، ثلاث لا تطيقها هذه الأمّة: المواساة للأخ في ماله،

---

(١) الأحزاب: ٤١.

(٢) الحرّ العاملي - محمّد بن الحسن - وسائل الشيعة - مؤسسة أهل البيت - الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ.ق.- ج٤ ص ١١٨٣.

وإنصاف الناس من نفسه، وذكر الله على كلّ حال، وليس هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف الله عزَّ وجلّ عنده وتركه»[١].

لم يُرِد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفي كون هذه العبارات من ذكر الله تعالى، بل المراد في هذا الحديث الإشارة إلى تلك المرتبة الكاملة من الذكر، التي تعني أن يرى العبد ربَّه حاضراً وناظراً إليه، وأن يرى نفسه في محضره، فيمتنع عن معصيته، ويقدم على طاعته، ومن هنا أكَّدت الروايات على الذكر بمعنى التوجّه القلبيّ والحضور الباطنيّ، باعتبار كونه الفرد الأكمل من الذكر، وهذا يقود إلى الحديث عن مراتب ذكر الله تعالى.

مراتب الذكر

للذكر مراتب كثيرة، تبدأ من الذكر اللسانيّ حتى تصل إلى الإنقطاع إلى الله تعالى وسنشير إلى بعضٍ منها:

المرتبة الأولى: أن يؤدّي الذاكر أوراداً خاصّة بقصد القربة دون الإلتفات إلى معانيها.

المرتبة الثانية: أن يردّد الإنسان الأذكار بقصد القربة مع الالتفات إلى المعاني.

المرتبة الثالثة: أن يكون القلب متوجّهاً إلى الله تعالى وهو يدرك معاني الأذكار ثمَّ يأمر اللسان بالقيام بالذكر.

المرتبة الرابعة: أن يكون السالك متوجّهاً توجّهاً كاملاً إلى الله تعالى، فيرى الله حاضراً وناظراً، ويشاهد نفسه أنَّه في محضره تعالى، ولا يلتفت إلى شيء من ظواهر هذه الدنيا، لأنَّه وصل إلى مصدر الكمال فلا يرى غيره.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إلهي هبْ لي كمال الانقطاع إليك، وأنرْ أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلَّقة بعزِّ قدسك»[٢].

---

(١) المجلسيّ- محمّد باقر -بحار الأنوار- مؤسسة الوفاء .الطبعة الثانية المصححة -ج ٩٣ ص ١٥١.

(٢) مفاتيح الجنان دعاء عرفة.

آثار الذكر:

أ) الإلتزام بطاعة الله: فإنَّ من وصل إلى مرحلة يشعر فيها بشكل دائم بوجود الله وحضوره عزّ وجلّ، ووجد نفسه في محضر الله، فسوف يدفعه ذلك إلى الالتزام بطاعة الله تعالى والعمل بأوامره.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: «من كان ذاكراً لله على الحقيقة فهو مطيع ومن كان غافلاً عنه فهو عاص»[(١)]..

ب) الخضوع والخشوع: إنَّ من شاهد عظمة الله تعالى سيكون خاضعاً له منكسراً أمامه، خاشعاً لديه، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ومعرفتك بذكره لك، يورثك الخضوع والاستحياء والإنكسار»[(٢)].

ج)عشق العبادة: إنَّ من آثار الذكر الدائم لله والإحساس بحضوره، التعلّق الشديد بالعبادة والالتذاذ بها، لأنَّ مَن أدرك عظمة الله ورأى نفسه في محضره، رجَّح لذّة المناجاة والتضرّع والتوسّل على أيّة لذّة أخرى.

د) السكينة والطمأنينة: إنَّ الدنيا مليئة بالبلاء والآلام والأمراض، وهذه الأمور والخوف منها يسلبان الإنسان راحته وطمأنينته، إذا كان بعيداً عن ذكر الله، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[(٣)].

أمّا عباد الله المخلصون، الذاكرون لله، الذين تعلّقت قلوبهم بمصدر الكمال والخير، فإنَّهم لا يجزعون ولا يضطربون لفقد شيء من حطام هذه الدنيا، وهم في سكينة وطمأنينة عند نزول البلاءات الإلهيّة: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ﴾[(٤)].

ن) ذكر الله لعبده: إذا ذكر العبد ربَّه فإنَّ الله تعالى سيذكره ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[(٥)]، ومعنى ذكره تعالى لعبده أنَّه يصبح محلّاً لعنايته ورعايته ولطفه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قال الله تعالى: إذا علمت أنَّ الغالب على عبدي الإشتغال بي، نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي، فإذا كان عبدي

(١) المجلسيّ-محمّد باقر-بحار الأنوار- مؤسسة الوفاء .الطبعة الثانية المصححة -ج ٩٣ ص ١٥٨.
(٢) م. ن.
(٣) طه: ١٢٤.
(٤) الرعد: ٢٨.
(٥) البقرة: ١٥٢.

كذلك فأراد أن يسهو حلتُ بينه وبين أن يسهو، أولئك أوليائي حقّاً، أولئك الأبطال حقّاً، أولئك الذين إذا أردت أن أُهلك الأرض عقوبةً، زويتها عنهم من أجل أولئك الأبطال»[١].

و) محبّة الله لعبده: من نتائج الذكر محبّة الله لعبده، عن الإمام الصادق عليه السلام: «من أكثرَ ذكر الله أحبّه الله»[٢].

مراتب العبادة:

ليست العبادة مرتبة واحدة، بل هي تختلف باختلاف نية الذين يؤدّونها، وهم على فئات:

الفئة الأولى: الذين يعبدون الله تعالى خوفاً من عذابه.

الفئة الثانية: الذين يعبدون الله طمعاً في جنته.

هذه الأهداف لا تضرّ بالعمل، وهي توجب القرب الإلهيّ، وإن كان الذين لديهم هذه الأهداف لا تكون عبادتهم بمستوى الذين يقومون بها لأهداف أسمى.

الفئة الثالثة: وهم الذين يعبدون الله شكراً لنعمه، وهذا القصد هو أفضل من غيره، يقول الإمام علي عليه السلام: «إن قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»[٣]..

الفئة الرابعة: الذين يعبدون الله تعالى لتربية أنفسهم وتزكيتها، وهذا القصد لا يضرّ بإخلاص العمل.

الفئة الخامسة: الذين يعبدون الله تعالى لأنهم يعرفونه بأنه مفيض الخيرات والكمالات، فهو أهل للعبادة وهم يخشعون أمامه ويخضعون له

---

(١) المجلسيّ-محمّد باقر -بحار الأنوار- مؤسسة الوفاء .الطبعة الثانية المصححة - ج٣٩ ص ١٦٢.
(٢) الحر العاملي - محمّد بن الحسن - وسائل الشيعة - مؤسسة أهل البيت - الطبعة الثانية ١٤١٤ ه.ق.- ج٤ ص ١١٨١.
(٣) م.ن. ص ١٩٦.

ويحبّونه لأنهم وجدوه جديراً بأن يُعبَد، وهؤلاء هم أفضل من غيرهم.

ولا بدّ من التأكيد على حقيقة هامّة وهي: أن الجد في العبادة يوصل الإنسان إلى الإخلاص، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الإخلاص ثمن العبادة»[1]، وهنا يكمل الإيمان، فعنه عليه السلام: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فهو ممن يكمل إيمانه»[2].

خير الأعمال:

الصلاة هي من أفضل الأعمال الصالحة التي تدفع الإنسان في طريق القرب من الله تعالى، يقول الإمام الرضا عليه السلام: «الصلاة قربان كلّ تقيّ»[3]، وفي حديث آخر له عليه السلام: «أقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد وذلك قوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾»[4].

والصلاة هذه هي الصلاة التي تُقبل فيها على الله، وتؤدّيها بشروطها، ويكون قلبك فيها حاضراً، ولذا سوف نتحدث عن حضور القلب في الصلاة.

حضور القلب في الصلاة:

الصلاة تركيب ملكوتيّ، وهي وسيلة الاتصال بالله تعالى، والتضرّع له وذكره، وهي معراج المؤمن، وميزان قبول الأعمال، وهي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وفي كلّ جزء من أجزائها سّر إلهي، لكن بشرط أن يكون فيها روح وحياة، وروح الصلاة حضور القلب والتوجّه إلى الله والخشوع بين يديه، لأن الصلاة بدون قلب، كالجسد من دون روح، فحضور القلب هو روح الصلاة، ومن دونه تكون الصلاة ميتة.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن من الصلاة لما يقبل نصفها

---

(١) غرر الحكم ص ١٤ . ح ٤٤.

(٢) المجلسيّ-محمّد باقر -بحار الأنوار- مؤسسة الوفاء .الطبعة الثانية المصححة -ج ٧ ص ٢٤٨.

(٣) الكليني-الكافي- دار الكتب الإسلامية .آخوندي-الطبعة الثالثة، ج٣ ص ٢٦٥.

(٤) م.ن. ص ٢٦٥.

وثلثها وربعها وخمسها إلى العشر، وإن منها لما يلفّ كما يلفّ الثوب الخلق، فيضرب بها وجه صاحبها، وإنما لك من صلاتك ما أقبلت عليه بقلبك»[١]..

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يقومنّ أحدكم في الصلاة متكاسلاً ولا ناعساً، ولا يفكّرن في نفسه فإنّه بين يدي ربّه، وإنما للعبد من صلاته ما أقبل عليه منها بقلبه»[٢].

وروي عن علي بن الحسين عليه السلام أنه صلى فسقط الرداء عن منكبيه، فتركه حتى فرغ من صلاته، فقال له بعض أصحابه: يابن رسول الله سقط رداؤك عن منكبيك فتركته ومضيت في صلاتك؟ فقال عليه السلام: «ويحك تدري بين يدي من كنت؟ شغلني والله ذلك عن هذا، أتعلم أنه لا يقبل من صلاة العبد إلا ما أقبل عليه؟»، فقال له: يابن رسول الله هلكنا إذاً، قال عليه السلام: «كلا إن الله يتمُّ ذلك بالنوافل»[٣].

مراتب حضور القلب:

لحضور القلب مراتب عديدة، نشير إلى بعضٍ منها بشكل مجمل:

الأولى: أن يكون المصلّي ملتفتاً في صلاته بالإجمال لله تعالى، وإن لم يكن ملتفتاً لمعاني الألفاظ بالتفصيل.

الثانية: أن يلتفت المصلّي لمعاني الكلّمات، فضلاً عن كونه متوجّهاً إلى أنّه يكلّم الله تعالى ويتضرّع إليه.

الثالثة: أن يصبح المصلّي عارفاً بحقيقة كلّ ذكر من أذكار الصلاة، فضلاً عن كونه ملتفتاً مع من يتكلم.

الرابعة: أن تدخل تلك المعارف إلى باطنه بشكل كامل، وهنا يكون اللسان تابعاً للقلب في أفعاله.

الخامسة: أن يصل المصلّي إلى مرتبة الحضور الكامل، فلا يرى غير الله ويغفل عن كلّ ما سواه.

---

(١) المجلسيّ-محمّد باقر -بحار الأنوار- مؤسسة الوفاء .الطبعة الثانية المصححة - ج ٨٤ ص ٦٢.

(٢) م.ن. ج ٨٤ ص ٢٣٩.

(٣) م. ن. ص ٢٦٥.

العوامل المؤثِّرة في حضور القلب:

بمجرد أن يقف المصلّي للصلاة، حتى تبدأ رياح الأفكار تأخذه يميناً وشمالاً، فكان من الضروريّ الإلتفات إلى أمور قد تكون مفيدة في حضور القلب:

١ - مكان الخلوة: الأفضل للمصلّي أن يختار مكاناً ليس فيه ما يلفت انتباهه عن التوجّه لله تعالى، ويحاول ألا يلتفت إلى ما حوله من أمور تصرفه عن التوجّه له تعالى.

٢ - رفع الموانع: من قبيل إذا كان مضطرباً لجهة العطش بأن يشربَ ثم يصلّي، أو إن كان تعباً يرتاح ثم يصلّي، وهكذا كلّ الأمور التي تمنعه عن التوجّه للصلاة، ولعل من أخطر الموانع التعلّق بأمور الدنيا، كالمال والجاه وغيرهما، لذلك على المصلّي أن يقطع علاقته بهذه الأمور حتى يسهل عليه حضور القلب والتوجّه نحو الله.

٣ - تقوية الإيمان: إن توجّه الإنسان لله تعالى يرتبط بمقدار معرفته، فمن يصل إلى أكمل الإيمان، ويتعرف على عظمة الله وقدرته، ويرى الله تعالى حاضراً، سيكون قلبه حاضراً لدى الصلاة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اعبد الله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك»[1].

وعن أبان بن تغلب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني رأيت علي بن الحسين عليه السلام إذا قام في الصلاة غشي لونَه لونٌ آخر، فقال لي: «والله إن علي بن الحسين كان يعرف الذي يقوم بين يديه»[2].

٤ - ذكر الموت: إذا التفت الإنسان إلى أن الموت قد يأتيه في أيّ وقت، وأن هذه الصلاة قد تكون آخر صلاة يصلّيها، فلن تكون صلاته كصلاة الغافلين، ولذا من المستحسن أن يتصور المصلّي أن هذه الصلاة التي يصلّيها قد تكون آخر صلاة، وأنه لم يبقَ أمامه إلا هذه اللحظات لتختمَ صحيفة أعماله.

---

(١) نهج الفصاحة، ص ٦٥.

(٢) المجلسيّ-محمّد باقر -بحار الأنوار- مؤسسة الوفاء .الطبعة الثانية المصححة - ج ٨٤ ص ٢٣٦.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا صلّيت صلاة فريضة فصلِّها صلاة مودّع يخاف أن لا يعود إليها أبداً، ثم اصرف ببصرك إلى موضع سجودك، فلو تعلم من عن يمينك وشمالك لأحسنت صلاتك، واعلم أنك بين يدي من يراك ولا تراه»[1].

٥ - التهيّؤ والاستعداد للصلاة: على المصلّي أن يتهيّأ للصلاة، فيقوم بكلّ ما ذكرناه قبل صلاته، ويبدأ بالأذان والإقامة، ويقرأ الأدعية الواردة في هذا المجال، ويقول: «يا محسن قد أتاك المسيء».. فإذا حصل الخشوع كبر تكبيرة الإحرام وشرع في صلاته.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إذا استقبلت القبلة فانسَ الدنيا وما فيها والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك عن كلّ شاغل يشغلك عن الله، وعاين بسرّك عظمة الله، واذكر وقوفك بين يديه، يوم تبلو كلّ نفسٍ ما أسلفت وردّوا إلى الله مولاهم الحقّ، وقف على قدم الخوف والرجاء، فإذا كبرت فاستصغر ما بين السماوات العلى والثرى دون كبريائه، فإن الله تعالى إذا اطلع على قلب العبد وهو يكبّر، وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال: يا كاذب أتخدعني؟ وعزّتي وجلالي لأحرمنك حلاوة ذكري ولأحجبنك عن قربي والمسارّة بمناجاتي»[2].

الصلاة هبة إلهية[3]:

إن الصلاة تمثّل أعظم الفرائض في الميدان الأبدي للبحث عن الحقيقة، والذي فُرض على الانسان بل جُبل عليه وأكثرها تأثيراً، ولعلّ البعض تعرف على هذه الخصوصية من خلال الجهد الفردي نحو الكمال فقط، ولم يسمع بدورها في ميدان الجهاد الجماعي لمواجهة القوى الدنيوية المناهضة، لذا يجب أن نعرف أن الرجولة والثبات في المواجهات المختلفة، مرتبطة بكون القلوب والارادات مليئة بالصفاء والتوكل والثقة بالنفس والأمل بحسن العاقبة.

---

(١) الحر العاملي- وسائل الشيعة - مؤسسة آل البيت(ع) لإحياء التراث- الطبعة الثانية- ج ٤- ص ٥٨٦.

(٢) م.ن. ص ٢٣٠.

(٣) الإمام الخامنئي.

إن الصلاة تمثّل النبع الفوار الذي يفيض بكل هذه، وفيوضات كثيرة أخرى على قلب وروح المصلي، وتصنع منه إنساناً نقياً متفائلاً ثابت الإرادة والعزم.

وما جاء في القرآن بأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ووصفت على لسان النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم بأنها معراج المؤمن، وقربان كل تقيّ، وفي كلمة واحدة أنها عمود الدين، ووصفها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنها «قرة عيني» يجب أن يحثنا إلى التأمل والعمُق في فهم عظمة الصلاة.

طبعاً، يجدر بنا أن نعلم أن الصلاة لا تعني التفوّه ببعض الكلمات، وأداء بعض الحركات، فلا تترتب كل هذه الفيوضات والبركات على إيجاد أمواج صوتية، وأعمال بدنية، دون أن تبعث في هذا البدن روح الذكر والتوجه. فروح الصلاة هي ذكر الله، والخشوع والحضور أمامه، وهذه الكلمات والأفعال التي فرضت على المكلّف بالتعليم الإلهي، أفضل إطار لروحه، وأقرب الطرق لوصوله إلى المحل المقصود.

فصلاة بلا ذكر وحضور، كبدن بلا روح، وإطلاق لفظ الصلاة عليها وإن لم يكن على سبيل المجاز، لكن لا ينبغي أن يرتجى منها أثر وخاصية الصلاة أيضاً.

وقد ورد الحديث عن هذه الحقيقة في الآثار الدينية بعنوان «قبول الصلاة» وهكذا ورد أنه «ليس لك من صلاتك إلا ما أقبلت عليه».

إن هذه الصلاة موهبة ليس لها بديل، ومنبع فيض لا يزول، نستثمرها لإصلاح أنفسنا أولاً، ومن نحبّ ثانياً، وهي بوابة مفتوحة إلى جنة واسعة يسودها الصفاء، وأنه لَمِن المؤسف أن يقضي الإنسان عمره بجوار هذه الجنة ولا يحاول أن يزورها، أو يدعوَ أحباءه اليها، فقد أبلغ الوحي النبي العظيم صلى الله عليه وآله وسلم: «وأمُر أهلك بالصلاة واصطبر عليها». واليوم اعتبروا هذا الخطاب موجهاً إليكم وقدروا أهمية الصلاة، هذه الحقيقة المقدسة والدرّ الساطع الذي هو هبة إلهية لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ولكل منكم سهمه الخاص إزاء هذه الوظيفة.

فعلى الآباء والأمهات هداية الأبناء بالقول والعمل نحو الصلاة. وعلى المعلمين إرشاد طلاب المدارس والجامعات نحو هذه الحقيقة الساطعة.

النوافل وصلاة الليل:

ذكرنا في الدرس الماضي أنَّ الصلاة هي أفضل وسيلة للسير والسلوك والتقرب إلى الله سبحانه، والصلوات إجمالاً تقسَّم إلى قسمين: واجبة، ومستحبة.

فالصلوات الواجبة هي الصلوات اليومية، وصلاة الآيات، وصلاة الميت، وصلاة الطواف الواجب، والصلاة التي تجب على الإنسان بنذر أو يمين أو عهد، وقضاء ما فات على الأب من صلاة واجبة، وهي واجبة على الابن الأكبر.

أ) النوافل اليومية:

وأمَّا الصلوات المستحبة فكثيرة أهمّها: النوافل اليومية، وهي أربع وثلاثون ركعة على الشكل التالي: نافلة الظهر ثماني ركعات، نافلة العصر ثماني ركعات، نافلة المغرب أربع ركعات، نافلة العشاء ركعتان من جلوس تعدان بركعة، ونافلة الصبح ركعتان، صلاة الليل إحدى عشرة ركعة.

وقد ورد التأكيد في الأحاديث على أداء النوافل اليومية، وأنَّها مكملة للصلوات الواجبة، وأنَّ لها ثواباً وآثاراً في الدنيا والآخرة. فعن ابي الحسن عليه السلام قال: «صلاة النوافل قربان كل مؤمن»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ العبد لترفع له من صلاته نصفها أو ربعها أو خمسها، وما يرفع له إلَّا ما أقبل عليه منها بقلبه، وإنَّما أُمرنا بالنوافل ليتم لهم بها ما نقصوا من الفريضة»[٢].

وعنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى: ما تحبَّب إلي عبدي بشيء، أحب إلي مما افترضته عليه، وإنَّه يتحبب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي

---

(١) المجلسي-محمد باقر -بحار الأنوار- مؤسسة الوفاء .الطبعة الثانية المصححة - ج٧٨ ص ٣٦.

(٢) م.ن. ص ٢٨.

يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، إذا دعاني أجبته، وإذا سألني أعطيته»[1].

ب) أهمية صلاة الليل:

صلاة الليل من أهم النوافل التي لها أثر كبير في نيل مقام القرب الإلهيّ وتزكية النفس، فقد أمر تعالى بها نبيه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ووعده عليها بالمقام الرفيع قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[2].

وقال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم م ن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3].

وقد وصف الله تعالى عباده بقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَب هِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾[4].

وقد حثَّت الروايات الشريفة على صلاة الليل، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الله جل جلاله أوحى إلى الدنيا أن أتعبي من خدمكِ واخدمي من رفضك، وإنَّ العبد إذا تخلَّى بسيده في جوف الليل المظلم، وناجاه أثبت الله النور في قلبه، فإذا قال يا رب! يا رب! ناداه الجليل جل جلاله: لبيك عبدي، سلني أعطك، وتوكَّل عليٍ أكفك؛ ثمَّ يقول جل جلاله لملائكته: ملائكتي انظروا إلى عبدي فقد تخلَّى في جوف هذا الليل المظلم، والبطَّالون لاهون، والغافلون ينامون، اشهدوا أن ي قد غفرت له»[5].

ج) آثار صلاة الليل:

ذكرت لصلاة الليل آثار كثيرة، من قبيل أنَّها تحس ن الأخلاق، وتدر الأرزاق، وتذهب بالهم، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «صلاة الليل

---

(1) ن.م. ص ٣١.

(2) الإسراء: ٧٩.

(3) السجدة: ١٦ - ١٧.

(4) الفرقان: ٦٣- ٦٤.

(5) المجلسي-محمد باقر -بحار الأنوار- مؤسسة الوفاء .الطبعة الثانية المصححة -ج ٨٤ ص ١٣٧.

تحسن الوجه، وتحسن الخلق، وتطيب الريح، وتدرُّ الرزق، وتقضي الدين، وتُذهب بالهم، وتجلو البصر»[١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «صلاة الليل مرضاة الرب، وحب الملائكة، وسنَّة الأنبياء، ونور المعرفة، وأصل الإيمان، وراحة الأبدان، وكراهية الشيطان، وسلاح على الأعداء، وإجابة الدعاء، وقبول الأعمال، وبركة في الرزق، وشفيع بين صاحبها وملك الموت، وسراج في قبره، وفراش تحت جنبه، وجواب مع منكر ونكير، ومونس وزائر في قبره إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كانت الصلاة ظلاً فوقه، وتاجاً على رأسه، ولباساً على بدنه، ونوراً يسعى بين يديه، وستراً بينه وبين النار، وحجة للمؤمن بين يدي الله تعالى، وثقلاً في الميزان، وجوازاً على الصراط، ومفتاحاً للجنة؛ لأن الصلاة تكبير، وتحميد، وتسبيح، وتمجيد، وتقديس، وتعظيم، وقراءة دعاء، وإن أفضل الأعمال كلها الصلاة لوقتها»[٢].

د) كيفية صلاة الليل:

صلاة الليل إحدى عشرة ركعة، تؤدى ركعتين ركعتين، كصلاة الصبح، ثمَّاني ركعات تؤدى بنية صلاة الليل، وركعتان بنية صلاة الشفع، وركعة بنية الوتر، ولهذه الصلاة آداب وأدعية عديدة، تزيد في آثارها وفوائدها.

زينب عليها السلام ليلة الحادي عشر من المحرم[٣]:

في ليلة العاشر من شهر محرَّم كانت زينب، وكان الحسين عليه السلام، كانت زينب عليها السلام وكان الجميع.. كلُّ شخص، وكلُّ شيء.. في ليلة الحادي عشر كانت زينب ولم يكن غير زينب، زينب سيدة النساء.. في هذه الليلة كانت زينب هي الراعي، هي قائدة قافلة الأسرى وملجأ الأيتام.. رغم ثقل المصائب ومرارتها.. كانت زينب طوداً شامخاً واجهت المصائب ولم يرمش لها جفن.

تولَّت حراسة الأسرى، تولَّت جمع النساء والأطفال.. تولَّت تجميع الهائمين على وجوههم في الصحراء، تولَّت تمريض العليل الضعيف.. كانت

---

(١) م. ن ج ٨٧ ص ١٤٨.
(٢) م.ن. ص ١٦١.
(٣) سيماء الصالحين: ص ١٨١.

الروح للأجساد التي فقدت الروح.. والبهجة للقلوب التي فقدت البهجة، والرمق للنفوس التي فقدت الرمق.

كانت تمضي مسرعةً من هذه الجهة إلى تلك.. تبحث عمَّن افتقدت.. كان ضربُ السياط يؤلمها.

وأشواك الصحراء تدميها.. إلَّا أنَّ زينب تبحث عن اليتامى.. كان كبدها يحترق ولكنها تبحث عن اليتامى.

هذا الجسد الذي هدَّه الألم.. كان معجزة.. أثبتت زينب كفاءة منقطعة النظير، فلم يسقط طفل تحت حوافر الخيل.. ولا احترقت امرأة بالنار.. ولا ضاع طفل في تلك الليلة المشؤومة.

وبعد أن أنجزت زينب كل هذه المهام، واطمأنت على سلامة الجميع، توجَّهت إلى الله، وانصرفت إلى العبادة، وصلَّت صلاة الليل. لقد كانت متعبة جداً، بحيث أنَّها لم تستطع أن تصليها وقوفاً.. فصلَّت صلاة الليل من جلوس وتضرَّعت إلى الله تعالى وابتهلت.

كانت زينب إلهية.. والإلهيون هكذا يواجهون المصائب ولا يرمش لهم جفن.. صابرين.. شاكرين.

كتمان السرّ:

إن كتمان السرّ من قضايا الأخلاق العمليّة، التي ينبغي إلا يُغفل عنها وعن أهميتها من قِبَلِ المؤمنين الذين يهتمون بتربية أنفسهم وتزكيتها على مكارم الأخلاق.

إن كل سر يؤدي إفشاؤه إلى مفسدة، سواء على المستوى الفردي، أو الاجتماعي، فهذا السرّ يجب كتمانه من باب حرمة الإضرار بالنفس أو الآخرين أو إيذائهم، فلا يعطى هذا السر إلى من يمكن أن تترتب على إعطائه له تلك المحاذير، ولا ريب في كون هذا الأمر سوف يؤدي إلى المساعدة على نجاح المؤمنين في أعمالهم العامة الاجتماعية والدينية، مما يؤدي إلى توفير كثير من الأجواء والإمكانيات والعوامل التي تساعد الكثيرين على الأخذ بسبيل التدين، ما يعني التوجه نحو بناء النفس وتهذيبها والسير في طريق القرب الإلهي.

١ - أهمية الكتمان:

أعطى المعصومون عليهم السلام للكتمان اهتماماً خاصاً، فعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «استعينوا على قضاء حائجكم بالكتمان»[١] وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «سرك أسيرك، فإن أفشيته صرت أسيره»[٢].

وعنه عليه السلام أيضاً: «جمع خير الدنيا والآخرة في كتمان السرّ ومصادقة الأخيار، وجمع الشر في الإذاعة ومواخاة الأشرار»[٣].

٢ - موارد الكتمان:

توجد موارد كثيرة لكتمان السرّ، منها ما يتعلق بالجانب الشخصيّ والعائلي، ومنها ما يرتبط بالجانب السياسي والاقتصادي، ومنها ما يرتبط بالجانب الأمني والعسكري، والجانب الديني:

أ- الجانب الشخصي والعائلي: ففيما يرجع إلى حياة الانسان اليومية والعائلية، والتي تبقى على حفظ بعض الاسرار الخاصة، والخاضعة للتبدل والتغير، فمن كتم سره أمكنه تجنب الأخطاء. فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام قوله: »من كتم سره كانت الخيرة بيده»[٤].

ب - الجانب السياسي والاقتصادي: وهو خاص بالعاملين في هذا المجال، وعليهم التحرز من إفشاء أي معلومة يمكن لها أن تضر بمصالح المسلمين.

ج - الجانب الامني والعسكري: ولعله أكثر الموارد أهمية لكتمان السر، لأن العدو يستفيد من المعلومات المفشاة بسرعة، ويلحق الضرر بالمسلمين.

د - الجانب الديني: وهذا يرتبط بإفشاء بعض أسرار الدين مما قد يستغله الأعداء للتشنيع على الدين والمسلمين.

٣ - عمن نكتمْ السرّ؟

---

(١) الريشهري- ميزان الحكمة - دار الحديث - قم - الطبعة الأولي - ج ١ - ص ٦٣.
(٢) م.ن.ج٢.ص ١٢٨٢.
(٣) المجلسي- بحار الانوار- مؤسسة الوفاء - بيروت لبنان - الطبعة الثانية المصححة - ج ٧١ - ص ١٧٨.
(٤) المجلسي - بحار الأنوار - ج ٧٢ - ص.

إن كتمان السرّ يجب أن يكون عن:

١ - الأعداء: ومنهم المنافقون، فعن الإمام علي عليه السلام: «كن من عدوك على أشد الحذر»[١]. وعنه عليه السلام: «لا تشاور عدوك واستره خبرك»[٢].

٢ - الأصدقاء: الذين لا مصلحة ضرورية في معرفتهم بالسر. فعن الصادق عليه السلام: «لا تطلع صديقك من سرك إلا على ما لو اطلع عليه عدوك لم يضرك، فإن الصديق قد يكون عدواً يوماً ما»[٣]. وعن علي عليه السلام: «ليس كل مكتوم يسوغ إظهاره لك، ولا كل معلوم يجوز أن تعلمه غيرك»[٤].

٤ - فوائد كتمان السر:

لكتمان السرّ فوائد عديدة تربوية وعملانية نشير إلى بعضها:

أ - إنه عامل مهم في تحقيق النصر: فعن علي عليه السلام: «الظفر بالحزم، والحزم بإجالة الرأي، والرأي بتحصين الأسرار»[٥]. كما أن انتشار السرّ فيه مخاطر عديدة، فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: «وَيَقْتُلُونَ النبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ» أنه قال: «أما والله ما قتلوهم بأسيافهم ولكن أذاعوا عليهم وأفشوا سرهم فقُتلوا»[٦].

ب - الحفاظ على التوازن المعنوي للمجتمع: لأن إفشاء الأسرار قد يؤدي إلى إيجاد حالات من البلبلة في المجتمع، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدوهُ إِلَى الرسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[٧].

---

(١) غرر الحكم (٢) م. ن ج٢ ص ٨٠٢.

(٣) موسوعة الاستخبارات والأمن ج٣ ص ٢٩٤.

(٤) نهج البلاغة حكمة ٥٨٩.

(٥) م. ن ٨٤.

(٦) أصول الكليني-الكافي- دار الكتب الإسلاميّة .آخوندي-الطبعة الثالثة، ج٢ ص ٣٧١.

(٧) النساء: ٣٨.

٥ - دوافع إفشاء السر

توجد دوافع كثيرة قد يكون أحدها أو بعضها السبب لإفشاء السرّ، منها: الجهل، وعدم الوعي بعواقب الأمور، والثقة العمياء بالآخرين، أو الضعف في تقوى الله عز وجل، فقد ذكرنا أن افشاء السر قد يترتب عليه أمور عديدة هي في واقعها حرام كالإضرار بالآخرين، والإيذاء وهتك الحرمات. وهذه الأمور فيما لو حصلت والعياذ بالله، سيكون من نتائجها الابتعاد عن ساحة القرب الإلهي، وملء صحيفة الأعمال بأشد الذنوب التي تسود القلب وتسخط الرب.

من هنا كان على الإنسان المؤمن الذي يهتم بتربية نفسه، وبناء شخصيّته، أن يراعي مسألة حفظ اللسان عن المحرمات، والتي من أبوابها عدم مراعاة كتمان السرّ، وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى بعض موارده حيث قال: «لا ترموا المؤمنين ولا تتبعوا عثراتهم فإن من يتبع عثرة مؤمن يتبع الله عز وجل عثرته ومن يتبع الله عز وجل عثرته يفضحه في بيته»[١].

غزوة مكة[٢]:

عن محمد بن جبير بن مطعم في قصة فتح مكة قال: لما ولى أبو سفيان راجعاً، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعائشة: جهزينا وأخفي أمرك! وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم خذ على قريش الأخبار والعيون حتى نأتيهم بغتة». ويقال: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم خذ على قريش أبصارهم فلا يروني إلا بغتة، ولا يسمعون بي إلا فجأة».

قالوا: وأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأنقاب، فكان عمر بن الخطاب يطوف على الأنقاب قيماً بهم فيقول: لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه، وكانت الأنقاب مسلمة، إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة.

قالوا: فدخل أبو بكر على عائشة وهي تجهز رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الميرزا النوري - مستدرك الوسائل - مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث - بيروت - لبنان - ج ٩ ص ١٠٩.

(٢) ابن ابي الحديد - شرح نهج البلاغة - ج ١٧ ص ٢٦٥.

وآله وسلم، تعمل قمحاً سويقاً ودقيقاً وتمراً، فقال: يا عائشة، أهمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغزو؟ قالت: ما أدري.

قال: إن كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هم بسفر فأذنينا نتهيأ له.

قالت: ما أدري. لعله يريد بني سليم، لعله يريد ثقيفاً. لعله يريد هوازن! فاستعجمت عليه حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له أبو بكر: يا رسول الله، أردتَ سفراً؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: نعم. قال: أفأتجهز؟ قال: نعم. قال أبو بكر: وأين تريد يا رسول الله؟ قال: قريشاً، وأخفِ ذلك يا أبا بكر! وأمر رسول الله بالجهاز، قال: أوليس بيننا وبينهم مدة؟ قال: إنهم غدروا ونقضوا العهد، فأنا غازيهم. وقال لأبي بكر: أطوِ ما ذكرتُ لك! فظانٌّ يظن أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريد الشام. وظانٌّ يظن ثقيفاً، وظانٌّ يظن هوازن.

مخالفة التكليف(١):

كان في »جبل أحد« شِعب (ثغرة) وقد كلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمسين رجلاً من الرماة بمراقبة ذلك الشِعب، وحماية ظهر الجيش الإسلامي، وأمر عليهم عبد الله بن جبير وكان قد أمر قائدهم بأن ينضحوا الخيل ويدفعوها عن المسلمين بالنبل، ويمنعوا عناصر العدو من التسلل من خلالها، ولا يغادروا ذلك المكان، سواء انتصر المسلمون أم انهزموا، غَلَبوا أو غُلبُوا.

وفعل الرماة ذلك، فقد كانوا في أثناء المعركة يحمون ظهور المسلمين، ويرشقون خيل المشركين بالنبل فتولّي هاربة، حتى إذا ظفر النبي وأصحابه، وانكشف المشركون منهزمين، لا يلوون على شيء، وقد تركوا على أرض المعركة غنائم وأموالاً كثيرة، وقد تبعهم بعض رجال المسلمين ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على بذل النفس في سبيل الله، ومضوا يضعون

---

(١) إبن أبي الحديد- شرح نهج البلاغة - دار إحياء الكتب العربية الطبعة الأولى -ج ١٤ - ص ٢٤٠ (بتصرف).

السلاح فيهم حتى أجهضوهم عن العسكر، أما أكثر المسلمين فقد وقعوا ينتهبون العسكر ويجمعون الغنائم، تاركين ملاحقة العدو وقد أغمدوا السيوف، ونزلوا عن الخيول ظناً بأن الأمر قد انتهى.

فلما رأى الرماة المسؤولون عن مراقبة الشِعب ذلك قالوا لأنفسهم: ولِمَ نقيمُ هنا من غير شيء وقد هزَم الله العدو فلنذهب ونغنم مع إخواننا.

فقال لهم أميرهم عبد الله بن جبير: ألم تعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لكم: احموا ظهورَنا فلا تبرحوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا غنِمنا فلا تشركونا احموا ظهورنا؟

ولكن أكثر الرماة خالفوا أمر قائدهم هذا وقالوا: لم يرد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا، وقد أذل الله المشركين وهزمهم. ولهذا نزل أربعون رجلاً من الرماة من الجبل ودخلوا في عسكر المشركين ينتهبون مع غيرهم من المسلمين الأموال، وقد تركوا موضعهم الاستراتيجي في الجبل، ولم يبق مع عبد الله بن جبير إلا عشرة رجال!

وهنا استغل خالد بن الوليد، قلة الرماة في ثغرة الجبل، وكان قد حاول مراراً أن يتسلل منها ولكنه كان يقابلُ في كل مرة بنبال الرماة، فحمل بمن معه من الرجال على الرماة في حملة التفافية، وبعد أن قاتل من بقي عند الثغرة وقتلهم بأجمعهم، انحدر من الجبل وهاجم المسلمين الذين كانوا منشغلين بجمع الغنائم، وغافلين عما جرى فوق الجبل، وأوقعوا في المسلمين ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح، ورمياً بالنبال، ورضخاً بالحجارة، وهم يصيحون تقويةً لجنود المشركين.

فتفرقت جموع المسلمين، وعادت فلول قريش تساعد خالداً وجماعته، وأحاطوا جميعاً بالمسلمين من الأمام والخلف، وجعل المسلمون يقاتلون حتى قُتل منهم سبعون رجلاً.

إن هذه النكسة تعود إلى مخالفة الرماة لأوامر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعدم انضباطهم تحت تأثير المطامع المادية، وتركهم ذلك المكان الاستراتيجي عسكرياً، والذي اهتم به القائد الأعلى صلى الله عليه وآله وسلم، وأكد بشدة على المحافظة عليه، ودفع أي هجوم من قِبَل العدو عليه. وبذلك

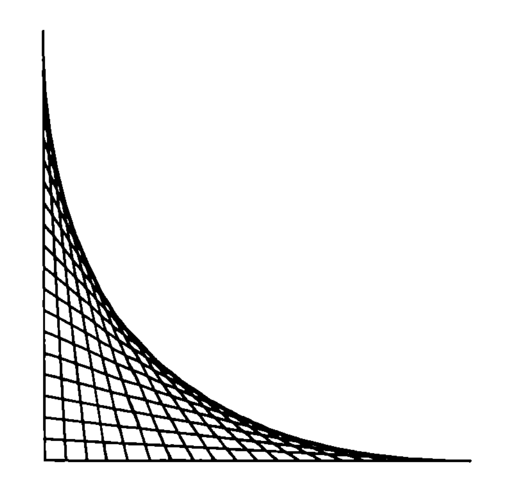
فتحوا الطريق من حيث لا يشعرون للعدو، بحيث هاجمتهم الخيل بقيادة خالد بن الوليد، فدخل إلى أرض المعركة من ظهر الجيش الإسلامي، ووجه إلى المسلمين تلك الضربة النكراء!.

المبحث الحادي عشر:

التربية والتعليم في نهج البلاغة

الأسرة وأثرها في إعداد الإنسان

موقف الإمام (عليه السلام) من الأسرة)



التربية والتعليم في نهج البلاغة

١) الأسرة وأثرها في إعداد الإنسان:

الأسرة هي مجتمع صغير تتكون من زوج وزوجة والأولاد والخدم وربما شملت أيضاً الجدود والأحفاد والأقارب على أن يكونوا مشتركين في معيشة واحدة.

والأسرة من الفعاليات الاجتماعية الديناميكية التي تنزع إلى مسايرة التطور ولا تستنكف التأثر بالنظم والتغيرات الحضارية لتعود وتؤثر في باقي أجزاء البناء الاجتماعي. فالتفاعل بينها وبين سائر أنظمة ومؤسسات المجتمع متبادل وهي لا تفتأ تؤثر التكيف والنمو والتجديد وفي ذلك يكمن سر تقدم المجتمعات وتطورها.

وإذا كان للأسرة دورها في التقدم فإنها من جهة ثانية، يمكن أن تلعب دوراً هداماً تكون نتيجته التفكك والاضطراب. ذلك أن المجتمع يتكون من مجموعة من العادات والتقاليد والأعراف والقيم والنظم والقواعد، ولا بد أن يمثلها أفراده في تصرفاتهم وعلاقاتهم بعضهم مع بعض حفاظاً على السلامة والاستقرار الاجتماعي. وعلى عاتق الأسرة تقع مهمة تزويد الأطفال بها، وتعويدهم عليها، وإلا فإن الشواذ منهم يكونون عامل هدم وتخريب وعدم استقرار.

ولا شك في أن الأسرة مسؤولة عن سلامة الأطفال النفسية وانحرافهم وشذوذهم والسبب يكمن في عدم الاستقرار العاطفي بين الآباء من جهة، وبينهم وبين الأبناء من جهة ثانية أو بني الأبناء أنفسهم.

ويمكن تلخيص أثرها في الطفل بأمور ثلاثة ذكرها (جون ديوي) وهي:

أ - تكوين العادات اللغوية:

إن أساليب الكلام الأساسية والجانب الأكبر من المفردات اللغوية إنما تتكون في سياق الحياة داخل الأسرة. فالطفل يتعلم لغة أمه. يقول (ديوي): (أجل إن التعليم المقصود في المدارس قد يصلح من هذه العادات اللغوية أو يبدلها، ولكن ما أن يتهيج الأفراد حتى تغيب عنهم في كثير من الأحيان الأساليب الحديث التي تعلموها عن عمد، ويرتدون إلى لغتهم الأصلية الحقيقية).

ب - الآداب الاجتماعية:

إن القدوة الحسنة أفضل من النصيحة، والعمل الطيب أبلغ أثراً من الكلمة المجردة والتربوية الفاضلة إنما تكتسب برياضة النفس على العمل الصالح لا باكتساب المعلومات عنها. يقول (ديوي): (وعلى الرغم من الجهود المقصودة المستديمة في تعليم الأفراد وتقويم سلوكهم، فإن الجو والروح المحيطين بهم يبقيان أقوى العوامل المؤثرة في تكوين آدابهم. وما الآداب الاجتماعية سوى الأخلاق مصغرة، أما في السمت الأعلى من الأخلاق فالتعليم المقصود لا يكاد يكون قوي الأثر إلا على قدر مطابقته لسيرة الأفراد الذين يكوّنون بيئة الطفل الاجتماعية).

ج - في الذوق السليم وتقدير الجمال:

إن الطفل يأخذ أول فكرة عن الجمال والذوق من الأسرة، من خلال مشاهدته لأثاث البيت وتنسيقه، والترتيب الحاصل في الملابس التي يرتديها، أو التي يرتديها باقي أفراد أهله.

كما أنه يكتسب من الأسرة، أول فكرة عن النظافة والثواب والعقاب، والحكم على الأشياء، واتخاذ القرارات وغيرها من النماذج السلوكية التي تساعده على حسن التكيف، والتفاعل مع غيره من أعضاء المجتمع الكبير الذي سينتقل إليه فيما بعد)(١).

---

(١) الديمقراطية والتربية، ج١، ص ٢٠.

ونظراً لهذا الدور الهام الذي تلعبه الأسرة في بناء كيان الفرد والجماعة فقد عني الإسلام بدراسة شؤونها وتنظيمها وتشكيلها في صورة فاضلة وراقية، تتفق مع أحدث التشريعات وكانت عنايته بها حقيقة انفرد بها عن سائر الشرائع السماوية والأرضية. ومن يتدبر القرآن، يجد تركيزه وبجدية على ضرورة الالتزام بشروطها ومتطلباتها، بما يؤدي إلى ترابطها وتماسكها لما للطلاق من آثار سيئة عليها وعلى المجتمع - لذلك فقد (جعل للزواج أحكاماً، ووضع للطلاق وتعدد الزوجات قيوداً، وقرر للزوجين من الحقوق والواجبات المتبادلة ما به تحسن المعاشرة، وتقوى الرابطة وتطيب الحياة. ولا نكاد نجد في تشريع ما، أرضي أو سماوي، مثل هذه القاعدة الجليلة التي جعلها القرآن أساساً للحياة الزوجية ولفت بها الأنظار إلى ما بين الزوجين من الحقوق والواجبات، تلك القاعدة التي وردت في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1].

موقف الإمام (عليه السلام) من الأسرة:

يشير الإمام (عليه السلام) إلى أهمية هذه المؤسسة وأثرها على الفرد والمجتمع فيقول: (أيها الناس، إنه لا يستغني الرجل وإن كان ذا مال عن عشيرته ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم، وهم أعظم الناس حيطة من ورائه وألمّهم لشعثه وأعطفهم عليه عند نازلة إن نزلت به ولسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يورثه غيره)[2].

إلى أن يقول: (إلا لا يعدلن أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة أن يسدها بالذي لا يزيده إن أمسكه، ولا ينقصه إن أهلكه، ومن يقبض يده عن عشيرته، فإنما تقبض منه عنهم يد واحدة، وتقبض منهم عنه أيد كثيرة، ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودة)[3].

إن مفهوم الإمام (عليه السلام) للعائلة، لا يقتصر على الآباء والأولاد، بل هو يمتد ليشمل العشيرة بأكملها وما تتضمنه من الأحفاد والأجداد

(١) سورة البقرة، الآية ٢٢٨.
(٢) انظر ح، ج١، ص ٣١٢.
(٣) انظر ح، ج١، ص٣١٣.

والأقارب. ونظراً للدور الهام الذي تلعبه في بناء كيان الأفراد وحمايتهم من الأخطار التي تحدق بهم، فإنه يحث الأغنياء منهم على مواساة أقاربهم الفقراء وصلتهم بالمال ويرغب إليهم هذا الأمر بالذكر الجميل والاعتضاد بالعشيرة ودوام محبتها لهم.

والواقع أن الإنسان لا يستطيع الاستغناء عن عائلته وخاصة في صغره كما أن المال لا يوفر له بدلاً عنها، فهي بالنسبة إليه ضرورة ملحة طيلة حياته ووظيفتها لا تقتصر على حماية أبنائها من خطر الآخرين بل أنها تتعدى ذلك إلى أخذهم بمختلف أنواع التربية حتى يشبوا صالحين. كما أنها المكان الذي يجد فيه الطفل الرعاية اللازمة لنموه وتطوره. يقول (جون ديوي) إن بني الإنسان يولدون قليلي النضج إلى درجة أنهم لو خلوا وأنفسهم بدون توجيه الآخرين وعونهم ما تمكنوا من الحصول حتى على أيسر الكفايات اللازمة لحياتهم المادية فصغار البشر يظهرون قليلي الحظ من الكفايات الأصلية إذا ما وزنوا بصغار الحيوانات الدنيا حتى أنهم لا قبل لهم باكتساب القوى التي تكفل حصولهم على ما يسد رمقهم إلا بحياطة غيرهم، فما أشد حاجتهم للرعاية إذاً، في محيط بلغت فيه الإنسانية مبلغها من الصناعة والفن والعلم والخلق)[١].

روابط الأسرة:

إن روابط الأسرة كما حددها الإمام (عليه السلام) تتسامى عن تلك التي جمعت بين أفراد القبيلة في الجاهلية. فالعصبية القائمة على صلة الرحم، هي من النزعات الطبيعية في البشر فرضتها الحمية على الأهل والأقارب كما يقول ابن خلدون: (وذلك أن صلة الرحم طبيعي في البشر، إلا في الأقل. ومن صلتها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة، فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك، نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا)[٢].

هذه النزعة الطبيعية في البشر، تؤدي إلى (الاتحاد والالتحام) فيما بين

(١) الديمقراطية والتربية، ج١، ص٤.
(٢) المقدمة، ص ١٢٨.

أفراد النسب الواحد، لأنها تحملهم على (التعاضد والتناصر) وتستلزم (استماتة كل واحد منهم دون صاحبه)[١].

إلا أن هذه العصبية لم تستبعد الظلم الناجم عن الغزو، ولم تتخلص من الأحقاد التي زرعت الدماء والتنافر بين القبائل المختلفة بما نجم عنها من حروب اكتوى الناس بنارها.

وإذا كان لصلة الرحم دورها الهام في توثيق عرى الاتصال بين أفراد الأسرة الواحدة. فإن هذا لا يعني التغافل عما يصدر عنهم من مظالم ومساوئ يلحق ضررها بالآخرين. ولقد تدارك (عليه السلام) هذا الظلم الناجم من استغلال البعض لهذه الصلة من أجل تحقيق مآرب شخصية ولم يتسامح في أي عمل يستحق المؤاخذة ومن أي مصدر كان قريباً أم بعيداً، فلا يدعو إلا إلى الحق الذي على أساسه يفاضل بين الأعمال. فعندما تنكر عبد الله بن عباس والي البصرة لابن عمه علي بن أبي طالب (عليه السلام) وقابله بالعداوة بعد الصداقة، وسرق أموال المسلمين مدعياً حقه فيما أخذ، كتب إليه الإمام يعنفه ويوبخه ويتوعده بالقتل إن لم يرجع للناس أموالهم التي سرقها، فيقول: (فاتق الله واردد إلى هؤلاء أقوم أموالهم، فإنك لم تفعل، ثم أمكنني الله منك، لأعذرن إلى الله فيك، ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلا دخل النار)[٢].

وهكذا فالإمام علي (عليه السلام) لم تمنعه قرابته لابن عباس من أن يدفع الظلم الذي ارتكبه، إن هذا التماسك في شخصيته دفعه إلى تطبيق ما يؤمن به قولاً وعملاً، وحتى على أقرب الناس إليه. لقد أقسم أن ولديه، على قربهما منه وكرامتهما عليه، لو فعلا ما فعله ابن عباس من الخيانة، لما كانت لهما عنده هوادة في أخذ الحق منهما، لأنه لا يخشى فيه لومة لائم. فيقول: (والله لو أن الحسن والحسين فعلاً مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هوادة، ولا ظفرا مني بإرادة حتى آخذ الحق منهما، وأزيح الباطل عن مظلمتهما)[٣].

لقد أراد الإمام (عليه السلام) من الإنسان أن يكون نصيراً للحق، ثابتاً

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٤. (٢) انظر ح، ج٦١، ص ١٦٨.
(٣) المصدر نفسه، ج ١٦، ١٦٨.

عليه، فلا تأخذه فيه شفقة أو رحمة أو عاطفة أو عصبية. ومهما تكن لهذه الروابط من تأثير في النفوس فإنه لا ينبغي أن تحد من رؤية الحق ونصرته، وإذا كان للعصبية شأنها في تقوية الصلة بين أفراد العشيرة فإن الإمام (عليه السلام) يسمو بها إلى درجة تحد ممّا يلحق بها من مظالم وأحقاد ويجعلها سبباً لمكارم الأخلاق.

فهو إذ يوبخ الناس على تعصبهم للباطل الذي تثور به الفتن، وتسفك بسببه الدماء، لسببٍ واهٍ، كتعصب إبليس على آدم لأصله، ويقول لهم: (ولقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصب لشيء من الأشياء إلا عن علة تحتمل تمويه الجهلاء أو حجة تليط بعقول السفهاء غيركم، فإنكم تتعصبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علة)[1]. فإنه يحذرهم من هذا الأمر الذي لا طائل منه وينبههم إلى مواقع العصبية وما ينبغي أن تكون له، وهي مكارم الأخلاق ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور، تلك التي تفاضل بها أهل المجد والشرف والنجدة من بيوتات العرب وسادات القبائل فيقول: (فإن كان لابدّ من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأخلاق، ومحاسن الأمور، فتعصبوا لخلال الحمد، من الحفظ للجوار والوفاء بالذمام والطاعة للبر والمعصية للكبر والأخذ بالفضل، والكف عن البغي والإعظام للقتل والإنصاف للخلق والكظم للغيظ واجتناب الفساد في الأرض)[2].

فروابط العشيرة إذاً ليست العصبية العمياء، ولكنها روابط الحق والعدل والعمل الصالح ومكارم الأخلاق. وكل ما عدا ذلك فهو باطل، وما قول الإمام (عليه السلام): (فإن كان لابد من العصبية. .) إلا تأكيد على أصالة قوى الشر والعدوان عند الإنسان إلى جانب قوى الخير. تلك القوى التي لو تركت دون توجيه وإرشاد لشب عليها الإنسان وأصبح من العناصر الشاذة في المجتمع. لذلك فلقد حاول أن يصرفها بطريقة تكفل السلامة النفسية. إذ لا يمكن كبت تلك القوى لأنها سوف ترتد إلى اللاشعور أو الجانب المظلم من النفس، وتصبح من الدوافع اللاشعورية والرغبات المكبوتة التي (لا تستقر ولا

---

(١) المصدر نفسه، ج ١٣، ص ١٦٦.
(٢) انظر ح، ج ١٣، ص ١٦٦.

تهدأ بل تحاول جاهدة أن تعبر عن نفسها بشتى الصور وتنجح في ذلك حينما يغفل الرقيب فتظهر في صورة متنكرة كما في أحلام النوم كتعبير رمزي عن محتويات اللاشعور، كما تعبر عن نفسها في صورة أمراض عصابية)[١].

العواطف:

وهي من أكثر الروابط فعالية بني أفراد الأسرة، فالعاطفة (نظام يتألف من عدة ميول وجدانية مركزة حول شيء ما (شخص أو جماعة أو فكرة مجردة) تكيف الشخص لاتخاذ اتجاه معين في شعوره وتأملاته وسلوكه الخارجي)[٢].

وهي، من هذا المنطلق، تتميز عن الميول الفطرية، بالرغم من أنها ولدت منها، كذلك فإنها تتأثر بالعوامل الاجتماعية وتنمو وتتهذب بالتفكير والتأمل والتجارب الانفعالية المختلفة، كما أنه لها أثرها في تنظيم الحياة الانفعالية للفرد، وتوجيه السلوك والدوافع الفطرية توجيهاً حسناً بحيث تصبح أكثر ثباتاً واستقراراً ممّا يساعد على التنبؤ بسلوكه. والعاطفة، وإن كانت من الروابط الهامة بين أفراد الأسرة الواحدة إلا أنه لا ينبغي أن تصل إلى حد الإفراط أو التفريط لأن كلاهما مضر ومفسد لنفسية الإنسان كما يقول (عليه السلام): (فكل تقصير به مضر، وكل إفراط له مفسد)[٣].

إن عدم رعاية الطفل والاهتمام به وحرمانه من المحبة والعاطفة يؤدي إلى تبرمه بأسرته وانعزاله عنها وسوء الظن بها، ومن ثم التطرف في أقواله وأفعاله، كما أن إحاطته بجو من العطف المفرط المشوب بالقلق واللهفة يجبره على الارتكاس إلى طفولته الأولى حيث كان يجد لذته ويجعله اتكالياً في شتى أموره، ويبذر بذور القلق في نفسه. فالعلاقة العاطفية التي تسود جو الأسرة، لها أثرها في سلامة الطفل النفسية وفي تحديد سلوكه الاجتماعي المقبل، ذلك لأن الطفل إن كان (غير واثق من عطف والديه وكانت علاقته بهما مشوبة بالقلق والخوف، فلن يبدي استعداداً للتعاون الإيجابي مع الآخرين، وإن كانت الرابطة العاطفية التي تربطه بهما هي رابطة العطف المفرط من جانبهما

(١) علم النفس المعاصر، ص ١١٥.
(٢) علم النفس المعاصر، ص ١٦٦.
(٣) انظر ح، ج ١٨، ص ٢٧١.

والاعتماد المطلق من جانبه فلن يسعى إلى التعلق عاطفياً بأفراد من خارج الأسرة. وإنما يقنع بالارتباط الطفلي اللذيذ، ويعرض عن كل ما من شأنه أن يفض هذا الارتباط)[١].

أما إذا ألف الطفل من والديه قدراً كافياً من الحب المتزن، فإنه لن يتوانى عن المشاركة في شتى أمور الأسرة، ومن ثم يصبح من العناصر المقبولة اجتماعياً بسبب هذه العاطفة المتوازنة التي كفلت الأمن والطمأنينة له، ذلك لأن (الحب الوحيد الكفيل بإشاعة الأمن في نفس الطفل هو الحب الثابت المتزن، وهو وحده الذي يطبع علاقات الطفل الاجتماعية المقبلة بطابع الثقة)[٢].

هذا الجو المتسم بالمحبة الصادقة والعواطف النبيلة المتزنة، هو ما يدعو إليه الإمام (عليه السلام) على أن يكون الطابع الذي يطبع علاقة الآباء بباقي أفراد أسرتهم. لقد كانت الروح الحاكمة في الأسرة التي تكلم عنها، هي روح التواضع والمحبة والصداقة والاحترام المتبادل. فالعاطفة الأبوية التي تربط بين الآباء والأبناء، ينبغي أن تتأكد بتقديم النصائح والتوجهات والمعاملة الحسنة.

لذا كان من الواجب على الأبوين أن يخلقا في البيت جواً عائلياً مشبعاً بروح المودة والحب. فإذا ما درج الأولاد على هذه الروح في حياتهم البيتية، سهل عليهم نقلها إلى حياتهم الاجتماعية الواسعة، ولقد عبر (عليه السلام) عن هذه العاطفة النبيلة بقوله: (ووجدتك بعضي، بل وجدتك كلي، حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني، وكأن الموت لو أتاك أتاني، فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي)[٣].

كذلك فإن الرباط العاطفي بين الآباء له أثره على الأبناء، لأن السعادة العائلية تبعث الطمأنينة في نفس الطفل، في حين أن عدم الاستقرار العائلي له ضرره في تعقيد نفسيته وهروبه من الواقع المؤلم الذي يعيشه ممّا يسهم في سوء

---

(١) عبد المنعم وحلمي المليجي، النمو النفسي، دار النهضة العربية، بيروت، ط٤، ص ٢٢٤.

(٢) النمو النفسي، ص ٢٢٠.

(٣) انظر ح، ج ١٦، ص ٧٥.

تكيفه الاجتماعي. فإذا عجز الآباء عن تأمين هذا الجو العاطفي، فلا مجال للتحدث عن أطفال أسوياء. لذا كانت (مودة الآباء قرابة بين الأبناء)[١].

لقد دخلت كلمات الإمام (عليه السلام) إلى أعماق النفس البشرية وسبرت أغوارها وكشفت عن مكنون أسرارها، ووقفت على ما يلائمها من الفضائل والمعارف والعواطف والانفعالات ودعت إلى تنشئتها عليها حتى يستقيم نهجها وتسمو في مدارج العلم والأخلاق.

الحقوق والواجبات:

ولقد أدرك الإمام (عليه السلام) هذا العصر ومنذ آلاف السنين وكشف عما يعتوره من رذائل ومفاسد فيقول: (يأتي على الناس زمان لا يقرب فيه إلا الماحل ولا يظرف فيه إلا الفاجر ولا يضعف فيه إلا المنصف يعدون الصدقة فيه غرماً، وصلة الرحم مناً، والعبادة استطالة على الناس)[٢].

ونظراً لأهمية الأسرة كإحدى الركائز الثابتة في بناء المجتمعات وتقدمها فإن ما تحدث به الإمام (عليه السلام) يدعو إلى تدعيمها وتوثيق الصلة بين أفرادها من خلال ربطها بحقوق وواجبات تكفل لها الاستمرار والتقدم فجعل للأبناء حقاً على الآباء، وكذلك للآباء على الأبناء، وألزم كلاً منهما واجبات تجاه الآخر. وإذا تأكد حق القرابة والرحم فأخص الأرحام أفضلهم بذلك.

إن طاعة الوالدين وبرهما من علامات المؤمن لقوله تعالى: ﴿إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إذا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا﴾[٣]، ولقد أوصى سبحانه ببر الوالدين وصلتهما في قوله الكريم: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ﴾[٤] ومعاملتهما في الدنيا بالمعروف حتى وإن خالفا قول الحق لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً﴾[٥]، وقوله عزّ القائل: ﴿فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً﴾[٦]. وهكذا فحق الآباء على الأبناء هو البر

---

(١) المصدر نفسه، ج ١٩، ص ٢١٤.
(٢) انظر ح، ج ١٨، ص ٢٦٠.
(٣) سورة النور، الآية ٥١.
(٤) سورة لقمان، الآية ١٤.
(٥) سورة لقمان، الآية ١٥.
(٦) سورة الإسراء، الآية ٢٣.

والطاعة في كل شيء إلا في معصية الله سبحانه، وحتى في هذه الحالة الأخيرة، فإن الله سبحانه يوجب الإحسان إلى الوالدين وعدم زجرهما أو التأفف منهما ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[(١)].

أما حق الأبناء على الآباء فيتجلى في أمور ثلاثة:

في تحسين الاسم:

إن للاسم أثراً على نفسية الطفل في مستقبل حياته، فبعض الأطفال يخجلون من ذكر أسمائهم ويرفضون مناداتهم بها وقد يفتعلون المشاكل بسبب ذلك، وربما يحاولون تغييرها بأسماء يرتاحون إليها. في حين أن البعض الآخر يطربون لسماعها وقد يعتزون بها ويشمخون. من هنا وجب الحرص والتمهل والاعتناء في اختيار الأسماء حفظاً على سلامة الطفل النفسية وحسن تكيفه الاجتماعي.

ومن حق الولد على والديه أيضاً حسن اختيار مرضعته. ويرى الإمام علي (عليه السلام) أن لبن الأم هو أكثر فائدة للصبي من لبن أية مرضعة أخرى كما يقول: (ما من لبن يرضع به الصبي أعظم بركة عليه من لبن أمه)[(٢)]، وإذا تعذر ذلك فإنه يوجب النظر في اختيار المرضعة فيقول: (انظروا من يرضع أولادكم فإن الولد يشب عليه)[(٣)]. ولذا فقد استبعد الحمقاء عن الرضاعة، لأن لبنها يؤثر على طباع الطفل، (ولا تسترضعوا الحمقاء فإن اللبن يغلب الطباع)[(٤)].

وقد عبر عن ذلك ابن سينا في قوله: (إن من حق الولد على والديه إحسان تسميته ثم اختيار ظئرة كي لا تكون حمقاء ولا ردهاء ولا ذات عاهة فإن اللبن يعدي كما قيل)[(٥)].

في تحسين الأدب:

والطفل أمانة والديه، ونفسه جوهرة نقية خالية من كل نقش، لذلك وجب أخذه بالآداب الصالحة والأخلاق النبيلة والعلوم النافعة، لما لها من مردود

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٢٤.
(٢) مستدرك نهج البلاغة، ص١٧١.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٠.
(٤) المصدر نفسه، ص١٧١.
(٥) ابن سينا، السياسة، نشرة الأب لويس معلوف اليسوعي، ص ١٠٧٣.

خير عليه وعلى المجتمع الذي يعيش فيه، وذلك قبل أن تستفحل فيه الأخلاق والآداب الذميمة. وعلى كاهل الأسرة يقع عبء تعهد الطفل بالرعاية والتثقيف والتأديب والتهذيب وتمكينه من ممارسة الفضائل الخلقية والأدبية. وهذا ما أثبته ابن سينا بقوله: (فإذا فطم الصبي عن الرضاع بدئ بتأديبه، ورياضة أخلاقه قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة وتفاجئه الشيم الذميمة، فإن الصبي تتبادر إليه مساوئ الأخلاق وتنثال عليه الضرائب الخبيثة فما تمكن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطع له مفارقة ولا عنه نزوعا)(١).

في تعليمهم القرآن:

وما ذلك إلا لأن القرآن يأمر بالخير، وينهى عن الشر ويجنب قبائح الأخلاق ويدعو إلى محاسن الفضائل والآداب وفيه شفاء من النفاق وهداية من الضلال. وقد عبر الإمام (عليه السلام) عن فضل القرآن بقوله: (واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدّث الذي لا يكذب وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى، ونقصان من عمى.

واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاء من أكبر الداء. وهو الكفر والنفاق والغي والضلال، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبه ولا تسألوا به خلقه وإنه ما توجه العباد إلى الله تعالى بمثله.

واعلموا أنه شافع مشفع، وقائل مصدق، وإنه من شفع له القرآن يوم القيامة شفع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه، فإنه ينادي مناد يوم القيامة، ألا أن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله، غير حرثة القرآن، فكونوا من حرثته وأتباعه واستدلوه على ربكم واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم واستغشوا فيه أهواءكم)(٢).

وإذا كانت للقرآن هذه المزايا الهامة، كان لابدّ من تنشئة الطفل عليه حتى

---

(١) نفسه، ص ١٠٧٣.
(٢) انظر ح، ج ١٠، ص ١٨ - ١٩.

يتمثله قولاً وعملاً. وهذا ما دعا إليه ابن سينا عندما قال: (فإذا اشتدت مفاصل الصبي، واستوى لسانه وتهيأ للتلقين ووعى سمعه أخذ في تعلم القرآن وصور له حروف الهجاء ولقن معالم الدين)(١).

ولقد ذكر (عليه السلام) هذه الحقوق المتبادلة بين الآباء والأبناء فقال: (إن للوالد على الولد حقاً، وإن للولد على الوالد حقاً، فحق الوالد على الولد أن يطيعه في كل شيء إلا في معصية الله سبحانه، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه القرآن)(٢). ولا شك من أن المسؤولية الأولى في تربية الطفل إنما تقع على عاتق الأسرة فإذا كان العقل، كما يقول جون لوك: (صفحة بيضاء أو لوحة شمع خالية من النقش عند الميلاد)(٣) مع استعداده لتقبل ما يلقى إليه، استطعنا أن نبلغ به ما نريد بتسليط المؤثرات الملائمة عليه.

ولقد أظهرت الأبحاث والدراسات تأثر الطفل بصفات آبائه الخلقية والعقلية، باعتباره مطبوع على الاقتداء بهم والسيرة على نهجهم. ذلك لأن (أكثر أخلاق الطفل وسجاياه يأخذها من الوسط الذي يعيش فيه، فتنمو فيه وتترسخ لكثرة استعمالها والمداومة عليها، فترة طويلة، إلى أن تصبح عادة متأصلة في طبعه)(٤).

سياسة الأسرة:

وتتضمن أسلوب الرجل في تعامله مع زوجته وولده وخدمه باعتباره سيد الأسرة ومدبرها ومنظم شؤونها.

أ - سياسة المرأة:

وفي ذلك نشير إلى موقف الإمام علي (عليه السلام) من المرأة وقضاياها وحقوقها وكيفية التعامل معها.

---

(١) ابن سينا، السياسة، ص١٠٧٤.

(٢) انظر ح، ج ١٩، ص٣٦٥.

(٣) الديمقراطية والتربية، ج٢، ص ٢٩٨.

(٤) قاسم جابر، أخوان الصفاء وآراؤهم السياسة، ص٣٢، دراسة أعدت لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، ١٩٧٩.

إن موقف الإمام (عليه السلام) من المرأة هو موقف الإسلام بالذات. يقول محمد جواد مغنية (إن أقوال الإمام وآراءه، وواقعه هو واقع الإسلام وأقواله هي أقوال القرآن، لا يفترقان أبداً، حتى يردا الحوض على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كما جاء في الحديث الشريف. وبالتالي فإن الإمام لم يخلق لنفسه، وإنما وجد وخلق ليمثل الإسلام على حقيقته، فإذا فكر، أو قال، أو فعل فلا يخرج في جميع ذلك عن دائرة الإسلام)[١].

لقد ساوى الإسلام بين المرأة والرجل رغم اختلافهما بيولوجياً، ولم يفاضل بينهما إلا بالتقوى كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾[٢]. وضمن للمرأة حقوقاً ورتب عليها واجبات لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[٣] فكفل لها حق العم والكسب والعشرة الحسنة، والملكية وحق اختيار الزوج.. وهاجم الذين يفضلون الرجل على المرأة ويتشاءمون من الأنثى لقوله تعالى: ﴿وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾[٤].

لكن المرأة هي العنصر الأضعف وكونها إنساناً لها مثل الذي عليها فإن هذا لا يمنع من أن تكون سائرة في فلك الرجل، ولقد وصفها الإسلام من خلال تصرفاتها التي تصدر عن طبيعتها وفطرتها. قال تعالى: ﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ﴾[٥]. ولا ينقص هذا من شخصية المرأة لأن (حق القوامة مستمد من التفوق الطبيعي في استعداد الرجل، ومستمد كذلك من نهوض الرجل بأعباء المجتمع وتكاليف الحياة الأسرية)[٦].

---

(١) علي والفلسفة، ص١٢١.
(٢) سورة الحجرات، الآية ١٣.
(٣) سورة البقرة، الآية ٢٢٨.
(٤) سورة النحل، الآيتان ٥٨ - ٥٩.
(٥) سورة النساء، الآية ٤٣.
(٦) مجلة عالم الفكر، م٧، ع١، ١٩٧٦، ص ٤٥.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[١]، وحتى أنه تعالى جعل كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لقوله سبحانه: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾[٢].

تلك هي طبيعة المرأة كما عبر عنها الإسلام في كتابه الكريم، ولم يتخلف الإمام علي (عليه السلام) عن هذه الصورة التي وضعها القرآن للمرأة. فقد حصلت على كامل حقوقها التي أقرها لها الإسلام، ولم يذكر التاريخ حادثة واحدة أهان بها الإمام المرأة أو غمط بعض حقوقها حتى اللواتي أضمرن له العداوة عملاً بوصية رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، فقال موصياً ولده الحسن (عليه السلام): (الله الله في النساء وما ملكت أيمانكم، فإن آخر ما تكلم به نبيكم أن قال: (أوصيكم بالضعيفين: النساء وما ملكت أيمانكم)[٣].

أما كلماته (عليه السلام) في حق المرأة، فهي تتراوح بين الاهتمام بها، وعدم الإساءة إليها أو التعرض لها بأذى، والكشف عن طبيعتها فيقول: (... ولا تهيجوا النساء بأذى، وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم فإنهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول)[٤] وليس هذا قدحاً في شخصية المرأة بقدر ما هو دليل على طبيعتها. لذلك فهو يحذر منهن بقوله: (فاتقوا شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر ولا تطيعوهن في المعروف حتى لا يطمعن في المنكر)[٥].

ومن الغريب حقاً، أن يسند ابن أبي الحديد هذا الكلام بموقف الإمام (عليه السلام) من عائشة حيث يقول: (وهذا الفصل كله رمز إلى عائشة). وليس هذا من الصواب في شيء لأن المنطق يقضي بعدم الحكم على الكل من خلال الجزء، إضافة إلى أن هذا يتنافى ومنطق الإسلام الذي يقول: ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾[٦].

وإذا كانت المرأة أداة للشر والفساد فإن المسؤولية في ذلك لا تقع عليها

---

(١) سورة يوسف، الآية ٢٨.
(٢) سورة النساء، الآية ٧٦.
(٣) تحف العقول، ص ١٤٠.
(٤) انظر ح، ج ١٥، ص ١٠٤.
(٥) المصدر نفسه، ج ١٥، ص ٢١٤.
(٦) سورة الأنعام، الآية ١٦٤.

بقدر وقوعها على المجتمع الذي استغل غرائزها وضعفها وجعلها أداة للشر، ولم يهتم بتعديل هذه الغرائز وتوجيهها لما فيه خيرها وسعادتها.

فلابدّ والحالة هذه من أن يكون هذا الكلام نابعاً من الخبرة بطبيعة المرأة والمعرفة بدقائق نفسيتها، تلك الخبرة التي استقى أصولها من الإسلام.

لقد كانت المرأة على قدر كبير من الجهل بحيث تمنعها ضآلة ثقافتها من إبداء الرأي السديد والحكم الصائب. أما اليوم فقد فتحت أمامها أبواب العلوم المختلفة ودخلت في أكثر المجالات التي دخلها الرجل وأصبحت قدرتها على المشاركة الإيجابية الفعالة في الحياة لا تقل عن قدرة الرجل، بل أصبحت تلعب دوراً هاماً في صنع الأحداث واتخاذ القرارات. فلا يمكن بعد ذلك عزلها في البيت وقصر وظيفتها على التربية فقط كما قال محمد عبده.[1] كما أن دعوة الإمام (عليه السلام) إلى عدم مشاورتها بقوله (وإياك ومشاورة النساء..)[2] لا يمكن أن ينسحب إلا على المرأة الجاهلة كما فعل النبي (صلّى الله عليه وآله)، يقول مغنية: (أما نهي النبي وعلي عن مشورة النساء، فيحمل على مشورة الجاهلة وكان أكثر النساء آنذاك في معزل عن العلم وتجارب الحياة ولا ذنب للمرأة في ذلك إذا قصر الرجل في تربيتها مع العلم بأنها من طينة الرجل، وطبيعتهما واحدة (يشتركان في المسؤولية على قدم المساواة)[3]. فإذا عملنا على تثقيف المرأة وتهذيب غرائزها وتزويدها بالفضائل الخلقية والاجتماعية، لم يعد هناك من مبرر لحصرها في المنزل دون الانتفاع بمواهبها ومؤهلاتها شرط أن لا يتعارض ذلك مع واجبها المنزلي. ففي هذه الحالة يكون ضررها أكثر من الفائدة المرجوة منها، ويكون احتجابها في البيت، وقيامها على راحة زوجها وأولادها أفضل بكثير من اندماجها في المجتمع وهذا هو جهاد المرأة الحقيقي الذي عبر عنه الإمام بقوله: (جهاد المرأة حسن التبعّل)[4].

---

(١) انظر م، ج١، ص ١٢٩.
(٢) انظر ح، ج ١٦، ص ١٢٢.
(٣) انظر ح، ج٣، ص ٥٣١.
(٤) تحف العقول، ص ٧٩.

ب - سياسة الولد:

أما الولد فهو أمانة والديه، ونفسه الطاهرة خالية من كل نقش وقابلة لكل نقش، فإن عُوّد الخير نشأ عليه وإن عوّد الشر مال إليه. لذلك وجب أخذه بالتربية قبل أن تهجم عليه الأخلاق الذميمة وتستحكم منه. ونظراً لضعف قواه العقلية والجسدية فإن الشفقة واجبة عليه، فلا ينبغي الإسراف في معاقبته: (حصّن عقوبتك من الإفراط)[1] كما قال (عليه السلام).

أما في مجال الحياة العامة، فإن الإمام (عليه السلام) يوصي بعدم تنشئة الولد على الرفاهية والسخاء لا، من شأن هذه التربية أن تفسده وتسبب له الهلاك لحرصه عليها. فالسخاء صفة جميلة يحمد عليها الإنسان، لكنها تصبح عادة مهلكة إذا اعتادها وتجاوزت الحد المعقول، فيقول: (لا تحمدن الصبي إذا كان سخياً، فإنه لا يعرف فضيلة السخاء، وإنما يعطي ما في يده ضعفاً)[2].

وفيما يتعلق بمهنة الولد، فإنه يؤكد على ضرورة الاهتمام بميوله واهتماماته ورغباته، إلا أنه يتعلم مهنة أبيه بسرعة لشغفه في تقليده ومحاكاته في عمله، لذا فإن (من عمل عمل أبيه كفى نصف التعب)[3].

ج. سياسة العبيد:

لقد آمن (عليه السلام) بإنسانية الإنسان، وألقى في نفسه ما يوقظه على أصل من أصول وجوده، وهو أن طبيعة الكون جعلته حراً لا يتمرد ولا يطيع ولا يعمل ولا يقول إلا على أساس من هذا الحق الطبيعي. وهو بذلك إنما يلقي في نفسه بذور الثورة على كل ما من شأنه أن يضيق عليه ويسلبه حقه في أن يكون حراً. لذلك فهو يتوجه إليه بقوله: (لا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله حراً)[4].

هذا المفهوم العميق للحرية جعلت رجال الدين والإصلاح يهتمون بعتق

---

(١) انظر ح، ج ٢٠، ص ٣١٨.
(٢) المصدر نفسه، ج ٢٠، ص ٣٣٠.
(٣) المصدر نفسه، ج ٢٠، ص ٣٣٥.
(٤) انظر ح، ج ١٦، ص ٩٣.

العبيد في وقت كان يعتبر فيه الرق نظاماً طبيعياً، ويحد العبد بأنه آلة للحياة ضرورية لضرورة الأعمال الآلية المنافية لكرامة الإنسان الحر. إن عتق العبيد حاجة إنسانية فرضتها كرامة الإنسان وطبيعته الحرة. هذه الحاجة تجسدت في فكر الإمام علي (عليه السلام) وعمله ووجدانه وأصالته ووعيه بعدم أحقية الفوارق والامتيازات بين البشر، تلك التي نتجت عن عهود طويلة من الظلم والإقطاع وممارسة أبشع ألوان استغلال الإنسان لأخيه الإنسان. فليس غريباً إذن أن يعتق الإمام (عليه السلام) العديد من هؤلاء بكده وعرق جبينه كي يعيد إليهم حقهم في حياة حرة كريمة. لهذا فقد (أعتق ألف عبد من كد يده، كل منهم يعرق فيه جبينه وتحفى فيه كفه)[١]

٥) سياسة الأصحاب والأعداء:

حاجة المصاحبة طبيعية بين البشر، بل وحتى في الحيوان ولكنها في البشر أولى لتشعب علاقاتهم وتنوع حاجاتهم - وقد اعتبرها الغزالي ثمرة حسن الخلق فقال: (اعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق والتفرق ثمرة سوء الخلق، فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق، وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر. ومهما كان المثمر محموداً كانت الثمرة محمودة)[٢].

والمصاحبة أوصت بها الكتب السماوية والسنن النبوية، وكما كانت من وصايا الأولياء والحكماء والأدباء ورجال الإصلاح لما فيها من أثر مباشر على تماسك المجتمع وصلاحه. إذ لا حياة لقوم إلا بوحدة أبنائه وألفتهم وإنه متى تحققت هذه الوحدة والألفة، تضافرت الجهود والعقول إلى العمل لحياة أفضل، إذ لا شيء وراء الشتات سوى المذلة والهوان، ولقد حذر الإمام (عليه السلام) من الفرقة والاختلاف ودعا إلى اجتماع الكلمة ولملمة الصفوف من خلال وحدة وطنية متراصة دون اعتبار لدين أو لون أو أي اعتبار آخر في سبيل تحقيق الهدف المشترك في التقدم والتطور (فإن جماعة فيما تكرهون من الحق خير من فرقة فيما تحبون من الباطل)[٣].

---

(١) المصدر نفسه، ج٤، ص ١١٠.
(٢) إحياء علوم الدين، ج٢، ص ١٥٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٧١.

فالصداقة وذلك من أجل ترسيخ جذورها بحيث لا يؤثر عليه أي طارئ، صغيراً كان أم كبيراً. فالصداقة صنو الوفاء، والوفاء توأم الصدق، والصدق من الإيمان، ولن يصلح إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ولقد دعا (عليه السلام) إلى نشر هذه القيمة الإنسانية السامية بين البشر لأهميتها في رص الصفوف ووحدة الكلمة ووضع الأسس الصالحة لممارستها بما يكفل لها الديمومة والاستمرار، ولن يتم لها ذلك إلا بضمان حقوقها المستندة إلى الوفاء والإخلاص والمحبة ونكران الذات كما جاء في وصية الحسن (عليه السلام): (.. ومن ظن بك خيراً فصدّق ظنه، ولا تضيعن حق أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقه)[١].

أما العداوة فلا معنى لها في منطق الإمام (عليه السلام)، لأنها من شيم النفوس الخبيثة الداعية إلى الحقد والكراهية. لذلك فهو يرفضها حتى في أضيق حدودها ويدعو إلى اعتماد العفو عند المقدرة تيمناً بكتاب الله القائل: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾[٢] فقال: (إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه)[٣].

٦) سياسة الجار:

في هذا الباب يدعو الإمام إلى حسن الجوار واحترام حق الجيرة لأن جيران الأسرة من عوامل هناءتها أو شقوتها وعلى قدر ما يكون بينهما من ألف أو خلف، تحلو الحياة أو تسوء، لذا فقد تعوذ الناس بالله من جار السوء، وقال (عليه السلام): (سل عن الرفيق قبل الطريق وعن الجار قبل الدار)[٤].

والوصية بالجار من الأمور التي دعا إليها الإسلام ووضع لها الشرائع والسنن. فقد أحل الله الجيران محلهم من ضمن الذين يتوجب الإحسان إليهم، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَبِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَالْجارِ ذِي الْقُرْبى وَالْجارِ الْجُنُبِ وَالصّاحِبِ

---

(١) انظر ح، ج٦١، ص ١٠٥.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٣٧.
(٣) المصدر نفسه، ج ١٨، ص ١٠٩.
(٤) المصدر نفسه، ج ١٦، ص ١٦٣.

بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالاً فَخُوراً﴾[١]، وقال الرسول الكريم: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)[٢].

فليس من الإسلام في شيء من يسيء معاملة جاره أو يهضم حقاً من حقوقه أو يطمع في أشيائه أو يشمت وينكل به. لذلك قال الإمام علي (عليه السلام): (وأحسن مجاورة جارك تكن مسلماً)[٣].

بهذا يكون الإمام علي (عليه السلام) قد صاغ نشاطات الإنسان الفكرية والعملية في قوالب اجتماعية سليمة من خلال تربية عمادها القيم والمبادئ السامية، بهدف خلق جيل يؤمن بالحق والخير والتضحية والفضيلة، (وهل التربية الاجتماعية سوى تعريف الولد بأصول المعاشرة وحسن المعاملة والأمانة والصدق والغيرية ونكران الذات ومحبة الآخرين وحسن السلوك والتعاون والتضحية)[٤].

---

(١) سورة النساء، الآية ٦٣.
(٢) إحياء علوم الدين، ج٢، ص٢١٢، تحف العقول، ص ١٤٠.
(٣) تحف العقول، ص ١٣٨.
(٤) التربية، ص ١٨٩.

الخاتمة والنتائج

على الإنسان أن يسعى لمعرفة الله تعالى من خلال أداء الطاعات واجتناب المحرمات، والسعي للوصول إليه بمجاهدة النفس وتنزيهها عن الهوى، وحب الدنيا.

أول الطريق في السير إلى الله سبحانه وتعالى، هو أن يبدأ الإنسان من نفسه فينزهها عما حرمه الله تعالى عليها ويعوّدها الطاعة، وأفضل عمر له الشباب فهو أثبت للإنسان وأرسخ، كما أن الشاب يكون في حالة نفسية وعقلية وجسدية اقدر من الشيوخ على القيام لله تعالى بأداء طاعاته.

إن الأخلاق مبنية على الدين ولا يمكن الفصل بينهما. فهي فطرة في الإنسان وجاء

الدين ليثبتها ويغرسها فيه، وأي خلل في أحدهما يؤثر في الآخر. ولله در الحكيم

الهندي غاندي حين قال: « إن الدين ومكارم الأخلاق هما شيء واحد لا يقبلان

الانفصال. . . ولا يفترق بعضها عن بعض فهما وحدة لا يتجزآن، وأن الدين كالروح للأخلاق، والأخلاق كالجسم للروح، وبعبارة أخرى، الدين يغذي الأخلاق وينميها وينعشها كما أن الماء يغذي الزرع وينميه.

إن الانقطاع لله تعالى لايعني ترك العلاقات الاجتماعية والابتعاد عن الناس وخدمتهم والسعي للمعاش، فالعرفان لا يعني التصوف والرهبانية، إذ لا رهبانية في الإسلام.

ويُستفاد ممّا تقدّم من تعليمات أرباب هذا الفن، والطريق: (الذين مشوا في نهج الإسلام الأصيل وطريق أهل البيت عليهم السلام لا المتصوفة)، أُصولٌ مشتركةٌ في عمليّةِ السّيرِ والسّلوك إلى الله وهي:

١ - أنّ الهدف الأصلي، هو لقاء الله وشهود ذاته المقدسة، بالبصيرة والحُضور الروحي المعنوي عنده.

٢ - للوصول لهذا الهدف، ينبغي التّحرك أولاً من موقع التوبة من جميع الذنوب والرذائل الأخلاقية، والتّحلي بالفضائل.

٣ - في هذا الطريق يجب أن لا ينسى الآداب الأربعة: المشارطة، والمراقبة، والمحاسبة، والمعاقبة، بعني يُشترط في الصّباح على نفسه، أن لا يذنب ولا يخالف رضا الباري تعالى، ويراقب نفسه في طول النّهار وفي اللّيل وعند النوم، يجلس للمحاسبة، وإذا ما صدرت منه مخالفةٌ يعاقب نفسه بتركه لأنواع اللّذائذ.

٤ - التّصدي لهوى النفس من موقع المخالفة، لأنّ الهوى هو من أكبر السّدود في هذا الطّريق، ومخالفته هي من أوجب الواجبات.

٥ - التّوجه لأذكار وأوراد وردت في الشّرع المقدس، وأمثال: «لا حَولَ وَلا قُوَّةَ بِالله»، وذكر «لا إلهَ إلاّ أَنتَ سُبحانَكَ إنِّي كُنتُ مَن الظَّالِمِينَ»، وذكر «يا الله» و«يا حَيُّ» «يا قَيُّوم» وهي الزاد في هذا الطّريق والسبب للقوّة.

٦ - التوجه القلبي لحقيقة التّوحيد للذات والصّفات والأفعال لله تعالى، والغرق في صفات كماله وجماله، وهي زاد آخر لهذا الطريق الوعر المليء بالمطبّات والتّحديات الصعبة.

٧ - كسر أكبر الأصنام، وهو صنم الأنانيّة والّذات الفرديّة، وهو من أهم الشّروط للوصول للمقصود.

٨- وقد إشترط البعض الإستعانة بالأُستاذ، والسّير في هذا الطريق تحت إشرافه، فيكون كالطبيب الذي يعمل على معالجته، والبعض لا يعتمدون على الأُستاذ، وحصل في كثير من الموارد، وللأسف الشديد، الوقوع في حبائل الشيطان، وذلك بسبب الإعتماد على الأُستاذ، حيث يعتبرونه كالملاك، فيذهب دينهم وإيمانهم وأخلاقهم إدراج الرّياح!.

٩- يعتبر الخلق الحسن من أهم معجزة أعطيت للنبي (ص) بعد القرآن الكريم؛لذا ينبغي الاقتداء به في كل سلوكه.

١٠ - من أهمّ ما يساعد على نيل مقام القرب، تربية النفس على مكارم الأخلاق.

١١- لحسن الخلق ثمار كثيرة، منها أنَّها تثقل الميزان يوم القيامة.

١٢ - على السالك أن يهتمّ بكلّ الأمور الأخلاقيّة وخصوصاً ما يرتبط منها بمعاملة الآخرين.

١٣ - ركَّزت الآيات والروايات على مفاهيم أخلاقيَّة عديدة، مثل لين الجانب، والمداراة وقضاء حاجات الناس والعفو عنهم.

١٤ - إن الوقاية من الذنوب والأخلاق السيئة هي من أهم طرق تهذيب النفس.

١٥ - الإقلاع عن المعاصي دفعة واحدة يعد من أساليب تهذيب النفس، ويكون بعد التلوث بالذنوب ويحتاج إلى همة عالية.

١٦ - الإقلاع عن المعاصي تدريجياً يكون مطلوباً إذا لم ننجح في الابتعاد عنها دفعة واحدة.

١٧ - مما يساعد على تهذيب النفس: التفكر، تأديب النفس، إدراك الإنسان لكرامته ومكانته عند الله.

١٨ - على الانسان أن يجتنب موانع تهذيب النفس وهي عبارة عن معاشرة قرين السوء، والموارد التي يحتمل أن تضعف فيها النفس امام المعصية.

١٩- ظلم النفس يعني التعدّي على حدود الله تعالى وحقوقه، ولكنّ الله برحمته الواسعة يعفو ويغفر لمن ظلم نفسه حينما يتوب ويؤدّي حقوق الله ويقوم بالواجبات الشرعية.

التخلُّق بصفة العفو والصفح الجميل عمَّن ظلمنا وأساء إلينا لهو من الأخلاق الحميدة والكريمة.

إنّ مقام العافين والمحسنين عند الله تعالى هو مقام تشمله الرحمة الإلهيّة والقرب منه جلَّ جلاله.

٢٠ - أن مفهوم الأخلاق يعني التخلق بكل ما جاء به القرآن والسنة، وكل سلوك خيّر يقوم به الإنسان بإرادة خيّرة، لغاية خيرة.

٢١ - إن الأخلاق الإسلامية لها علاقة وطيدة بالعقيدة والعبادات،لذا لا ينبغي الفصل بينها.

٢٢ - إن أفضل عمل مؤثر يقدمه المسلمون للآخرين وأجمل صورة يرسمها المسلمون للإسلام، وأغلى هدية يهديها المسلمون اليوم للعالم هي التخلق بأخلاق القرآن والالتزام بها قولا وفعلا وسلوكا.

٢٣ - إن الأخلاق الإسلامية ربانية في مصدرها، وفي غايتها، ومبنية على أسس متينة وقواعد ثابتة لا تتبدل ولا تتغير.

والغرض من الإتيان بهذا البحث، في المباحث الأخلاقية، هو:

أولاً: سرد عصارة من التّفكرات التي لها علاقة بالمباحث الأخلاقية، حتى يتنور القاريء ويتحرك في طريق التّهذيب وإصلاح الذّات.

ثانياً: نحذّر طلاب الحقيقة، أنّ الحدّ بين الحقّ والباطل ضيئل جدّاً، فكثيرٌ من الشّباب من ذوي القلوب النّقية، كان هدفهم الوصول إلى الحقّ والعين الصّافية، ولكنّهم إنجرفوا في طريق الضّلالة، وتركوا طريق العقل والشّرع، ولذلك تاهوا في وادي الحيرة، وغرقوا في مستنقع الخطيئة، ولم يسلموا من مخالب الذّئاب الضّارية، الذين يرتدون مسوح الزّهد والقداسة، فأضاعوا وفقدوا كلّ ما لديهم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

١ - نهج البلاغة، ضبط صبحي الصالح، انتشارات هجرت - قم.

٢ - تفسير الميزان، العلاّمة الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي - بيروت١٣٩٣ هـ ط ٢.

٣ - تحف العقول، ابن شعبة الحراني، مؤسسة النشر الإسلامي - قم ط ٢.

٤ - أُصول الكافي، الكليني، دار صعب - بيروت ١٤٠١ هـ ط ٤.

٥ - معاني الأخبار، الصدوق، منشورات جماعة المدرسين - قم ١٣٧٩ هـ..

٦ - كنز العمال، المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة ١٤٠٥ هـ ط ٢.

٧ - الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الاصفهاني، مكتبة الكليات الازهرية - مصر ١٣٩٣ هـ ط ١.

٨ - التفسير الكبير، الفخر الرازي - ط ٣.

٩ - مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الاصفهاني، المكتبة المرتضوية.

١٠ - الخصال، الشيخ الصدوق، منشورات جماعة المدرسين - قم ١٤٠٣هـ.

١١ - مكارم الأخلاق، الطبرسي، مؤسسة الأعلمي - بيروت ١٣٩٢ هـ ط ٦.

١٢ - الأمالي، الشيخ الصدوق، مؤسسة الأعلمي - بيروت ١٤٠٠ هـ ط ٥.

١٣ - الارشاد، الشيخ المفيد، منشورات بصيرتي - قم.

١٤ - الاختصاص، الشيخ المفيد، انتشارات مكتبة الزوراء - قم ١٤٠٢ هـ.

١٥ - الفصول المختارة من العيون والمحاسن، السيد المرتضى، منشورات

مكتبة الداوري - قم ١٣٩٦ هـ ط ٤.
١٦ - روضة الواعظين، الفتال النيسابوري، منشورات الرضي - قم.
١٧ - المحجة البيضاء، المحقق الكاشاني، مؤسسة الأعلمي - بيروت ١٤٠٣ هـ ط ٢.
١٨ - تنبيه الخواطر، المعروف بمجموعة ورّام، دار صعب.
١٩ - في ظلال الصحيفة السجادية، الشيخ مغنية، دار التعارف - بيروت ط ٢.
٢٠ - أخلاق أهل البيت عليهمالسلام، السيد مهدي الصدر.
٢١ - شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، دار احياء التراث العربي - ط ٢.
٢٢ - التوحيد، الشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي - قم.
٢٣ - المؤمن، للشيخ الثقة الحسين بن سعيد الكوفي الاهوازي، تحقيق ونشر مدرسة الإمام المهدي (عج) - قم ١٤٠٤ هـ.
٢٤ - فروع الكافي، الكليني، دار صعب - بيروت ١٤٠١هـ ط ٤.
٢٥ - روض الرياحين في حكايات الصالحين، عبدالله بن أسعد اليافعي اليمني ثم المكي، مؤسسة عماد الدين - قبرص.
٢٦ - في رحاب أئمة أهل البيت عليهمالسلام، السيد محسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات - بيروت ١٤٠٠ هـ.
٢٧ - وسائل الشيعة، الحر العاملي، دار احياء التراث العربي - بيروت ١٤٠٣ هـ ط ٥.
٢٨ - المناقب، الخوارزمي، مكتبة نينوى الحديثة - طهران، ناصر خسرو.
٢٩ - الشيعة بين الحقائق والأوهام، السيد محسن الأمين، مؤسسة الأعلمي - ط ٢.
٣٠ - قصص القرآن، محمد أحمد جاد المولى، دار الرائد العربي - بيروت ١٤٠٦ هـ.
٣١ - مجمع البحرين، الشيخ الطريحي، المكتبة المرتضوية - طهران.
٣٢ - الأمثال في القرآن، الدكتور محمود بن الشريف، دار مكتبة الهلال - بيروت ط ٥.

٣٣ - ثواب الأعمال وعقاب الاعمال، الصدوق، مؤسسة الاعلمي - بيروت ط ٤.

٣٤ - التفسير الكاشف، الشيخ مغنية، دار العلم للملايين - بيروت ط ٣.

٣٥ - السيرة النبوية، لابن هشام، دار الفكر - القاهرة.

٣٦ - من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، دار صعب - بيروت ١٩٨١ م.

٣٧ - أُصول علم النفس، الدكتور أحمد عزت راجح، المكتب المصري الحديث - الاسكندرية ١٩٧٠ م ط ٨.

٣٨ - الخطايا في الإسلام، عفيف عبد الفتاح طبارة، دار العلم للملايين - بيروت ط ١.

٣٩ - سُنن أبي داود، دار الفكر، مراجعة وضبط محمد محيي الدين.

٤٠ - صحيح مسلم، دار احياء التراث العربي، ط ١.

٤١ - الصحيفة السجادية الجامعة، مؤسسة الإمام المهدي (عج) - قم ١٤١١ هـ ط ١.

٤٢ - الأخلاق الإسلامية وأسسها: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني الطبعة الخامسة ١٤٢٠ هجرية/ ١٩٩٩م دار القلم دمشق.

أبحاث المؤتمر العالمي السادس لبديع الزمان سعيد النورسي:

٤٣ - العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور (البحوث العربية) طبعة شركة نسل للطبع والنشر ٢٠٠٤ استنبول تركيا.

٤٤ - أبحاث المؤتمر العالمي السابع لبديع الزمان النورسي التي نظمها مؤسسة الثقافة والعلوم بإستنبول، بعنوان: ممارسة حياة إيمانية فاعلة في سلام ووئام في عالم متعدد الثقافات من خلال رسائل النور الطبعة الأولى ١٤٢٥/ ٢٠٠٤، شركة نسل للطبع والنشر استنبول- تركيا.

٤٥ - إحياء علوم الدين للإمام الغزالي طبعة الدار المصرية اللبنانية.

٤٦ - الإعداد الروحي والخلقي للمعلم والمعلمة: إعداد الدكتور محمد جميل بن علي الخياط، طبعة دار الفيلة للثقافة الإسلامية.

٤٧ - الخطبة الشامية للعلامة بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة وتحقيق

إحسان قاسم الطبعة الأولى ١٤٠٢١/ ٢٠٠١ منشورات الأحمدية للنشر.
٤٨ - دستور الأخلاق في القرآن للدكتور محمد عبد اللّه دراز تعريب وتحقيق وتعليق دكتور عبد الصبور شاهين الطبعة العاشرة ١٤١٨/ ١٩٩٨م مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت- لبنان.
٤٩ - سنن أبي داود، راجعه وضبطه وعلق عليه محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر.
٥٠ - سنن الترمذي، تحقيق وشرح أحمد، محمد شاكر طبعة المكتبة الفيصلية مكة المكرمة.
٥١ - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار الطبعة الرابعة ١٩٩٠ م دار العلم للملايين بيروت لبنان.
٥٢ - صحيح البخاري طبعة عالم الكتب بيروت بدون تاريخ.
٥٣ - صحيح مسلم حقق نصوصه وصححه محمد فؤاد عبد الباقي طبعة المكتبة الفيصلية مكة المكرمة.
٥٤ - مفاتح النور للدكتور فريد الأنصاري طبعة ٢٠٠٤ منشورات معهد الدراسات المصطلحية بفاس ومركز النور للدراسات والبحوث بإستنبول تركيا.
٥٥ - كليات رسائل النور: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: بديع الزمان سعيد النورسي تحقيق إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤ منشورات شركة سوزلر للنشر، فرع القاهرة- مصر.
٥٦ - كليات رسائل النور: سيرة ذاتية: بديع الزمان النورسي، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤ منشورات شركة سوزلر للنشر. فرع القاهرة- مصر.
٥٧ - كليات رسائل النور: الشعاعات: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الرابعة ٢٠٠٥ منشورات شركة سوزلر للنشر، فرع القاهرة- مصر.
٥٨ - كليات رسائل النور: صيقل الإسلام: بديع الزمان سعيد النورسي،

ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤، منشورات شركة سوزلر للنشر، فرع القاهرة- مصر.

٥٩ - كليات رسائل النور: الكلمات: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤، منشورات شركة سوزلر للنشر، فرع القاهرة- مصر.

٦٠ - كليات رسائل النور: اللمعات: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي،، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤، منشورات شركة سوزلر للنشر، فرع القاهرة- مصر.

٦١ - كليات رسائل النور: المثنوي العربي النوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي،، الطبعة الثالثة ٢٠٠٣، منشورات شركة سوزلر للنشر فرع القاهرة- مصر.

٦٢ - كليات رسائل النور: الملاحق في فقه دعوة النور: بديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤ منشورات شركة سوزلر للنشر، فرع القاهرة- مصر.

٦٣ - لسان العرب للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور طبعة دار صادر - بيروت.

٦٤ - منهاج السنة النبوية لابن تيمية تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم الطبعة الأولى ١٤٠٦/ ١٩٨٤ منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٦٥ - الأناجيل التشريعية الأربعة للمسيحية (لوقا، يوحنا، مرقس، متى).

٦٦ - الإمام الغزالي. خلُق المسلم. دار الكتب الإسلامية. مصر. ط ١٠، ١٩٨٩م.

٦٧ - أبوبكر جابر الجزائري. منهاج المسلم. دار الكتب السلفية. القاهرة. ط٢.

٦٨ - محمود بن الشريف. الأديان في القرآن. دار المعارف. القاهرة. ط٦. ١٩٨٦م.

٦٩ - عبد الله حسن رزق. العولمة والعالم الإسلامي...أرقام وحقائق. هيئة الأعمال الفكرية. الخرطوم ٢٠٠١ م.

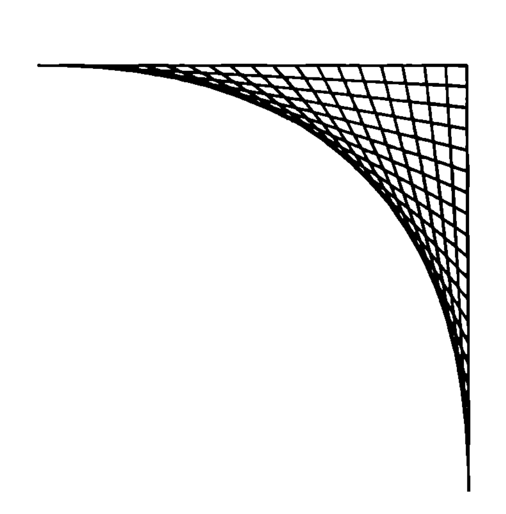
٧٠ - علي أحمد مذكور. مناهج التربية. دار الفكر العربي. القاهرة ٢٠٠١م.
٧١ - عبد الله الطنطاوي. هكذا يربي اليهود أطفالهم ١٩٩٧م.
٧٢ - كتاب المعرفة. التعليم في إسرائيل ديني أم علماني. السعودية ١٤١٧ هـ.
٧٣ - لسان العرب. ابن منظور. دار صادر. بيروت.لبنان.ط٤.
٧٤ - أسس التربية. إبراهيم ناصر. عمّان: دار عمار ١٩٩٤م.
٧٥ - أصول التربية، إبراهيم عصمت مطاوع. ط٧.القاهرة:دار المعارف ١٩٩٤.
٧٦ - مجلة جمعية مكارم الأخلاق، العدد الأول ص ١٠- ١٤، رجب ١٣٤٣هـ.
٧٧ - تاريخ الأمم والملوك، المسمّى: تاريخ الطبري، لأبي جعفر محمّد ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ)، عزّ الدين للطباعة والنشر / بيروت، ١٩٨٥ م.
٧٨ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت ٤٣٠ هـ) دار الكتاب العربي / بيروت، ١٩٨٠ م.
٧٩ - خصائص أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، لأحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣ هـ)، تحقيق أحمد ميرين البلوشي، مكتبة المعلاّ / الكويت، ١٤٠٦ هـ.
٨٠ - الزهد وصفة الزاهدين، لأحمد بن محمّد بن زياد بن درهم (ت ٣٤٠ هـ)، تحقيق مجدي فتحي السيّد، دار الصحابة / طنطا، ١٤٠٨ هـ.
٨١ - سنن الترمذي لمحمّد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩ هـ)، دار إحياء التراث العربي / بيروت، بدون تاريخ.
٨٢ - شرح «نهج البلاغة»، مجموع ما اختاره الشريف الرضيّ، أبي الحسن محمّد بن الحسين بن موسى الموسوي (ت ٤٠٦ هـ) من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام)، لابن أبي الحديد (ت ٦٥٦ هـ)، بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل / بيروت، ١٤٠٧ هـ.
٨٣ - شرح «نهج البلاغة»، للشيخ محمّد عبده، تحقيق محمّد محي الدين عبد الحميد، مطبعة الاستقامة / مصر. بدون تاريخ.

٨٤ - صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجّاج القشيري النيسابوري (ت ١٦٢ هـ)، دار الفكر / بيروت، ١٩٧٨ م.
٨٥ - الطبقات الكبرى، لابن سعد (ت ٢٣٠ هـ)، بيروت، بدون تاريخ.
٨٦ - فضائل الصحابة، لأحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، مؤسّسة الرسالة/ بيروت، ١٩٨٣ م.
٨٧ - الفلسفة الصوفية في الإسلام، د. عبد القادر محمود، دار الفكر العربي/ مصر، ١٩٦٦ م.
٨٨ - كتاب الزهد الكبير، لأبي بكر البيهقي (ت ٤٥٨ هـ)، تحقيق عامر أحمد حسين، مؤسّسة الكتب الثقافية / بيروت، ١٩٩٦ م.
٨٩ - لسان العرب، لابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم الإفريقي المصري، دار صادر / بيروت، ٢٠٠٠ م.
٩٠ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ)، تحقيق محمّد محي الدين عبد المجيد، دار التحرير / مصر، ١٩٩٦ م.
٩١ - المصنّف في الأحاديث، لمحمّد بن أبي شيبة الكوفي العبسي (ت ٢٣٥ هـ)، سلسلة مطبوعات الدار السلفية / بومباي - الهند، بدون تاريخ.
٩٢ - المناقب، لأحمد بن موسى ابن مردويه الأصفهاني (ت ٤١٠ هـ)، دار الحديث للطباعة والنشر / قم، ١٤٢٢ هـ.
٩٣ - من رسالة للإمام قده بعنوان: الفطرة أول منازل التوحيد، إلى ابنه حجة الإسلام السيد أحمد الخميني رحمه الله ١٧ شوال ١٤٠٤هـ.
٩٤ - حجة الإسلام والمسلمين السيد إمام الجعفري، صحيفة «جمهوري إسلامي»، ملحق خاص بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة الإمام.
٩٥ - حجة الإسلام والمسلمين السيد أحمد الخميني، مجلة سروش، العدد: ٦٧٤.
٩٦ - وسائل الشيعة (تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة): ١٠/ ٣١٣، للشيخ محمد بن الحسن بن علي، المعروف بالحُر العاملي، المولود سنة: ١٠٣٣ هجرية بجبل عامل لبنان، والمتوفى سنة: ١١٠٤

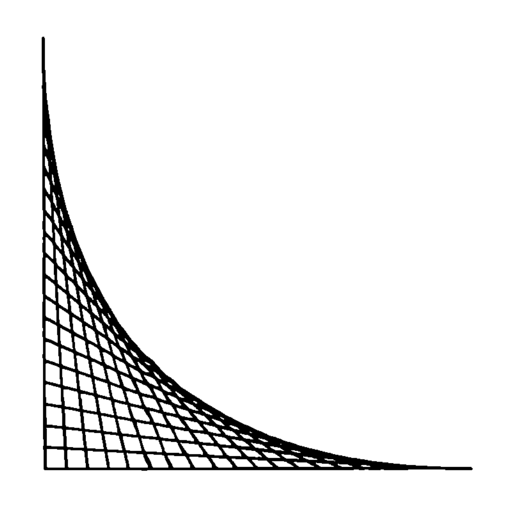
هجرية بمشهد الإمام الرضا (عليه السَّلام) والمدفون بها، طبعة: مؤسسة آل البيت، سنة: ١٤٠٩ هجرية، قم / إيران.

٩٧ - مجموعة ورَّام: ٢ / ٢٣٠، لورَّام بن أبي فارس، المتوفى سنة: ٦٠٥ هجرية بالحلة / العراق، طبعة الأوفست عن طبعة دار صعب ودار التعارف، بيروت / لبنان، سنة: ١٣٧٦ هجرية.

٩٨ - الأخلاق في القرآن،آية الله مكارم الشيرازي،مدرسة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام-قم،ط٢،ج١،ص ١١٣- ١٢١.



فهرس المحتويات



فهرس المحتويات

المبحث الثالث جهاد النفس في فكر الإمام الخميني (قدس سره)، معرفة النفس ووسائل وأركان جهاد النفس، ونماذج من سلوك الإمام الخميني (قدس سره)

المبحث الرابع كيفية السلوك إلى الله، تنوع الطّرق لأرباب السّير والسّلوك المرحلة الاولى في السير الى الله

(التوبة، وجوبها وحقيقتها)

المبحث الخامس في الزهد (الزهد في حقيقته، دَرجات وفوائد الزهد زهد فاطمة الزهراء (سلام الله عليها (والزهد في «نهج البلاغة»)

المبحث السادس الأخلاق الاجتماعية، طرق وموانع تهذيب النفس والأمور المساعدة على تهذيبها وخطوات تهذيب النّفس

المبحث السابع في الإيمـــان (علامات وأوصاف المؤمن حقيقة الإيمان عوامل زيادة وزوال الإيمان مراتب وأنواع الإيمان وأثر الإيمان والكفر على الفرد والمجتمع)

المبحث الثامن طرق الوصول إلى مقام القرب الإلهي، موانع الوصول إلى مقام القرب الإلهي من الأمور المساعدة على الوصول ووسائل اكتساب مكارم الأخلاق ومقام العافين عن الناس عند اللّه

المبحث التاسع في العفو والمغفرة، مقام العافين عن الناس عند اللّه فضيلة الإحسان مقام المحسن عند الله والإخلاص

المبحث العاشر في الذكر والصلاة (مراتب وآثار الذكر حضور القلب في الصلاة والعوامل المؤثّرة في حضور القلب النوافل وصلاة الليل وآثارها كتمان السرّ وفوائد كتمان السرّ)

المبحث الحادي عشر التربية والتعليم في نهج البلاغة، الأسرة وأثرها في إعداد الإنسان موقف الإمام (عليه السلام) من الأسرة)